





الإيمان والروح

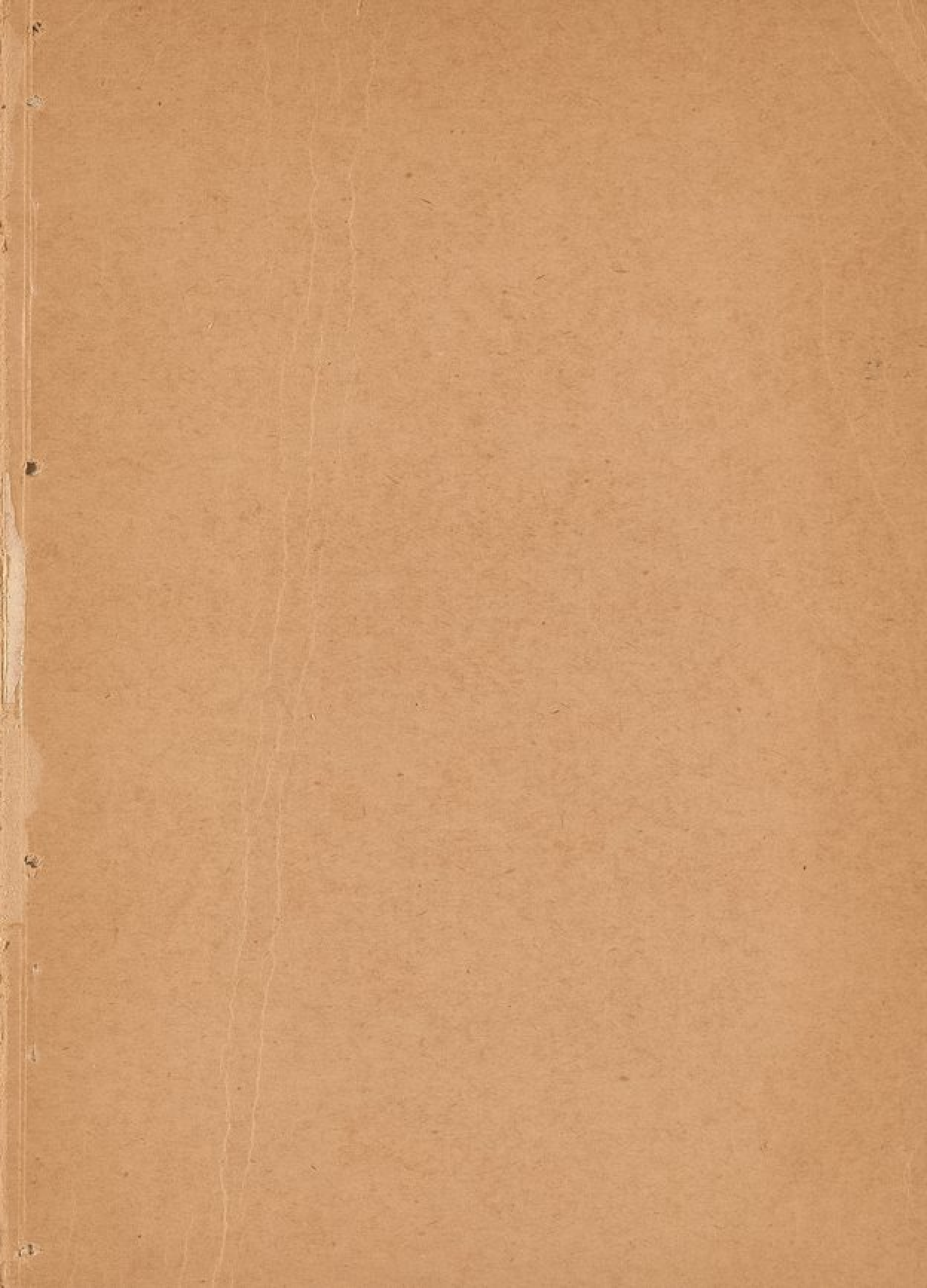
سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم
أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد

« قرآن كريم »

تأليف

أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلواني

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر



الإيمان والروح

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ
أَنَّهُ الحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

« قرآن كريم »

للمؤلف

كتب مطبوعة

يليان فى الأندلس .

طريق الحق ومبادئ السلوك إلى ملك الملوك .

النفحات المحمدية .

المعانى الحسنى فى شرح أسماء الله الحسنى وأدب الذكر والدعاء والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم .

تحت الطبع

قصة الدين .

روح الإسلام .

معركة بين الجن والإنس والملائكة والشياطين (قصة) .

مناجاة الحق .

فهرست

تقديم

لحضرة صاحب السعادة الأستاذ الجليل الدكتور عبد الوهاب عزام بك

مدير جامعة فؤاد الأول بالنيابة وعميد كلية الآداب

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم .

— ١ —

وبعد ، فقد كتب التقى النقى السيد أحمد عبد المنعم الحلوانى كتاباً سماه «الإيمان والروح» وضمنه فصولاً قيمة فى مباحث نفسية وروحية ودينية مثل :

المعرفة الفطرية — الإنسان بطبيعته متعبد يطلب معبوده — الحب نعمة وجمال — الإيمان بالغيب — سبب انحراف الناس عن الحق — حكمة إرسال الرسل — عناية الله بخلقه ومنابع الهدى — موارد الفكر الإنسانى التى يصدر عنها فى أعماله ... الخ

وأتبع هذه الأبحاث بحثاً واسعاً مفصلاً فى تحضير الأرواح ، وأنكر على مدعى هذا التحضير ، ونقد كثيراً من آرائهم وأعمالهم . وروى أقوالا فى هذا وقص قصصاً مختلفة .

والخلاصة أن هذا الكتاب تضمن فصولا فى معانٍ سامية ، ونظرات فى المطالب العالية التى تتصل بالحق سبحانه وتعالى ومباحث إنسانية جليلة جديرة بالنظر والعناية .

— ٢ —

وقد تخلل هذا مأثورات من كلام الصوفية نظمهم ونثرهم ، والأدب الصوفى أدب يبين عن النفس الإنسانية فى أسمى نزعاتها وأصفى حالاتها — ونحن فى حاجة إلى إشاعة

ووصل ما انقطع من أقوال السلف فيه ، وقد دل ما رواه المؤلف الفاضل على أن الشعر الصوفى الذى عرفناه فى تاريخنا البعيد والقريب ، لايزال حتى اليوم شائعاً يترجم عن دقائق النفس الإنسانية ، ويحاول الإبانة عما فى سرائرها ، والإعراب عما لايمكن الإعراب عنه من الشعور الربانى الذى لايحدّ ، والنفحات الإلهية التى لاتحيط بها الألفاظ ، ولا تقوى عليها العبارات .

— ٣ —

وعلى الكتاب مسحة صوفية تشعر القارئ بإخلاص الصوفية فى طلب الحق ، وتواضعهم فى البحث والتحرى واعترافهم بعجزهم ، ومسارعتهم إلى الأخذ عن غيرهم ، والإقرار له بالفضل ، وتوجههم فى كل جليل ودقيق إلى مصدر الفيض الأعظم الذى علم الإنسان ما لم يعلم ، ذاكرين دائما الآية الكريمة « وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

وإن القارئ ليرى نفس المؤلف مخلصة فى مطالبها ، متجلية فى أحوالها وصفاتها ومنازعها ؛ فإن شاء باحث نفس أن يجعل الكتاب من جهة مؤلفه بحثاً عن النفس الإنسانية وجدها فى الكتاب صريحة واضحة بينة لا عوج فيها ولا لبس ولا خداع ولا رياء ، بل يتبين خلجاتها ونزعاتها فى كل فصل من الفصول معروضة للتصوير والتسجيل .

— ٤ —

وبعد، فإنا فى هذا الزمن الذى سيطرت فيه المادة ، وتسلط الحس ، وتحكمت الشهوات وتأله الهوى ، وصرف الناس عن أنفسهم ، ونسوا حقائقهم ، وصموا عن صوت الحق فى ضوضاء الأسواق ، وعموا عن الحقيقة فى غبار هذه المعارك التى يديرها الجشع حول حطام هذه الحياة الدنيا — نحن فى هذا الزمن أحوج ما نكون إلى من يدعونا إلى أنفسنا ،

ويلفتنا إلى الجوانب الروحية فى حياتنا ، فكل بحث فى هـذا الجانب مفيد ، وكل رأى فى هذا الموضوع مهم ، وكل كتابة فى هذا الصدد جديرة بالعناية ، وسواء أوافق القارئ الكاتب على آرائه أم لم يوافقه ؛ فإنما يعنينا أن يهتم الناس بالمباحث الروحية ويُعْنَوا بها ، ويلتفتوا بها قليلا إلى أنفسهم ومبدئهم ومعادهم ، وإنما نريد أن تستيقظ فى الإنسان المطالب الروحية العالية التى تسمو به عن سفساف الأمور ، وتفتح أمامه آفاقا واسعة تصغر فيها هذه المظاهر المادية ، وتشعره لذات عالية دائمة ، يحقر بجانبها ما يعبد الناس من شهواتهم وأهوائهم.

إن المطالب الروحية والنزعات العالية تجمع النفس الإنسانية التى تتقسمها الأهواء ، وتفرقها المطامع حتى كأنها نزعات متعددة تختلف باختلاف الأوقات ، وتعدد المطامع ، وتردّها نفسا واحدة لها عقلها ووجدانها ، تصدر أعمالها عن عقيدة ، وتسير أفعالها على خطة .

ولا تهتدى النفس الإنسانية إلى حقيقتها ، وتتجه وجهتها الحقة حتى تجتمع وتلتئم ، ولن تستطيع هذا حتى تحرر من الأهواء وتخلص من الشهوات التى تفرقها وتشغلها دائماً عن حقيقتها وعن مطالبها العلياء .

— ٥ —

شكر الله للمؤلف سعيه ، وجزاه الخير كفاء إخلاصه للحق ، وحبه الخير للناس ؛ وهداه للتى هى أقوم .

وهو المسئول أن يرزقنا جميعاً الإخلاص فى الفكر والقول والفعل وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

عبد الوهاب عزام

٧ رجب سنة ١٣٦٦هـ
٢٧ مايو سنة ١٩٤٧م



سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ
أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ

« قرآن كريم »

تأليف

أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء

إلى الذى أحبه بروحى وعقلى ومخى وعظامى ودمى ،

وأهتف باسمه ما تردد فىّ نفس ، من ذات روحى ، ومن أعماق نفسى ،

وله محياى ومماتى ، وفى جاهه وكنفه أعيش ، وبسابغ كرمه أحيا .

إلى ملك الملوك السبوح القدوس ، ربنا ورب الملائكة والروح

وإلى الذين يحبونه فيحبوننى وأحبهم بحبه ، وفى ظلاله نحيا فى الحياتين حياة السعداء ، ونصل إلى روح الحقيقة ، فنجتلى من نورها بهجة الجمال ، ورحيق الوصال ؟

ربيب النعمة

الحلوانى

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل

الحمد لله رب العالمين الذى أمدّ أرواح المؤمنين بنور هدايته ، وأنقذهم من نار الغفلة واستعبدهم فى أسرار حضرته ، وأذاقهم برّ رحمته ، وأفاض عليهم من نور خشيته ، وشوّقهم لجنة رؤيته ، فأناخوا على بابه طالبين وصلته ، وعرّفهم منتهاهم فلم يلههم أمل خادع ، وانصرفوا عن الدنيا ، وجعلوا جلّ همهم الآخرة ؛ لينالوا الحظ الأوفر فى دار كرامته .

وصلّ اللهم على سيدنا محمد روح أرواح أهل الحق ، حامل لواء المعرفة بالحق ، خير المرسلين لهداية الناس إلى طريق الحق ، الذى بلغ رسالة ربه ووعد الناس وعد الصدق ، فاتبعه كل رشيد آمن بالله وعمل لما بعد الموت ، حتى يجوز الموت وما بعده آمنا محفوفا بالرحمة والرفق ، ويسعد فى دار لايسعد فيها إلا أهل الصدق ، كما قال الله سبحانه وتعالى : « مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً . لِيَجْزِىَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ » .

وعلى آله وصحبه أهل الإيمان والصدق ، وسلم تسليما مباركا نحوز به قصب السبق .

أما بعد : فهذا كتاب استخرت الله سبحانه وتعالى فى أن أخرجه للناس ، بعد أن كنت لا أرى داعيا لنشره ، خجلا من قصوره وعيه ، أو أن أُحاسَب على قول قد لايوافق الصواب ، ويقفنى موقف أهل العثرات يوم الحساب ، وخاصة فإن موضوعه دقيق خطير ، لا يقدم عليه إلا كل عالم نحرير ، أو فيلسوف حكيم خبير ، فمن أراد أن يكتب فى الإيمان والروح ، فلا بد أن يكون من أهل العلم والحكمة والفتوح ، ولكنى قلت وما علىّ وقد اندرجت تحت قول الله سبحانه وتعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ »

وقوله جل شأنه : « وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » وهذه آيات توجب على العاقل أن يفكر فى نفسه وفى مصيره وقد فكرت كأىّ مفكر يفكر فى عاقبته ، ودوّنت بعض أفكارى قبل أن أقرأ لغيرى لئلا أتأثر بتفكيره ، أو ينفث فى رُوعى من عقيدته دون أن أتبين صواب محجته ، أو يَدَعَ على عقلى حجابا لا أتمكن بعد ذلك من إزالته ، ولأكون حرا لا أعتمد على أحد فى تفكيرى ، ويكون جلّ اعتمادى على ما يفيضه الله على قلبى غير هياب ولا وجل ، فإنى أعتقد أن الله هو المعلم الذى إذا استفتحته فتح لى ، وإذا استلهمته ألهمنى وفهمنى ، وإذا استهديته هدانى ورشّدنى ، والقلوب والأفئدة بين يديه ، لايخطر على القلب خاطر إلا بعلمه ، وقد علمنى والدى رحمه الله رحمة واسعة أن أرفع حجاب التقليد عن عقلى وفطرتى ، فإن هذا الحجاب يميت السموّ والارتقاء فى الأفراد والأمم على السواء ، إذ يصبح الفرد مقيدا مغلولا لايعتمد على الله فى تفكيره ولا يستلهمه ، وتصبح الأمة عالة مستعبدة لغيرها فى العلوم والمعارف ، وهذا الاستعباد أكثر ضررا من استعباد الأراضى والبلاد ، لأنه يدل على أن عقلها لم ينضج للاستقلال بالفكر وهداية غيرها من الأمم إلى سمو الإدراك الإنسانى .

وإطلاق الفكر حرا فى فضاء الفيض اللانهائى يفتح موارد العلم السامى الذى تنتفع منه الخليقة ولا ينتهى . والناس فى التأليف على أنواع :

قوم يعتمدون على النقل ويبالغون فى استقراء المراجع لما لاقى العلم من جهل النقلة وأطياف الكذب ، وهم نقلة العلم وحفظته يجمعونه للناس من الماضى إلى الحاضر حريصون على نسبة العلم لأهله وبيان مظانّه . وقوم ينقبون فى أغوار الماضى عساهم يخرجون ما يفيد فى الحاضر والمستقبل للوصل بينهما مع التهذيب والترجيح . وقوم يقرّبونه للأفهام ويسيغونه للقاصرين . وقوم يجمعون لبحثٍ بعينه ما غاب فى شتات الكتب ، وهؤلاء وهؤلاء لهم الفضل ، ولكن الفضل الأكبر لكل من لايستحيي أن يطالع الناس بأفكاره مهما كانت صياغته لهذه الأفكار ، ويجتهد أن يزيد المعانى معنى جديدا أو يلبسها ثوبا ناصعا تطرب له العقول وتسكن إليه القلوب، حتى ولو أتعب الناس فى أن يغوصوا على درره فى شتات حديثه؛

فإنا لا نحصل على اللآلئ إلا إذا غصنا البحار ، وأحسب أنى وإن لم آت بالكثير منها فقد جئت بما ينفع إن شاء الله ، وهذا ما شجعنى على أن أنشر على الناس صفحة من تفكيرى حتى أشجع غيرى على ذلك ، فقد يكون لدى من لا يحسب لنفسه حسابا؛ فتح قريب وكشف جديد ، وأمة لا تشجع هؤلاء تترك أرضا خصبة فى نواحيها من غير كشف ولا زرع ، ولا تربى الملكات والمواهب الفطرية ، وقد قال أستاذى المرحوم عبد الله بك عفيفى رضى الله عنه :

هو الجِد حتى نحمد السَّير والسُّرى وحتى نرى ليل الحياة نهارا

فما عالم فى الأرض إلا سبيله هجا ألف باء فليس يبارى

ولهذا كان من عادتى أن أدوّن أفكارى ، وأبحث معتقدى فى شىء؛ بنفسى أولا ثم أبدأ فى القراءة لغيرى ، ثم أمحص ما أقرؤه لئلا يفوتنى الانتفاع بما لم يصل إليه فكرى، وحتى أزن ماوصلت إليه بما وصل إليه غيرى، وأجتهد أن أصل للصواب مااستطعت، وماتوفيقى إلابالله.

ثم أقرر خلاصة ما انتهيت إليه وكنت بعد أن أقرأ لغيرى أرى أحيانا توارد الأفكار ، وأن كثيرا من الناس سبقونى فى كثير مما كشفت عنه ، فكنت أفرح بذلك ، ولكنى لم أحاول أن أغير فى عباراتى ، ولا أتزحزح عما اخترته لمسمياتى ، مهما كانوا أحسن منى تعبيرا وأكثر فنا فى عرضهم ، ولو أخذت منهم شيئا تركت كلامى على ثوب فطرته ، وما حلا لى منهم زدته تعاليق ونبهت عليه ، فتجمعت لدىّ جملة مقالات فى الإيمان والروح نشر بعضها فى جريدة منبر الشرق الغراء فى سنة ١٩٤٥ ثم أكملتها بأبحاث أخرى فى الأحلام وعالم الملائكة والجن وتحضير الأرواح وعالم البرزخ وما بعد الموت ، وجعلتها مادة هذا الكتاب؛ وقد جاءت من غير ترتيب أو مراعاة للمصطلحات المتواضع عليها ، لأن جل اعتمادى فيها كان على تفكيرى وما ارتضاه قلبى وما نقلته عن الكتاب الكريم والسنة المطهرة، وخاصة فإنى لم أرد به كتاب علم جاف ، بل أردت به كتاب إيمان وروح من شغاف لطيفة القلب ومن فيح ريحان الروح ، بغيرما تكلف وفى منتهى البساطة ، متنقلا من حديث إلى حديث عسى أن لا يمل قارئُه فينتفع به بإذن الله . وأهم ما أهمنى لإخراجه أن يعلم الناس

حقيقة ماتواضع عليه أهل العصر الحاضر من تسمية تحضير الجان بعلم تحضير الأرواح، وفى هذا لبس ، وقد أهدى إلى صديقى العزيز الدكتور محمد بك عبد الحى كتاب (على حافة العالم الأثيرى) وطلب منى أن أكتب عن هذا الموضوع ولكن مشاغلى منعتنى أن ألبى طلبه فى وقته ، وقد سألنى كثير من إخوانى أيضا بيان هذا الموضوع علما وشرعا ، لأن كثيرا من الناس وقعوا فى هذا الفخ ففسدت أحوالهم فعسى أن يشفى غليلهم هذا الكتاب بعد قراءته ، وكنت أخشى نشره خوفا من الله أن يحاسبنى إذا تعثرت فيه ، قبل أن أخشى الناس إذا انتقدونى على خطأ فاتنى بين سطوره ومعانيه ، أو عابونى على معاناتى موضوعا لست أهلا أن أعانيه ، ولكنى قلت إن الله لا يؤاخذنى مادام رائدى حسن القصد فيه ، وكنت أخشى أيضا أن يزل الجنان والقلم فى عقيدة لاتطابق الصواب، فيقع فيها غيرى بلا ارتياب ، ولكنى أبرأ إلى الله من حولى ومن قوتى وأفر إلى القرآن الحكيم و إلى سنة سيد المرسلين ، فهما عقيدتى التى أدين الله عليها حتى ألقاه ، إذ لايضل من تمسك بهما . فإن أكن وفقت فى حديثى عن الإيمان والروح وسرت مع منطق العصر الحاضر دون أن أتزحزح عن الكتاب والسنة ، فذلك فضل الله وله الحمد والمنة ، وعلم الله أنى خرجت بنتيجة واحدة ، وهى أنى ازددت إيمانا بأن نورهما على الأجيال لا ينطفئ وسراجهما أقوى كل أنوار المعرفة ، فهما الزبدة النقية التى استخلصت من اللبن ، فمن نظر فى غيرهما أتعب نفسه فإذا مارجع إلى الحق وجده فيهما واضحا لايحتاج إلى عناء علماء الشرق والغرب على مر الأجيال مهما مرت على قلوب الناس موجات الريب من ظلمات المعاصى .

وقد ينفع الاطلاع على هذا الكتاب أمثالى ومن كان حاله مثل حالى ، يبيت مبلبل الأفكار لا ثبات له ولا استقرار، حتى يرى نور الحق وما يطمئنه فى سيره إلى الله ويهديه إلى ما فيه السعادة فى دار القرار ، أو أناب طامعا فى عفو العزيز الغفار ، ويعفو عن هفواتى ، وينتشلنى من عثراتى ، ويستر عوراتى ، فإنى أعلم أن الدعوى مجلبة للبلوى ، ويأخذ منه مايفيد ، فينشره للقريب والبعيد ، ويمحص الرأى الفطير ، ويدلنى على الحق وصادق التعبير، فإن ذلك مما يسر قلبى ويريح فؤادى .

ولقد بدأت أفكر فى موضوع الروح وما بعد هـذه الحياة مما سأقصه راجيا من الله أن يغفرلى ما تجرأت على الـكشف عنه حبا فى الخير .

أذكر يوما من أيام سنة ١٩٢٣ ميلادية أنى كنت مريضا فذهبت للمغفور له الدكتور شعبان بك الهريدى، وكنت أعتقد فى طبه و بركته وأمانته رحمه الله رحمة واسعة ، فقال لى تحتاج إلى عملية جراحية ، فقلت له هل من علاج غير المشرط ؟ فقال لامحيص من ذلك ، ثم اختار لى مستشفى كلسلارى بمحرم بك إسكندرية ، وكنت أخاف البنج فقال لى ستأخذ مخدرا من الأثير ، وتواعدنا على الغد ، فخرجت من عنده خائفا أترقب الغد ، وكنت فى شرخ الشباب تأخذ بلبى زهرة الحياة الدنيا، لم يمر بخاطرى أن كل امرئ فيها معرض لأن يودعها يوما لا يخطر له على بال ، وليس عنده من أمره ميقات رغم رؤيتى كل يوم للجنائز . وبت أفكر أنى ربما أفارقها ساعة العملية، عندئذ عرفت ربى وفتق الخطر ذهنى، فبت أصلى ليلتى وأدعو الله بالنجاة، وأقول «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ» ولما أصبح الصباح اغتسلت وصليت ركعتين لله تأهبا لما عساه قد يحدث إذا دعا الداعى إلى لقائه ، ثم قلت لوالدىَّ : إنى ذاهب إلى بعض المدن نزهة واستجماما حرصا على اطمئنانهما ، وحتى لا أشغل بالهما ، إلى أن يأذن الله بالشفاء فأعود إليهما ببشرى النجاة ، ولـكن والدى على غير العادة قال لى سأوصلك إلى المحطة ولم يدع لى مهربا ، فلم أجد فى أثناء السير إلى المستشفى بدا من إخباره ، وقد حجزوه خارج حجرة العملية ، إشفاقا عليه من تلك العاطفة الأبوية ، وقد أنامونى تحت كمامة البنج وصرت أتجرعه شهيقا فى الأنف جرعة بعد جرعة ولا أكاد أسيغه وأعدّ لهم أرقام الحساب ، حتى كادت روحى تزهق من هذا العذاب ، وقد طال بى وبهم الوقت ، وأخيرا أحسست إحساسا لاأشك أنا فيه أن روحى خرجت من جسدى وأنا أعاينه ، إلى أن غاب عنى وطرت إلى السماء ، وهناك وجدتها باهية الجمال ، نورها فوق كل الأنوار التى شاهدتها ، نور يقرب من نور النهار قبل شروق الشمس و بزوغها للأبصار ، لونه أشد اخضرارا وأشد لمعانا من الـكواكب الدرية ، لا يعشو البصر ، فى جمال لا يخطر على قلب بشر ، فتلقانى هناك قوم من العرب يلبسون ثيابا بيضا يلتفون بها على هيئة ثياب الإحرام ، طوال عن

طول جيلنا هذا ، أجسامهم هيا كل نورانية أعضاؤها بلورية متلألئة مملوءة بالنور فى جلال وجمال لا يحيط به الوصف ، إذا رفعوا أيديهم فى الهواء انتشر نورها فى جميع الأرجاء ، كالأنوار الكاشفة ، ولكنها أنوار فى أنوار وأضواء فى أضواء، لايحجب ضوءها باقى الضياء، فسبحان الله الخلاق العظيم ، وكأنهم حضروا للقائى . فلما لاقيتهم حيونى أحسن تحية . ثم ساروا معى فى تلك الأنوار القدسية ، فقلت لهم إلى أين تذهبون بى ؟ قالوا لملاقاة الله ، قلت لهم : إن لى ذنوبا ، قالوا أبشر فقد غفرها الله لك ، قلت لهم إنكم لا تعلمونها وهى كثيرة جدا ، قالوا أبشر فقد غفرها الله لك جميعها فسر معنا للقاء الله ، قلت بخ بخ ولكن أحب أن أرجع لأهل الأرض ، فأبلغهم ما أنتم فيه من النعيم ، وأخبرهم عن هذه الحياة الحقة وهذه الأنوار العظيمة المتلألئة ؛ فإنهم لو علموها ماحرصوا على الحياة وما خافوا الموت ، بل تجرعوه كما يشربون فنجانة من الشاى سراعا إلى هـــذا النعيم ، وهذه الحياة الصافية الخالية من النصب واللغوب ، قالوا مالك ومالهم ؟ قلت لابد أن أبلغهم ، ثم انتزعت يدى بقوة منهم فتنبهت ، فإذا أنا على سرير المستشفى وإلى جوارى والدى رحمه الله . فلما رأيت أنى رجعت إلى هـذه الحياة ضاق صدرى وندمت على ما فعلت مع هؤلاء الأبرار ، وأنى طاوعت نفسى فى الرجوع ثانية إلى هذه الدار ، وقلت لها ياليتك نجوت وبرئت من اكتساب الأوزار ، وما شأنك بالناس والناس لرب الناس ثم بكيت . فأشفق علىّ والدى وظن أن هذا أثر البنج فقال لى متلطفا : لا تظن أنى تألمت لك فى أثناء العملية فإنى سمعتك طول العملية تقول الله الله لم تفتر ولا لحظة حتى انتهوا منها ، فاطمأننت لذلك وأنت بخير ، فقلت له ما أحسست أنى أذكر قط ووالله ما أخاف شيئا ولكنى حزنت إذ عدت أرى ظلام هذه الحياة ، ثم صرت أتكلم عن أحوال الروح بكلام غريب ، ومن هذا اليوم ابتدأ تفكيرى وصرت أتعمق فى التفكير ، وازددت تطلعا إلى العالم الآخر لما مرضت ثانية واشتد بى المرض حتى ضاق بى، فأخذتنى غفوة بين النوم واليقظة ، فرأيت سيدنا آدم عليه السلام إلى جوارى ، آدم الوجه فى سمرة جميلة ذا وجه لم أر أجمل منه ، إذا تصور أىّ فنان جمال وجه فرسمه بريشته لم يبلغ فنه هذا الجمال فى جميع تقاطيع الوجه ، جمال أخاذ فى رهبة

وجلال ، ولكنى وجدته عابسا يكاد يخلع قلبى من شدة عبوسه ، وكنت أدرك من نفسى أن ذلك من عظيم ذنبى ، ولكنى تجرأت عليه ، وقلت له : لا أحب أن أراك على هذه الحال ولا أدعك حتى تضحك ، فتبسم تبسما لطيفا ، فقلت له إذن ادع لى ، فقال لى غفر الله لك ، فانتبهت من غفوتى مسرورا ، وبرئت من مرضى كأنى خرجت من عقال ، ومن هذا اليوم وأنا أحب سيدنا آدم أبا البشر عليه صلاة الله وسلامه ، وأرى فى الناس عقوقا إذ لا يذكرون والدهم الأكبر كما يليق بمقامه ، وكما يستحقه لبره بالمؤمنين من ذريته ، جزاه الله عنى وعنهم خير الجزاء .

وقد زادنى تطلعا لمعرفة ما بعد الموت ، ما صدمت به يوما بعد يوم من فراق أحبتى ووالدى الذين سافروا من هذه الدار إلى الدار الأبدية ، وعلمت علم اليقين أن دار الدنيا ليست دارقرار وأنه لابد لى يوما من الأيام — إن طال العمر أوقصر — من السفر إلى حيث سافر هؤلاء ، فإنه لم يسمع أن أحدا ممن كانوا قبلنا لم يذق طعم الموت وكان من الخالدين ، وعلمت أن العاقل من يستعد لعاقبته ويتشوق لمعرفة ما بعد الموت ، وكانت أول صدمة صدمت بها موت أستاذى العارف بالله القطب الجليل سيدى الحاج محمد أبى خليل ، فما أحسست بضيق فى صدرى من الحياة إلا بعد وفاته إذ كنت مغمورا من وجوده بأنس لا يعلمه إلا الله ، فقد كان قدس الله ثراه ، ورفع درجته فى درجات المقربين ، روحا عالية ، ونفسا عظيمة ، وكان معلما ومربيا ، وكان ردءا وكنفا ، وكان ملاذا وعونا على النائبات ، وكان واسع الصدر يفيض أنسا وحنانا على تلاميذه أجمعين . فما أحسست ظلمة الحياة إلا من بعده . ثم صدمت بعد ذلك بموت أحد إخوانى الصالحين ممن كنت أحبهم حبا جما ؛ لدماثة خلقه ، وقوة إيمانه وفرط كرمه : وهو المرحوم (محمد بك الفقى) من كمشيش منوفية ، رحمه الله رحمة واسعة ؛ وزاد فى تأثرى أنه كان فى صحة جيدة وأنه نبأنى يوما وأنا أزور معه مقام سيدى أحمد البدوى بطنطا ميقات موته والمكان الذى سيموت فيه ، إذ قال : رأيت أنى خرجت للحج فى هذا العام وأنى أطوف ، ولكنى غير قادر على الطواف ، فحملونى حتى لا أحرم الطواف وكان إلى جوارى والدك ، فقال : تجلد يا محمد بك ، فإنا نذكر أكثر منك حتى تخرج حرارة الذكر من رءوسنا

فتشققها ، وتتحمل ذلك الذى أنت فيه وأكثر منه ، ولكنى ازددت شوقا إلى لقاء الله . فأنا سأحج وأموت بمكة وقبرى هناك ،فقلت له ستحج ولكن الشيطان يخوفك حتى لاتحج هذا العام. قال والله إن الشيطان لايخذلنى ، وما أنا بخوار فأنكص عن لقاء الله فى طهر الحج وبراءته ، ولكنى أقص عليك مالا أخفيه عن حبيب ، ثم سافر للحج وما لبثت أن جاءنى خبر وفاته وأن والدى رحمة الله عليه كان إلى جواره يقول له تجلد ويواسيه بنفس كلامه الذى أخبرنى به. ثم توالت أخبار الموتى من الأحباب والناس ، حتى يئست من دار الغرور، ولكن للأسف لم أكتنز للآن شيئا ينفعنى عند الرحيل منها ، وكلما أردت حسنة دهمتنى سيئة من أوزار الاختلاط فى هذا الزمن الموبوء بالمعاصى والمنكرات ، مع دوافع النفس التى تميل إلى سفاسف الأمور ، وحب الشهوات ، ومزالق العالم الحالى المتهالك على الدنيا ، الذى يحتقر العامل ، ويبطش بالفقير ، ويصرع الحق ، ويناصر الباطل حتى أصبح أهل الصلاح يتوارون من الناس كأنهم عار على المجتمع وأهل الدعارة صاروا من أهل التقريب لا يعيرون بالمنكر ويتقدمون فى المناصب والمصالح ، فاتسع الخرق على الراقع ، ولكنى مؤمن بالله أحكم الحاكمين وأن حكمته اقتضت ذلك ليزيد فى أجر المحسنين .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يطيل العمر ويحسن العمل ، وأن يجعلنى من الهداة المهديين ، وأن يجنبنى الزلل وباطل القول ، ويجعلنى من الصادقين ، وأن يدخلنى برحمته فى عباده الصالحين ، وأن يتقبل كتابى هذا قبولا حسنا ويعم بنفعه المسلمين والناس أجمعين ، ويجعله خالصا لوجهه الكريم إنه أكرم مسئول . وهو على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير ؟

أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى

تحريرا بالقاهرة فى يوم الاثنين { ١٢ من ربيع الأول سنة ١٣٦٦ / ٣ من فبراير سنة ١٩٤٧ }

المعرفة الفطرية

أذكر يوما أديت فيه أعمالى، وعدت إلى منزلى فى الظهيرة، فأحضر لى غدائى، فلم أستسغ منه إلا قليلا مع حسن أنواعه وتعدد ألوانه ، ثم أخذت فى مقيلى ولكنى لم أذق طعم الكرى لحظة ، وكان اليوم صائفا شديد الحر، فخرجت من المنزل أيمم بعض الحدائق الكبرى، وكنت منقبض النفس أكره أن أرى البعيد والقريب والعدو والحبيب ، لم يكن كل ذلك عن تعب فى الصحة ولا شكاية فاقة أومسغبة، قد يكون من الحر ، وقد يكون من عدم وفاء من لاقيت من الناس ، وتشعب آرائهم وكثرة لغطهم ، وزيادة نهشهم لأعراض غيرهم ، وقد يكون من غير ذلك ، ولكنى كنت أحس فى صدرى ضيقا ، يملك علىّ أنفاسى حتى ضاقت بى الدنيا على سعتها ، وما زلت كذلك حتى وصلت إلى الحديقة ، واتخذت منها مكانا قصيا بعيدا عن أعين الناس لاأسمع فيه همس الآدميين ، جلست أسمع تغريد بعض الطيور وأتأمل جليل صنع الخالق ، فإذا بى أستبدل بالضيق انشراحا، وبالقلق راحة واطمئنانا، فقلت ما أجمل حياة العزلة فى جو الطبيعة الصافى من أدران الخلق ،لقد سُرى عنى بالبعد عنهم،وقلت لنفسى : لِمَ لَمْ أمْلِكْكِ وقت الضيق فأجعلك ممتلئة سعة و إيناسا ، لقد حاولت كثيرا فلم أستطع ولو اشتد علىّ ضيق مثل هذا يوما من الأيام لصرت إلى الموت ، وقلت لنفسى أمن ضيق لاتعلم مصدره تموت ؟ وهل تضيق بنفسك أم تضيق بالعالم ، أم العالم يضيق بك فينأى عنك ؟ وهلا يكفيك من العالم هذه الشهوات فتتمتع بها كيف شئت ، وتنغمس مع أهلها فتأنس وتلهو ما طاب لك الهوى فلا تشعر بالضيق ؟ و لِمَ لايتسع صدرك لهذا العالم وما فيه من متع ولذات ؟ وعدت أقول أوَ لايعترينى الضيق بعد ذلك ؟ وما يدرينى لعله لو جاء بغتة وحل بقلبى لايصرفه أحد من الناس ولا تحوله عن صدرى تلك الملذات ؟ لايمكننى أن أدفعه إذا جثم على صدرى فأخذ على أنفاسى ، وغير إحساسى، وأحال طعم الحلو ملحا أجاجا، وأرانى النور ظلاما حالكا ، وجعل الحبيب عدوا مبينا . وهل لايعترينى الغم ولا تنزل بى النوازل ؟ محال هذا ، فكم وجدت حبيبا طواه الموت ولا يزال يتخطف الناس واحدا واحدا ، وكم

رأيت قوما باتوا فى الفقر والشقاء بعد الغنى والثراء ، حقا ما أضيق الحياة إذا ساورها هذا الضيق وكان الموت نهايتها الذى ينتهى إليه الإنسان ! . وتنبهت بعد هذا الشعور إلى ما حولى من مرائى الطبيعة البهيجة ، فرأيت إحساسا من الأنس الذى لا أعلم مصدره يغمر صدرى وصرت أردد :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ « الرَّحْمٰنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » .
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ » .

ما أعذب هذه الآيات الشريفة ، وما أرقها من سلسبيل تحيا به القلوب وتنتعش به الأفئدة ، من تذوق حلاوتها ، وأدرك مراميها ، أينعت فى قلبه شجرة الإيمان ، وآتت أطيب الثمرات ، كلمات تسيل سهولة ورقة ، وتزداد حلاوة على التكرار ، وتزداد بفضل تفهمها معارف الإنسان . فهى مصدر المعرفة وآية البيان ، « الرحمن ... » ما أجله تفضل على خلقه بالإدراك والوجود ، وأنعم عليهم بجلائل نعمه ، وأسبغها عليهم ظاهرة وباطنة ، وغمرهم بفيض المعرفة ، ونور العقل والإدراك ، ولولا ذلك الفيض وهذا النور السارى فى ملكوت السموات والأرض لانطفأ سراج العالم ، وتعطل الفهم وحسر اللب عن تفهم آيات الله وتذوق نعمه وحمد آلائه . لولا الرحمن ما كان الوجود ، ولولا نوره ما ارتقى العقل إلى الإدراك السامى ، ولولا فيضه لارتد العالم كئيبا حزينا ؛ وما تذوق إنسان نعمة من نعمه ، ولا فهم دقيقة من إبداع صنعه ولا صفة من صفات كماله وكبير آلائه ، ولو لم ينعم على خلقه بقوة أسرار المعرفة الباطنة والغرائز الملهمة والفيض الذى لاينقطع بين الخالق والمخلوقين بسر إرادته وتدبيره ودقيق حكمته وبر حنانه ، لحرموا التشوق إليه ولضاقت عليهم الأرض بما رحبت وظلت صدورهم ضيقة حرجة ، لايؤنسها أنيس ولا ينقذها من غياهب ضلالها منقذ ، لولا الله ما اتخذت من الخلق أنيسا ولاستوحشت فى هذا الوجود الذى ليس له سراج من نفسه . فإلى الرحمن أحن بسر باطن وإليه أتوجه وبنوره أهتدى ، وبفيضه آنس وأزداد معرفة بسر هذا الوجود . وكانت المعانى هى التى تفيض فى نفسى كأنها لم تبلغنى من قبل ،

وتنساب بغزارة فى قلبى حتى أنستنى الحياة وآلامها ، وغمرتنى بأنس كنت أشعر أنه لو وزع على أهل القبض لانبسطت أساريرهم ، ورقصوا من هزة الطرب .

ذلك أنى سمعت هاتفا فى أعماق القلب يحركه : كيف تنسانى وأنا لا أنساك ؟ كيف لاتذكرنى وأنا خالقك ؟ كيف تنظر إلى ما أبدعتُ ولا تتطلع إلىّ وأنا مبدعه ؟ كيف ترجو الوفاء من الخلق وهم لايبدونه لك إلا إذا أردتُ ؟ إنهم لايملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، وكيف تأنس بهم قبل أن تأنس بى وقلوبهم بيدى أحركها كيف أشاء ؟ ألم تعلم أنى أحول بين المرء وقلبه ؟ أنا أوفى الأوفياء ، أنا الذى خلقتك وخلقت العالم كله وإلىّ يعود ، اطلبنى تجدنى ، تجد الأنس والسعادة التى لا تجدها إلا بذكرى .

ثم سكن الهاتف ، فسكنت وعدت إلى نفسى ، وأخذت أسائلها أين كنت قبل هذا العالم ؟ وطافت بى ذكريات الماضى من بدء خلق فقرأت « هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ، إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً » وقرأت « أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِير . قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » وقرأت « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ . وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ . وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ . فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ . وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » .

قلت بخ بخ ؛ هذا هو القرآن يرد الإنسان إلى صوابه ويهديه إلى الحقيقة سريعا ، وهى حقيقة لأنها واضحة تمام الوضوح ، وكلما كان الكلام مطابقا للحقيقة من أقرب معانيها استراح له القلب واطمأن له الفؤاد .

ولكنى ساءلت نفسى هل إذا بقيت فى هذا العالم وحيدا ، وفرضت أنى لم أعلم من علم الناس شيئا هل أصل إلى المعرفة ؟ .

فتذكرت ساعة الميلاد هل كان الإنسان يدرى شيئا من هذا الوجود ؟ فقرأت « واللهُ أخرَجَكُم مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وجعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والْأَبْصَارَ والْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

ثم تتبعت الطفل من يوم الميلاد فرجعت بنفسى إلى ذكريات الطفولة منذ ولدت طفلا رضيعا على ثدى أمى ، وهل كنت أدرك شيئا ؟ فلم أذكر أنى كنت أعقل شيئا حتى الرضاعة كنت لا أدريها ، ولولا أنى كبرت ورأيت الأطفال يرضعون ما فهمت أنى كنت رضيعا مثلهم، لأنى كنت فى عماء من التمييز والإدراك ، وها أنا ذا أرى الطفل الرضيع لايدرك شيئا إلا أنه يبكى عند الجوع والألم فإذا ما شبع وصح نام واستراح . وأمه تحتضنه وتفيض عليه من أعماق قلبها كل حب ورعاية . ولكن الطفل لايدرك هذا الحب ولا هذه الرعاية .

وأحسب أن هذا الإنسان مثل هذا الطفل تحتضنه العناية الإلٰهية بصورة أسمى من عمل الأم مع طفلها ولكنه لايدرك ذلك كل الإدراك .

ولا زلت مع الطفل الحظ « أو أتبين » أحواله من الرضاعة وهو يترعرع وجسده ينمو وئيدا فأجد أن ما يتعرض له من الجوع والألم والحاجة يوقظ فيه حاسة التنبه لما يحيط به شيئا فشيئا فيعرف والديه ويحس حنانهما وحدبهما عليه ، إلى أن يدرك أنهما أولى به من نفسه ، يسهران على راحته ، ويقضيان حاجاته ، وينشئانه ويؤدبانه وينبهانه إلى مايحيط به ، فإذا ما بلغ السابعة من عمره بدأ يسأل عما يراه فى محيطه وبيئته ، وما يبلغ الخامسة عشرة من عمره حتى يعلم أنه إنسان مدرك له عقل وتمييز تجيش فى مشاعره جميع الأحاسيس وهو فى كل ذلك فى حيرة من نفسه ، إذ أصبح إنسانا يدرك ويحس ويعقل ، فأين كان قبل

هذا الوجود ؟ ويسائل نفسه من حين إلى آخر متى بدأت أدرك ؟ وكيف أوتيت هـذا العقل ؟ وهل عقلى تابع لهذا التركيب الجسمانى ؟ وما علاقة هذا العقل المميز بهذا الجسد الفانى ؟ وما علاقة المعانى بالجواهر المادية ؟ وأيهما تسيطر على الأخرى ؟ ولا يزال فى حيرة من أمره حيث لايعرف سر الروح المدركة وأين كانت قبل هذا الجسد ؟ ولماذا نما إدراكها بنموه ؟ أهى تابعة له فى الميلاد تولد بميلاده وتفنى بفنائه ؟ أم هى سابقة على وجوده ؟ ثم إذا كانت سابقة على وجود هذا الجسد فأين كان مقرها ؟ وهل كانت مميزة ؟ فإن كانت كذلك فلم لم يظهر هـذا التمييز من أول لحظة ظهرت فى دور الطفولة ؟ أكان يعوقها جسد الطفل الصغير عن بلوغ غاياتها ، أم هو نقص وعجز منها ؟ أم أعجزها علم هذا العالم الجديد فبدأت تتعلم لغاته وطريقة التخاطب وماهية حاجاته وشئونه وتدرجت مع الجسد فى نموه ، وانتظرته حتى تتم معارفها وقت تكوينه ، فتنتفع به بعد بلوغ أشده ؟ وهذا الجسد أهو أداة لها أم هى أداة له ؟ وهل ضعف أحدهما يؤدى إلى نقصان الآخر ؟ ولا يزال الإنسان بغريزة حب الاستطلاع وفطرته التى فطره الله عليها يبحث عن سر وجوده ، ويتمنى لو أنه يستطيع أن يكشف عما وراء هذا العالم من عوالم ، وعما وراء هذه الحياة من حياة ، ومايتنظره فى مستقبل أيامه ، ويرى أن المادة لاعقل لها ولا إرادة ، فلا بد أن يكون العقل وأن تكون الإرادة من عالم فوق عالم المادة أسمى بكثير من هـذه العوالم ، فما هى الإرادة التى أنشأته ؟ وما هى الحكمة الخفية فيه ؟

أمسى علىّ الليل فى هذا التفكير ، فقفلت راجعا إلى منزلى ولـكن هـذا التفـكير كان بداية سلسلة من الأفكار التى ستطالعها فيما يأتى :

بدأت أفكر فى الشمس لها حرارة مفيدة تضىء ضياء باهرا ، وتسير فى مواعيد منظمة لاتتخلف لحظة ، وأرى القمر والنجوم تسبح فى الفلك وتسير فى نظام دقيق غاية فى الدقة ، ويغيب عنى معظم حقائقها ودقائقها ، وأرى النواميس الطبيعية ، فى أوضاع بديعة ، لم يستوعبها الخلق جيلا بعدجيل مع كثرة البحث والتحرى ، وكلما كشف الباحثون عن شىء أعجبهم أدهشهم وبهر عقولهم ، كشف جديد كانت الأجيال الغابرة عنه فى عماء ، وكلما ظنوا أنهم

وصلوا إلى حقيقة بعض السنن جاءهم الغد بما يخيب ظنونهم ويقفهم حائرين ولإعجاز الحق باهتين ؛ ولا يزالون يكشفون ويبحثون فلا يبلغون قطرة من بحر هذا الإبداع « فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ[(١)] » وهاهى ذى الأرض من جبالها جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، وبها معادن مختلفة من ذهب ونحاس وقصدير وزنك وزيت اللهب إلى غير ذلك مما يحتاج إليه الإنسان فى حاجاته وشئونه ، وفيها جنات وعيون وبحار وأنهار يسعى الخلق فيها استدرارا لخيراتها وكنوزها فتفيض عليهم على توالى الأيام بما لاينضب له معين ، وهم فيها يعملون ولا يعملون — يقلبون الأرض ويبذرون الحب فهل هم منبتوه ومخرجوه من أكمامه ؟ كلا بل لايستطيعون تكوين ورقة من أوراقه ، أو تلوين لون من ألوانه ، أو إيجاد طعم من طعومه أو رائحة ممايفيح منه «أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ[(٢)] » انظر إلى النخيل وثماره والكرم وأعنابه والخوخ والرمان وغيرها من مختلف الفواكه ، واقرأ قوله سبحانه وتعالى« وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[(٣)] » .

أنظر إلى الأزهار وألوانها البهيجة المتعددة وكيف يحاكى بعضها صور الحيوان وبعض مايحتاج إليه الإنسان من أداة ، فصائل مختلفة كأنها نقشت بيد رسام سليم الذوق لايجارى فى سلامة ذوقه ، وكم لها من روائح جميلة تشرح الصدر وتملأ الجو عطرا زكيا .

أنظر إلى الطيور وما فيها من عجائب وألوان تر فى الريشة الواحدة جملة ألوان مختلفة لونت بافتنان وإبداع ، فما أحلى الطاوس فى نسقه وألوانه ، صورة رسمت بيد فنان ، ومن أمثاله ما لايقع تحت حصر يتعلم الإنسان منه سبيل الذوق وطرائف المدنية .

وانظر إلى الحيوانات الأليفة والمفترسة وعاداتها ونظامها فهى أمم كل أمة منها تحتاج إلى دراسة طويلة . وانظر إلى البحار والأنهار « هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا

---

(١) آية ٣ ، ٤ الملك (٢) آية ٦٣ ، ٦٤ الواقعة (٣) آية ٤ الرعد .

مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا[١] » .

وانظر إلى التيارات الحارة فى وسط الجليد البارد .. وانظر ثم انظر فى آيات الكون تجد مايحير العقول ويبهر الألباب ، ثروة لايفنيها الفكر والتدبر مهما جال العقل وصال على مرّ السنين وكرّ الدهور « إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[٢] » . هذا الكون الذى نعيش فيه مهما تعمقنا فى بحث أسراره وعجائبه ودقائقه وآيات إبداعه وخفاياه لن نصل إلا إلى يسير من سبرغور إبداعه ونرجع عنه حاسرين ، ولكنا نصل إلى حقيقة واحدة ، وهى أن لهذا الكون مدركا أكبر ، دبره وأودعه أسراره وخفاياه ، وأحاط بها إحاطة قدرة منزهة عن العىّ ، فإنه لابد لهذا الوجود من موجد أراده على هذه الصور البديعة ، ولهذا الخلق من خالق ، وهو السر الباطن الذى يتجه إليه الإنسان بقلبه لأنه يحنّ إلى موجده فهل له مثيل يدانيه ؟ لو وجد لكان لهما مدرك أكبر أوجدهما ، وهل له من يشاركه ؟ لو وجد لاختلفا واحتاجا إلى حاكم أعظم وهو الذى عنه أسأل ، هو الذى لا يدانيه أحد ولا يشاركه أحد ، هو خالق العالم ومريده ومدبره ، هو الذى يفيض الإدراك والمعرفة على المدركين ، سابق على الخلق بوجوده ، ووجودهم من فيض جوده ، وهو الذى يحن إليه كل ذى عقل سليم ، فهو يدرك خلقه . ويعجز كل مخلوق عن إدراك كنهه أو وصف عظمته ، إذ كيف نصف من لا مثيل له « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[٣] » ولايصح تمثيل خالق بما خلق ، ومبدع بما أبدع ، يفيض الإرادة والوجود على المستحدثين ، إذا انقطع فيضه رجعت العوالم إلى الفناء ، وانطمست أفكار المفكرين وإحساسات المحسين فلا نرى فى الأكوان من نأنس بوجوده ولا شيئا نلتذ به .

نعم قد غاب عنا فى حجاب إبداع آياته لعجز فينا عن إدراك ظهوره فى جلال عظمته وكبريائه ومجده ونزاهة صفاته ، ولقصر فى أبصارنا ونقص فى صفاتنا ، حتى نتعلم بخفى حكمته

---

(١) آية ١٢ فاطر . (٢) آية ١٦٤ البقرة . (٣) آية ١١ الشورى .

ما أراده من وجودنا ، ونتحرق شوقا إليه زيادة فى الضراعة والإنابة والالتجاء إليه .
لذلك أرى أن الإنسان إذا كان عاقلا سليم الإدراك مخلّصا نفسه من التعلق بأباطيل المضلين لم يحتج فى الإيمان بالله إلى من يدله عليه، فطبيعته تطلبه و باطنه يحنّ إليه .

يقول الإمام الشيخ محمد عبده (وقد اتفق المسلمون ـ إلا قليلا ممن لا يعتد برأيهم فيه ـ على أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات ، وأنه لا يمكن الإيمان بالرسل إلا بعد الإيمان بالله ، فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة ، فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله ، و بأنه يجوز أن ينزل كتابا أو يرسل رسولا) .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(١) » .

فدلائل معرفة الله سبحانه وتعالى خالصة بنفسها يقبلها العقل السليم و يرفض ما يشوبها والرسل تبينها للمميزين ، وتعلمها للمتفهمين ، وتسيغها للقاصرين ، وتخلصها من أرجاس الشياطين وترّهات المضلين .

فإذا آمنا بالله سبحانه وتعالى إيمانا لا شرك فيه فعلينا أن نصدق بالرسل ، لأنه من حقه أن يوحىَ إلى من يشاء من خلقه ما يريد من بلاغ وما يأمر من أمر وما ينهى من نهى ، وما يتعلق بالأمور التى يريد إخبارنا بها من السمعيات التى لم نصل بعد إلى معرفتها ، فإذا بلّغوا صدّقنا ، وهـذا سبيلنا إلى المعرفة « قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(٢) » .

ذلك هو دين الإسلام ، دين الفطرة « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٢) » .

---

(١) آية ٣٠ الروم . (٢) آية ٨٤ ، ٨٥ آل عمران .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلاَّ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ ، ثُم يَقُولُ : أُقْرَءُوا فِطْرَتَ اللهِ الّتِي فطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ، أوْ يُنَصِّرَانِهِ ، أوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ . هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ، حَتّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا ؟ ، قَالُوا : يَارَسُولَ اللهِ ، أفَرَأيْتَ مَنْ يَمُوتُ صَغِيراً ؟ قَالَ اللهُ أعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ » .

« رواه البخارى ومسلم »

الإنسان بطبعه متعبد يطلب معبوده

يولد الإنسان فى هذه الحياة الدنيا يغدو ويروح ، حتى إذا ما استوى وبلغ أشده تعرف الحياة ، وصقلته حوادثها من رخاء وشدة يبدأ تفكيره فى نهايتها ، فلا يجد نهاية له إلا الموت الذى قضى على الأجيال الماضية قرنا بعد قرن فـ« هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا[1] » ولم يبلغه فى الأنباء أن مولودا ذاق طعم هذه الحياة أو ذا روح وجسد كان من الخالدين ولم يتجرع كأس الموت ، ويرى أن الراحلين من هذه الدار لا يعودون إليها فيسمعون أعقابهم شيئا من أخبارهم بعد الموت ، ثم ينظر إلى جثثهم فإذا هى عظام نخرة تأكلها الأرض ، وقليلا ما تترك لهم أثرا من الآثار .

ومن يولد يعش ويمت كأن　　لم يمر خياله بالكائنات

فإذا ما رأى آية الفناء تطلبه ورأى مثله فى الذاهبين الأولين ، اهتزت مشاعره وتحرك وجدانه ، وتألم غاية الألم ، وتمنى لو أنه لم يدرك معنى الوجود ليلحقه بعد ذلك الفناء والعدم ، أو ينعم بنعمة الوجود السرمدى فلا يحز فى نفسه هذا الذى يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويكاد ينسى وجوده لما يهوله من فكرة الموت ، ولكنه مع ذلك كله يعتقد اعتقادا جازما أنه إنسان حقيقة له ذات معنوية لها إرادة وتمييز واختيار ، لها صفحة من الوجدان والتفكير يستطيع خياله أن يسبح فى جميع العوالم المحيطة به ، ويجد أن هذه معنويات تشع فى باطنه بغزارة تلهب فيه العاطفة وتؤمله فى الخلود ، ولكنه يحتار فى تكييف مصدرها وكيف تتصل بجسده الفانى وتسير معه إلى نهايته ؟ وهل تنتهى هذه المعانى بفناء الجسد ؟ وهل يطوى الموت كل هذه المعانى والأحاسيس ؟ ويجد فى نفسه حبا جما ، وميلا غريزيا للبقاء ، ويجهد ويشقى حبا فى البقاء ، فإن لم يبق بنفسه فليبق بذكره وأثره ، فيكرس حياته للتاريخ والولد ، ولكن لا بقاء لأثر أو ذكرى كل ارتكازها على من كتب عليهم الفناء ، فهى فانية بالضرورة ، وكلما تجيش بالإنسان فكرة الفناء تتلاشى معه الآمال وينعدم فيه الشعور بالواجب ولم يكترث بالمسئولية وإذا كان هو فانيا فعلى الدنيا العفاء ، ولكنه لا يستطيع التسليم بأنه فان فناء كليا بالجسد والروح ، وهو يسلم بوجود الروح المريدة المدبرة المميزة المختارة العاقلة التى تتذوق اللذة والألم ،

---

(١) آية ٩٨ مريم .

وهو يحسها إحساسا لا سبيل للشك فيه، وعقدة العقد أمامه فى مدى اتصالها بالعالم المادى وعلاقتها بالجسد، وهل هى حقيقة بنفسها تسيطر عليه ؟ أم هى تابعة له ؟ فان كانت تابعة له فهو لابد فانٍ، وذاته متعلقة بالبقاء تعلقا شديدا ولا يكاد يصدق أنه بعد أن تذوق نعمة الوجود والإدراك التام يعود إلى الفناء الكلى، ويعجز تفكيره عن فهم حقيقة نفسه ولكنه يحس شعورا عميقا يفيض على باطنه يقوى فيه الأمل ويبعثه على حب البقاء « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١) ».

ويقول الحق سبحانه وتعالى « وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢) » . والله سبحانه وتعالى يعطى الدليل القاطع للانسان حتى يقر أنه عاجز عن إدراك حقيقة نفسه مع اعترافه بوجودها ليكون دليلا على وجود الله مع عجز الإنسان الكلى عن إدراك كنهه وخفى لطفه، وهذا العجز فى الإنسان وسيره إلى الفناء الجسمانى بعد هذا الادراك المعنوى مع شدة تعلقه بالبقاء بعد تذوقه نعمة الوجود يلزم كل إنسان التفكير فى حقيقة العالم وإلى أى غاية وحكمة تسير معانيه « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ . أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٣) » .

فالإنسان يطلب البقاء وينشده بكل عواطفه وبجميع نفسه، ويبحث فى الوسائل الموصلة إليه، فإما أن يهتدى إلى سبيل البقاء الذى يطلبه مشمولا بالسعادة الأبدية، وإما أن يضل الطريق ويسير إلى الشقاء؛ ولا يزال الإنسان بحكم حبه للبقاء يبحث عن الحقيقة التى توصله إلى سر البقاء، فيرى أن توجهه إلى كل ماهو فان ونصبه وتضييع وقته فى الحرص على كل ماهو فان يسير به إلى الفناء، ومن أجل ذلك يبحث عن سر القدم الذى يوصله إلى الباقى الذى لا أول له ولا آخر، إذ يستحيل أن يكون الإنسان موجودا بنفسه يمكنه البقاء بنفسه مع وهنه وعجزه وسيره إلى حتفه، ومن شعور الإنسان بالعجز وحبه للبقاء يتمنى الوصول إلى أقوى قوة وإلى أقوى الأقوياء الباقى بلا زوال حتى يهبه استمرار الوجود، ويقوى بسلطانه وقوته فيعوض مابنفسه

(١) آية ٥٣ فصلت . (٢) آية ٢١ الذاريات . (٣) آية ٢٧، ٢٨ ص .

من ضعف وعجز ، ويشتد شعور الإنسان بالعجز لعدم إدراكه كنه وجوده وعجزه عن بلوغ الخلود بجسده وروحه ، وعجزه عن تنفيذ إرادته و إخراج مايجول فى خاطره إلى حيز الوجود ، وتسبح أفكاره وتصوراته فى جميع العوالم فلا يستطيع أن يذهب إليها بجسده كما تتصورها روحه فى مرآة خياله ، لثقل جسده وعجزه عن بلوغ غاياته فى دائرة وجوده الضيقة المحدودة التى رسمت له ، فلا يزال يرجو أن يصل إلى ذى القوة التى لا تحد ليعينه فيما يريد مما يتصوره ولا تبلغه ذات يده أو أمنية روحه .

ويحسب الإنسان أنه مالك لجسده لشعوره بنفسه ، ولكنه يجد أن جسده لايطاوعه فى كل مايريد ولايخضع لأمره ، فهو إذن لايملك من يصاحبه ، وهو كالمطية الحرون ، يأمره بالسهر فلا تقوى أعصابه ثم يغفو وينام قبل أن يتم عملا هو أحرص الناس على إتمامه قبل فوات وقته أو فوز عدوه عليه ، ثم يأرق تارة أخرى بالرغم منه فى الوقت الذى يرجو له السبات حتى يستجم لاستقبال عمل آخر ، ويعانى من هذا الجسد ألوانا مرة ، إذ لايخضع لأوامره ولايسير على مبتغاه ، ولايقوى على تنفيذ كل مايريد ، وجسده هذا خاضع لناموس آخر يشاركه فى إرادته ، بل يتحكم فيه معظم الأحيان فيقاسى بسببه أنواعا من العذاب ، ينحرف مزاجه فلا يستطيع تلوينه بالمزاج الذى يبتغيه من بسط وسعة وهدوء ، ويمرض فيتعبه شفاؤه فهو لايساير إرادته ولا يفهم كثيرا من علله ، له معدة وقلب وكبد ، وله مخ وأعصاب إلى غير ذلك من تراكيبه وطبائعه تسير من تلقاء نفسها بحركة لا إرادة له فيها ؛ القلب يدق ولايمكن لصاحبه أن يبطئ أو يسرع بدقاته ، و إذا وقف لايسيره ؛ والمعدة تفرز وتهضم ولكنه لايتمكن من زيادة إفرازها أو نقصه أو تحويل عصاراتها الحمضية إلى ضدها، وهو إن عرف الداء قد يعجز عن الدواء لأن تفاعلاته لايسيطر عليها أحد ولو تماثلت الأسباب ، فلا بد له بعد ذلك كله أن يسائل عمن يدبر له هذه الحركة ليسأله شفاءه إذا ضج من الألم ، وليحفظه معافى حبا فى البقاء . « وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ[1] » وليس هذا كل مشاكل الجسد ، فكثيرا مايخضع لإرادة خارجية تملى عليه إملاء ، فيجد الإنسان نفسه

---

(١) آية ٨٠ الشعراء .

محتاجة إلى متمم آخر من الجنس ؛ كالزوجة كما هى أيضا محتاجة إليه ، ويشتد الحنين بحكم الغريزة الجنسية التى تحفظ بقاء النوع واستمرار التوالد ، و يندفع إلى ذلك اندفاعا و يترتب على ذلك تحمله تكاليف أخرى و إحساسات جديدة ، ويدخل فى دائرة محبوكة الأطراف فى الأسرة والاجتماع لايستطيع التخلص منها فيخضع لإرادة غيره بحكم الشركة ، ثم يجد فى حالة نومه نفسه تسبح فى نواح متعددة ، وتسبح فى خواطر شتى خارجة عن إرادته ، ويرى فى نومه أحلاما قد تنبئه عن شىء يقع كما رآه ، فهل له عقل ثان ؟ وهل لروحه جولات أخرى فى عالم غير هذا العالم ؟ « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ[(١)] » .

والإنسان محتاج إلى رزقه ورزق زوجه وأولاده ليعيش فيسعى إليه كما يسعى من فى مجتمعه من الناس ، فتارة يجده ميسورا وحينا آخر يجده عسيرا ، ومرة يصادفه وأخرى لايصادفه ، فيجد أن حظه من الرزق وليد هذه المصادفات التى لايملكها ولا تدبير له فيها — ولو أنه يرى أن العمل أساس يهبط عليه الحظ و يلد الصدف — إلا أن الحظ أوفر رزقا من سعى العمل، فهو يتمنى الوصول إلى من يعينه على بلوغ رزقه وربح أسعد الصدف وأجمل الحظوظ ، وهو فى سعيه للرزق كسعيه فى طاب العلم وطلب المجد إلى غير ذلك مما يريد . وهو إذ يسعى فى بلوغ غايته لايعمل وحده بل يجد آخرين يحتاجون إلى معاونته كما هو محتاج إلى رعاية غيره فمن هو أقوى من يعينه عليها ؟ . وهو إذ يجدّ ويكدّ و يشقى فى سبيل رزقه و كفاية حياته لنفسه ولمن يعول يصادف أناسا قد عجزوا عن بلوغ غاياتهم وكسب أرزاقهم ،لإخفاقهم فى أعمالهم أو نكد فى طالعهم أو جشع تملك قلوبهم فيقفون فى سبيله يظلمونه و يتعرضون لأرزاقه و يجعلون من أنفسهم سدا يحول بينه و بين تنفيذ إرادته و بلوغ

---

(١) آية ٢١، ٢٢، ٢٣ الروم .

غايته «وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ[١]» ، فمن هو القوى الذى يدافع عنه ويرد غائلتهم ويأخذ بحقه منهم ؟ فلا يزال يبحث عن أعدل العادلين الذى يجد عنده الحق واضحا والغنى فضفاضا واسعا فيعوضه من سوء حظه وهضم حقه .

وهو إذ يعمل يرى أنه لم يبلغ كمالا فى عمل من أعماله ولم يرسم لنفسه خطة أو سبيلا مستقيما يوصله إلى البقاء ، فإنه إن وفق لمعرفة الطريق المستقيم لايوفق السير دائما على صراطه ونتائجه القريبة . بل هو دائم الانحراف بعيد الوصول إلى أهدافه ، يطلب الرزق ليعيش فيذهب إلى مصارعة الآخرين ويضيع وقته سدى فيتولد عنده من ذلك الحرص والطمع ، ويعدى بعدوى غيره ، ويفسد طبعه ، وبعد أن كان ينشد أعمال البقاء أصبح يسعى على الرغم منه فى سبيل أعمال الفناء لعجزه عن بلوغ السبيل القويم ، وتتفرق به السبل يدافع نفسه وتدافعه وينازع العالم وينازعه ، فهو عاجز فى نفسه عاجز أمام جسده ، عاجز أمام بيئته ، عاجز أمام سلطان الوجود يبحث عن النصير الذى يقوى به على عجزه ويسد به نقصه، فلا يزال يجد نصيرا يعاونه من بيئته ولكنه يحتاج إلى المثل وتكافؤ الجزاء ، ولا يجد فى هؤلاء النصراء القوة والبقاء وصدق الوفاء ، وهم عاجزون عن حماية أنفسهم إذا جد الجد ، ضعفاء أمام القوة العليا ، يؤثرون أنفسهم عند الحاجة ولا يُحجِمُونَ أن يضحوا به فداء لنصرهم وفوزهم ، ومن أجل ذلك يبحث عن نصير قوى مفيد بنفسه لايستعين بغيره ولاينازعه منازع ، حتى لايحتمى بحماية قوى يظهر له فيما بعد أن هناك من هو أقوى منه ويضيع بحماية ضعيف .

والعالم من بدء نشأته يبحث بضرورة وجوده عن الباقى ويتحبب إليه ويتزلف إليه لأنه لا أمل له فى البقاء إلا به ، ولأنه يجد فيه النصير القوى المنقذ من الآلام ، والمخلص من العدوان ، وواهب الأمن ومفيض الإحسان .

---

(١) آية ٢٤ صٓ .

وجملة القول أن محتاج الوجود إلى غيره يحن إلى خالقه حنينا بالضرورة ويسابق غيره فى التزلف إليه والتزلف هو العبادة ، فالعالم بطبعه يطلب من يعبده « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ[1] » .

قال هنرى برنتجيه فى المجلد ٢٤ من مجلة المجلات الفرنسية . (إذا كان النقد التاريخى قد هدم كل الأشكال المتحجرة فى الأديان فإنه لم يستطع أن يعدو على الغريزة الدينية وشيوعها فى كل دور من أدوار التاريخ، فكل تلك الآلهة المختلفة والمتعاقبة تشهد على أن الإنسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم أنفه ؛ ولولا ذلك ماهتم إنسان بالدين ولما كانت له هذه المنزلة والمقام الأول فى الحياة ، ولما استمع الناس للرسل واهتموا بشأنهم !) .

---

(١) آية ٤٤ الاسراء .

الحب نعمة وجمال

الحب نعمة كل ذى روح ، وحياة بلا حب كجسد بلا روح ، فالحياة كلها حب ، وأساس الحياة كلها الحب ، ومن عاش بلا حب عاش كئيباً حزيناً ، بل وهو فى عيشة الكآبة والحزن لم يعش إلا للحب ، فإنه لو لم يكن أحب ما حزن على فقد المحبوب ، وإذا أمله المحبوب فى الرضا ، ازداد تلذذاً بألم الحب ، إذاً الحب هو إكسير الحياة فى حالة اللذة والألم والأمل ، وللحب خلقت جميع الموجودات ، والحب هو التمتع والتلذذ بكل ما هو محبوب والحب الإنسانى مادته اللذة والجمال ، واللذة حب الأجسام ، والجمال حب الأرواح ، واللذة من الطعوم ، والجمال من المعانى ، حتى ولو قامت بالمادة ، وبين حب الأجسام وحب المعانى معبر هو حب الفن . فإن كانت الأجسام فانية ، كان الحب الباقى هو حب المعانى ، ويكون تذوق اللذة من الأجسام أول طريق لحب المعانى ، فإن اللذة لاتقوم بالشعور إلا بذرة من النور موهوبة من الله سبحانه وتعالى فى قرارة الروح ، وإلا لم يذق إنسان لذة من اللذات ، واللذة هى من مفاعلة أو مواقعة الملذوذ بالمتلذذ به ، فينفذ من ذلك شرارة إحساسية للروح ، فالذين يحبون الطعام والشراب يحبونه بما يجدونه فيه من اللذة أثناء تذوقه ، ثم يعاودون التذوق ويعاودون الطلب لبقاء الجسد صحيحا ليباشروا اللذة مرة بعد مرة ، والذين يحبون النساء يحبونهن لمواقعتهن ، وتحصل من المواقعة الشرارة التى يتلذذون منها وهى أشهى ما فى الجماع من حب ، ولكن هذه اللذات تزول وتتأكسد وتضمحل ويتغشاها الفناء إذا خبت فى العنصر الجسمانى والمادى ، ولكنهم يجددونها بالجمال وسحر الجمال ، ولذلك ترى قوما يزهدون محبوباتهم ولا يصبرون على لذة لايتصاعد فيها الجمال فيتحسسونه فى كل من هى أجمل سيقانا ، وأعدل قواما ، وأسحر عيونا إلى غير ذلك من أوصاف الجمال ، أو فالأجمل ذاتا ،والأخف روحا ، وعلى الأيام يسأمون ويعافون الجمال الذابل ، وقوم ينعمون بجمال الطبيعة وما فيها من عجيب ، وقوم يصطنعون الجمال فيما يبنون ، ويصنعون فى دورهم وقصورهم وسائر أحوالهم فينفقون أموالا طائلة تلذذاً بالجمال متعة ونظرا ، فضلا عما ينفقونه من طاقة

العمل والفكر تفننا بما زين لهم من هذا الحب قال الله سبحانه وتعالى : « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ . قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ ، لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ [١] » .

فإذا ما انغمسوا فى حب هذا الجمال الفانى فات عليهم اكتساب الجمال المعنوى، وصدموا بانقطاع سيال الحياة الجسمانية فيموت حبهم هذا بموت أجسامهم ، وذهبت لذاتهم بذهاب أجسامهم وعلموا أنهم كانوا فى غرور ، وباءوا بالذل والانحطاط ، والحسرة والندامة إذا ما وصلوا ساحة القبور ، وقد قال فى هذا المعنى فضيلة الشيخ على عقل :

الناس تجعل فى التراب رموسها رمسى محبة خالق إذ أقبر

وقال الله سبحانه وتعالى : « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [٢] » .

ولكنَّ الله جلت حكمته يسوق الخلق من حب الشهوات إلى حب الجمال ، ومن حب الجمال يفتنون ويحبون الفن ، ومن الفن يصلون إلى حب العلم وتتسع طاقة الفكر فيحبون المعرفة فيصلون إلى الجمال الثانى وهو الجمال المعنوى غذاء الأرواح ومادة حياتها ، كأن الله يسوقهم من جمال الأجساد إلى جمال المعانى، ومن الجمال الفانى إلى الجمال السامى السرمدى ، ومن لحظات الفناء إلى لفتات الخلود ، وذلك لأن الحب لاينتهى ، فإذا انتهى مات أهله ولابد له من فيض يغذيه وجمال يسيرون صعدا فى طلبه ولا يصلون إليه ويزدادون به رقيا طورا بعد طور ويكتسون به من حلل الفضيلة والكمال ، وعند ذلك يجدون لذة لاتفنى ، ونورا لاينطفئ ، وحياة لاتزول ، وكمالا لاينتهى ، لأن لذة المعانى من كهرباء النور السرمدى

---

(١) آية ١٤، ١٥ آل عمران (٢) آية ٢٤ التوبة .

و إعمال الفكر السليم ، إذ يبحثون عن الجمال ليتلذذوا به فلا يرون جمالا أجمل من النظر والتشوق إلى خالق الجمال ، فهو منبعث منه ، فيرتقون من حب الموجود إلى حب الموجد ، ومن حب المخلوق إلى حب الخالق .

قال الأستاذ كمال نشأت :

وتغربت عن جوائى غريبا ... تائها أرتجى الضياء المبدد
وترنمت بالحنين لأسمو ... ولأحيا مع الصفاء وأسعد
والصفاء المأمون فى قربك الحا ... نى وفى وحدة الشعور الموحد
يا إله الجمال حبى وإعجا ... ز الحسن منعم ليس يجحد
إن تفردت بالجمال فقلبى ... بالوفاء الطهور عبد تعبد

وقال غيره :

وأشهد فى الوجود جمال حِبى ... وأذهل سكرة من فرط حبى

وقال الشاعر الملهم فضيلة الشيخ على عقل :

إن كان سكر الناس من عنب ومن ... بلح فإنى فى المحبة أسكر

ويتلذذون بذلك الحب ويحصل لهم التواجد الذى يزيد فى حرارة الوجدان مما يفيضه الله على الأفئدة وينصب فى قرارة الروح من الحكم والمعانى ، حتى يُغشى على أحدهم من لذة المعانى فيغيب عن الوجود الحسى فى الوجود الرحمانى ، لذلك قال أحد المتصوفة « لو علم الناس ما نحن فيه من اللذة لحاربونا بالسيوف على مقامنا فيها » ولهم لذة أخرى فى التسابق مع أهل محبته فى ذلك الحب سباقا لايدع لهم لحظة من لحظات أهل الغفلات ، فلا يلتفتون إلى غير محبوبهم لفتة واحدة يضحون فى سبيله بكل مرتخص وغال، قال الله سبحانه وتعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[1] » وقال سبحانه وتعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ

(١) آية ١١١ التوبة

بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(١) » .

وقالت السيدة رابعة العدوية :

كلهم يعبدوك من خوف نار … ويرون النجاة حظا جزيلا
أو بأن يسكنوا الجنان فيحظوا … بقصور ويشربوا سلسبيلا
ليس فى الجنان والنار حظ … أنا لا أبتغى بحبى بديلا

وقال الشاعر :

قد كنت أحسب أن حبك يشترى … بنفائس الأموال والأرباح
وظننت جهلا أن حبك هين … تفنى عليه كرائم الأرواح
حتى رأيتك تجتبى وتخص من … تختاره بلطائف الإمناح
فعلمت أنك لا تنال بحيلة … فلويت رأسى تحت طى جناح
وجعلت فى حسن الغرام إقامتى … فيها غدوى دائما ورواحى

وكلما ارتقى هؤلاء المحبون المحبوبون من مقام إلى مقام ، تعارفوا وتحابوا مع أهل هذا المقام فى سبحاتهم مع محبوبهم. قال الله سبحانه وتعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(٢) » .

وقد اتفقت مشاربهم وتفانوا فى محبته وابتغاء وجهه . قال الله سبحانه وتعالى : « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(٣) » .

---

(١) آية ١٠ إلى ١٣ الصف (٢) آية ١٦٩ ، ١٧٠ آل عمران .
(٣) آية ٨ إلى ١٠ الحشر .

وهذا الحب تجانس فى المبدإ ، وإغراق فى محبة المحبوب ، جمعتهم وحدة النظر إليه وجمعهم فى أسرار وحدانيته ونشر عليهم لواء رحمته وحنانه وبره، فلا شرك فى هذا الحب مع أحد من المحبين المحبوبين ، بالنسبة إلى المحبوب ، وشتان إذن بين حب مشوب بحب غير الله يورث التأخر ، فإن زاد يورث الخسارة والهلاك ، وحب لله يورث التقدم والشرف والبقاء كما قال فضيلة الشيخ على عقل أطال الله فى عمره :

يمازج الحب لحمى وهو يقتلنى ويرجع القلب منى ثابت الحكم
أمشى وأقضى على نفسى وأكتم ما فى القلب حتى ترانى فاقد الألم

ولولا الحب لم يخلق الله فى الناس حياة ، فالحياة فى حب الله هى السعادة والوجد ، وفى غير حب الله هى الشقاء والفقد ، قال الله سبحانه وتعالى «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ[1]» فالمخلوق يحن إلى خالقه بضرورة وجوده لايجد محبوبا أسمى من الله ، ولايجد راحة إلا فى السكون إليه ، ولا غنى إلا به ، ولا جمال إلا فى التشوق إليه ، والخالق يحن إلى من خلق ببر رحمته ، وبحكم احتياج المخلوق إلى خالقه إلا إذا كان من الكافرين الأشقياء ، أو ذل بالحب المادى حتى هلك فيه .

فالحبيب الصادق لا يعيش ولا يهنأ له بال إلا بذكر محبوبه والتشوف إليه والهيام به هياما يملك عليه كل حواسه كما قال الشاعر العربى :

إذا مابدت ليلى فكلى أعين وإن هى ناجتنى فكلى مسامع

وقال الشيخ على عقل رضى الله عنه :

الناس تسمع من آذانهم عجبا وكل جسمى سماع إذ ينادينى

وكما قال سيدى مصطفى البكرى رفع الله درجته :

يحلو لدى الأسحار ذكرك فى فمى أوّاه ما أحلاه عند المغرم

---

(١) آية ٦٥ البقرة .

فلا يحب اسما إلا اسم محبوبه ، ولا يتغنى إلا بهذا الحب ، تائه على الدوام فى بيدائه لايهتف إلا باسمه ، واسمه عنده أعز الأسماء ، وأرهف الأسماء إلى سمعه ، كما قال الشاعر :

فإن حدثوا عنها فكلى مسامع وكلى إن حدثتهم ألسن تتلو

لذلك يكثر من ذكره ، ويحب أن يسمع اسمه من كل جوانبه ، ويغيب فى هذا الذكر ويهيم فيه ، ولا يحب إلا الذين يُسمعونه تسبيحه وتمجيده يُخلصون له كل الإخلاص ، لايسمعون لعذالهم كما قال البوصيرى :

محضتنى النصح لكن لست أسمعه إن المحب عن العذال فى صمم

أهل هذه المحبة يؤثرون حبيبهم على أنفسهم ، و يبيحون دمهم وهو أغلى ما عندهم ، ثمنا لرضا حبيبهم ، حتى يفنوا فيه فناء كليا فيتكفل بهم عنهم ، وهو أولى بهم منهم .

وقد قال شيخ العارفين فى زمانه القطب الجليل العالم الربانى والهيكل الصمدانى الذى ارتشف من بحار الجمال والجلال (سيدى عمر جعفر الشبراوى) فى كتابه على شرح ورد السحر لسيدى مصطفى البكرى فى شرح كلمة العشاق « جمع عاشق » مصدر عِشق بكسر الشين أى أفرط فى الحب :

واعلم أن الإرادة لها تسعة مقامات : المقام الأول « الميل » وهو انجذاب القلب إلى مطلوبه فإذا قوى ودام سُمىَ وَلَعًا وهو المظهر الثانى للإرادة ؛ ثم إذا اشتد سُمىَ صبابة ، وذلك إذا أخذ القلب فى الاسترسال فيمن يحب ، فكأنه انصبَّ كالماء إذا أفرغ فلا يجد بُدًا من الانصباب وهو المظهر الثالث للإرادة ؛ ثم إذا تفرغ له بالكلية وتمكن منه سمى شغفا وهو المظهر الرابع للارادة ؛ ثم إذا استحكم فى الفؤاد وأخذه عن الأشياء سمى هوى وهو المظهر الخامس للإرادة ؛ ثم إذا استولى حكمه على الجسد سمى غراما وهو المظهر السادس للإرادة ؛ ثم إذا تمكن وزادت العلل الموجبة للميل سمى حُبًا وهذاهو المظهر السابع للإرادة؛ ثم إذا هاج حتى كاد يُفنى المحبَّ عن نفسه سمى وُدًّا ، وهو المظهر الثامن للارادة ؛ ثم إذا طفح حتى فنى المحب عن المحبوب سمى عشقا ، وفى هذا المقام يرى العاشق محبوبه فلا يعرف ولا يصغى إليه ؛ كما روى عن مجنون ليلى أنها مرت به ذات يوم فدعته إليها لتحدثه، فقال لها:

دعينى فإنى مشغول بليلى عنك ، وهذا آخر مقامات الوصول والقرب ، وفيه ينكر العاشق معشوقه ولا يبقى إلا العشق وحده ، فالعشق أعلى المقامات ، وقد جاء فى فضل العشاق أخبار : قال صلى الله عليه وسلم « مَنْ عَشِقَ وكَتَمَ وعَفَّ وصَبَرَ غَفَرَ اللهُ لَهُ وأدْخَلَهُ الْجَنَّةَ » رواه ابن عساكر عن ابن عباس ، وأنشد بعضهم فقال :

كفى المحبين فى الدنيا عذابهم   تالله ما عذَّبتهم بعدها سقر
بل جنة الخلد مأواهم مزخرفة   ينعمون بها حقا بما صبروا

وكما قدمنا أن الحب يرتقى فيه صاحبه من مقام إلى مقام ما دام فى حضرة البقاء ، فإن وقف أخذته الأنواء فلا يبقى المحب على حالة واحدة إما إلى تقهقر أو إلى تقدم ، لذلك يقول الشبلى : المحب إذا سكت هلك ، أما إذا سلم لمحبوبه فهو يتولاه بالترقية إذا فنى فيه ، لذلك يقول : والعارف إن لم يسكت هلك . وقيل : المحبة نار فى القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب . وقيل : المحبة بذل المجهود ، والحبيب يفعل ما يشاء . وقال النصراباذى : المحبة مجانبة السُّلو على كل حال ؛ أى أنه يقول من سَلا فقد فارق المحبة ، وقال الحارث المحاسبى المحبة : ميلك إلى الشىء بكليتك ثم إيثارك له على نفسك وروحك . وقال الشبلى : المحبة أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك . والله سبحانه وتعالى فى كمال قُدْسِيٍّ وعلو ، يسبح فى النظر إليه السابحون فلا يصلون إليه ، فإذا نظروا إليه نظروا إلى أعلى ، ورقوا بهذا النظر إلى علو لا نهاية له ، بعكس الذين ينظرون إلى غيره ، ويقفون عنده ينظرون إلى ما هو تحت أقدامهم فيتسفلون ، لذلك يقول أحد المحبين :

عجبت لمن يقول ذكرت إلفى   وهل أنسى فأذكر ما نسيت
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا   ولولا حسن ظنى ما حييت
فأحيا بالمنى وأموت شوقا   فكم أحيا عليك وكم أموت
شربت الحب كأسا بعد كأس   فما نفد الشراب وما رويت

وغيره يقول فى وادى مناه :

فلله واديها الذى هو موعد ... لرائد وفد الحب لو كنت تفهم
ففى ذلك الوادى يهيم صبابة ... محب يرى أن الصبابة مَغرم
ولله أفراح المحبين عندما ... يخاطبهم من فوقهم ويسلم
ولله أبصار ترى الله جهرة ... فلا الضيم يغشاها ولا هى تسأم
فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضرة ... غدا كل وجه بالجمال مبسم
فإن كنت ذا قلب عليل بحبها ... فلم يبق إلا وصلها لك مرهم
فياخاطب الحسناء إن كنت طالبا ... فهذا زمان المهر فهو المقدم
وكن مغضبا للخائنات بحبها ... فتَحظى بها من دونهن وتنعم
وإن ضاقت الدنيا عليك بأسرها ... ولم يك فيها منزل لك يُعلم
فحىّ على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيم
وحى على يوم المزيد الذى به ... زيارة رب العرش فاليوم موسم
تجلى لهم رب السموٰات جهرة ... فيظهر للأحباب ثم يكلم
سلام عليكم يسمعون جميعهم ... بآذانهم تسليمه إذ يسلم
يقول سلونى ما اشتهيتم فكلُّما ... تريدون عندى إننى أنا أرحم
فقالوا جميعا نحن نسألك الرضا ... فأنت الذى تولى الجميل وترحم

ولذلك كان يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : « اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أحبَّ إلىَّ مِنْ أَهْلِي ومِنْ نَفْسِي ومِنَ المَاءِ البَارِدِ » وينشد الجيلى فى الاستغراق والتجلى والولع والحب :

أصلى إذا صلى الأنام وإنما ... صلاتى لأنى باعتزازك خاضع
أكبر فى التحريم ذاتك عن سوى ... واسمك تسبيحى إذا أنا خاشع

أقوم أصلى أى أدوم على الوفا   لأنك فرد واحد الحسن جامع
وأقرأ من قرآن حسنك آية   فذلك قرآنى إذا أنا راكع
وأسجد أى أفنى وأفنى عن الفنا   وأسجد أخرى والمتيم والع

وتغنت رابعة العدوية بهذا الحب فقالت :

أحبك حبين : حب الهوى   وحب لأنك أهل لذا كا
فأما الذى هو حب الهوى   فحب شغلت به عن سوا كا
وأما الذى أنت أهل له   فكشفك للحجب حتى أرا كا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى   ولكن لك الحمد فى ذا وذا كا

جعلنى الله من أخلص المخلصين له ، ومن أسعد السعداء بحبه فى الذين يحبهم ويحبونه ، إنه سميع مجيب .

الإيمان بالغيب

الإيمان بالغيب : هو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره ، ومنطق الوجود يدلنا على ذلك كله دلالة لا تقبل الشك ولو أننا لا نرى الله والملائكة بهذه العين الحادثة وفى انتظار يوم اللقاء ، اقرأ قوله سبحانه وتعالى : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ »[1] حقا إن فى خلق السموات والأرض لدلائل العظمة والقدرة ، وما تحويه من عجائب و إبداع لآيات تحير العقول ، وفى اختلاف الليل والنهار تطورات كونية ، وحوادث مختلفة تدل على موجدها وقدرة صانعها وعظيم حكمته وجليل تدبيره ، إن فى ذلك لآيات لأولى الألباب ، ذوى العقول والبصائر الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ذكر توحيد وتمجيد لخالق هـذه الأكوان الذى أبدع صنعها ، وكيف لا يذكرونه وهم فى غدوهم ورواحهم لا تقع أعينهم إلا على مخلوقاته ، فإذا جلسوا لا تسرح خواطرهم إلا فى هذه العوالم التى سخرها لهم ، وإذا ما هجعوا ورقدوا على جنوبهم تذكروا الرقدة الأبدية وما وراءها ، فإذا تحقق الإنسان أنه لابد لهذه السموات والأرض من خالق أبدعها ، ولهذه الكونيات والسنن والحوادث من مريد دبرها وأرادها فما هى حكمته فى ذلك كله ؟ وما هى حكمته فينا نحن بنى الإنسان الذى أودع فينا سرا من أسراره فكنا به ذوى عقل وتمييز . لا يعقل أن يخلق الخالق هذا الخلق المبدع بهذا النظام المحكم لينتهى بنا إلى الزوال المطلق بعد الموت فنكون نسيا منسيا فلا ينشئنا نشأة أخرى فى طور أهم من الأطوار التى مر بها الإنسان « رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ »[2] حقا لن يكون هـذا العمل الجليل باطلا لا نتيجة له إلا اللهو والعبث ، إذ ما لا بعث له

---

(١) آية ١٩٠ ، ١٩١ آل عمران . (٢) آية ١٩١ آل عمران .

لا نتيجة له قال الله سبحانه وتعالى : « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ »[1] وأى حكمة تكون بادية من الله لهذا الإبداع وهذا الصنع الجميل والتدبير المحكم إذا كان مصير كل ذلك إلى الفناء ، كما لا يبقى منه أثر من الآثار أو حكمة من الحكم إذا أفنى الله من يتذوقون المعانى و يبصرون الحكم فناء لا رجعة بعده « وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »[2] تنزه الله سبحانه وتعالى عن اللهو والعبث الذى يتصف به الخلق وعن أن يسايرهم فى أفعالهم وهو الذى حير العقول فى بديع صنعه وجليل حكمته .

و بدهى أن الذى أوجد السموات والأرض وخلق الإنسان ليشاهد آياته و بديع صنعه لم يخلقه إلا ليتعرف بها على مبدعها ، لأنه إذا اشتغل الإنسان بغير ذلك لايجنى أى ثمرة مطلقا من يوم ميلاده إلى يوم مماته مهما طال به العيش ، فإنه إن عاش ليأكل و يشرب و يتمتع و يلهيه الأمل فمصيره إلى الفناء ، فإن كان بعد هذا الفناء لا رجعة له ولا حياة كان وجوده باطلا وكان تسلسل الأجيال البشرية باطلا ، لأنه متاع قليل شاق يعقبه فناء مادى ، و إذا أعقبه فناء التميز واستذكار الماضى كان الإنسان بالنسبة إلى نفسه لايساوى إلا العدم المطلق ، وكان الأفضل له ألا يتذوق كأس الحياة من الميلاد إلى الموت بلا فائدة تعود عليه ، و يترتب على ذلك فساد المجتمع لفقدان الجزاء بعد هـذه الحياة « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ »[3] وتكون نتيجة جميع الكائنات باطلة إذا لم يكن لها من وجودها وانتهائها حكمة ، وليست هناك حكمة باقية سامية إلا ما تعلقت بالباقى السامى فى حكمته وأفعاله ، وهل توجد حكمة أسمى من معرفته والإيمان به ، فإن رضى كانت السعادة و إن غضب كان الشقاء ، ولقد أبان الله هذه الحكمة واضحة فى قوله تعالى: « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ

---

(١) آية ١٧ الأنبياء .
(٢) آية ٣٨ ، ٣٩ الدخان .
(٣) آية ١١٥، ١١٦ المؤمنون

مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ . إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ »[١] وهذه الآيات تبين عن حكمة خلق المكلفين المميزين من الجن والإنس ، وهى العبادة بالتعرف إلى الله والإيمان به والتودد إليه باتباع أوامره واجتناب نواهيه، و إليك البرهان : إنك لاتستخدم عمالا فى عمل إلا إذا عادوا عليك بفائدة ، زيادة فى مالك ، أو قوة فى وجودك ، أو عظمة تزيد فى جاهك . والإنسان فى الحياة يسعى فى سبيل رزقه وزيادة ماله حتى يطمئن إلى أنه لايجوع ولا يعرى ولا يظمأ ولا يشقى فى مستقبل أيامه ، ليعيش عمراً مديداً فى رفاهة من العيش وقوة الجاه ، فهو يطلب البقاء ممتعاً أكثر مايستطاع . ولكنه مهما طال به الأمد فهو ميت ، ومهما جمع فمصير ما جمع إلى الفناء ، وكل ماوقع عليه بصره مماهو حادث ومخلوق من العدم مصيره إلى الفناء والعدم ، فإن كان كل عمله صائراً إلى الفناء مع أنه حريص على البقاء فأولى به ألا يعمل . وخالق هذه الأكوان ومبديها أول لا آخر له ولا انتهاء ، خلق كل ذلك بقدرة منزهة عن العى والنصب « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »[٢] لايحتاج إلى المعاون والشريك ، فهو منزه عن مشابهة الحوادث ، ولا يكون مثل مخلوقاته فى شىء مما يعملون ، لايحتاج إلى طعام وشراب وتنفس وهواء ، وهو خالق كل ما يحتاجون إليه ، فما هى فائدته منهم ومن أعمالهم الفانية الحادثة ، وما هى فائدتهم من حياة لا بقاء لها ونشأة لا رجعة بعدها ؟ الحكمة أنه باق لايزول ولا يرضى الباقى إلا التعرف إليه بسر البقاء وحمد آلائه لأنه غير محتاج إلى ما سواه .

ولكن الإنسان فى حالته البشرية وفى جو المحسوسات المادية لايلمس إلا ما هو مادى وقليلا ما يلتفت إلى المعانى الواضحة والأسرار المستلهمة والحكمة الخفية ، فهو يسأل دائما أين خالق الأكوان ؟ وخالق الأكوان منزه عن مشابهة مخلوقاته الحادثة ، لايدرك كنهه إلا هو . فإذا ما رجع الإنسان إلى عقله وفطرته عرفه بقدرته وجليل حكمته فآمن به .

---

(١) آية ٥٦ — ٥٨ الذاريات . (٢) آية ٨٢ يس .

ولكنه كثيرا ما ينسى ذلك بحجاب المادة ويفتن بعظمة الأكوان وما فيها من جلائل فينظر تارة إلى الشمس فيفتن بها وطورا إلى القمر والنجوم ، فالذين لايعقلون ينظرون إلى الكون فيفتنون به وينسون خالقه الذى أبدعه ، فإن ذكروه فإنما يريدون أن يسوّوه بما خلق ، والذين يعقلون ينظرون إلى ملكوت السموات والأرض فيتعرفون على مبدعه ولا يعقلون أن يشبه الخالق شيئاً مما خلق ! انظر إلى إبراهيم عليه السلام أيام صغره وقبل أن تأتيه الرسالة وهو يوحد بفطرته ويتأمل فى آيات الكون فلا يقبل عقله السليم وفطرته المصبوغة بصبغة الحق ما يأتيه قومه من عبادة الشمس والأوثان « وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَـٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ »[1] فلم يرض أن يشرك بالله ، ولا أن يسويه أو يشبهه بشىء مما خلق . ورجع بالسموات والأرض إلى الذى فطرها . واعتقد أن وجوده سبحانه وتعالى حق لاسبيل إلى الشك فيه ، والحنيفية المستقيمة والعقل السليم يحتّمان على الإنسان أن يؤمن به ولو عزّ عليه أن يراه من سبيل الحس « قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ »[2] يتهم الإنسان حسه ولا يقنع إلا بالظواهر ويطلب الدليل تلو الدليل وبرهان غيره على صحة ما يراه ، وهو فى ذلك كله أدعى للمغالطة ، مع أن الإيمان واليقين

---

(١) من آية ٧٥ — ٧٩ الأنعام . (٢) آية ١٠ ابراهيم .

لا يتعلق كله على أدلة الحس ، إقرأ قوله تعالى « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » [١] وقوله : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » [٢] وكأني بهؤلاء يقولون إن أداة حس الإنسان هي ذلك الجهاز البشرى المعرض للسقم والتلف والخبل والسحر وخداع البصر ، وماتعلق إدراكه بهـــذه الأداة فقط كان عرضة للصدق والـكذب . ولا تصح به حجة دافعة فكيف يتعلق الإيمان عليه ؟ فإذا كان هذا شأنهم فى الأدلة الحسية فكيف يغلقون أسماعهم وعقولهم فلا يقبلون الإيمان من طريق الحق و يطلبون رؤية الحق سبحانه وتعالى كما يرون الحوادث التى يستحيل أن يشبهها « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا » [٣] وحكى الله عن قوم موسى « وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » [٤] ذلك لأن الإنسان فى هذا العالم مكلف بالإيمان بالغيب عن طريق العقل والتميز اللذين خلقهما الله فيه ليهتدى بهما إلى الحق بإذنه . وهو فى هذه الحياة الدنيا نشأ نشأة فيها عجز وضعف ، ومكلف بأعمال تستوى مع هــذا العجز والضعف ولم يبلغ الدرجة التى يستطيع معها شهود المعاينة « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » [٥] فهو فى حالة العقل والتميز فى أحسن تقويم ، وهو فى حالة التكليف البشرية و إحساساته الشهوانية فى أسفل سافلين ، فإذا آمن وتعرف إلى الله رجع إلى تقويم أعلى .

ولا يمكن لمن تلبس بهـــذه الحالة البشرية أن يستطيع رؤية الله عز وجل « وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ

---

(١) آية ١٤ ، ١٥ الحجر . (٢) آية ٧ الأنعام . (٣) آية ٢١ الفرقان .
(٤) آية ٥٥ البقرة . (٥) آية ٤ ــ ٦ التين .

فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ » (١) ولولا أن موسى كان يطلب رؤية الحق شوقا إلى ربه مع قوة الإيمان الذى يتكافأ مع رسالته لما استطاع تحمل هذا التجلى، ولولا لطف الله به ما أفاق من صعقته وظل مكانه إلى يوم يبعثون . فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ، أى أنه لم يطلب الرؤية دليلا على الإيمان وقد آمن قبل أن يؤمن قومه وأما رؤية رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لله فقد جاءت بلا طلب تكريما لخير مرسل وأعز إنسان ، ولم تكن بحالة مثل حالة موسى وقت الطلب ، بل رفع إلى السماء ليرى من آيات ربه الكبرى ، وليكون فى ملأ أعلى من هذا الملأ تتجلى فيه عظمة الله وهيبته ، وأودع الرسول صلوات الله عليه وسلامه قوة تسانده على احتمال هذه الحال ، فرأى ربه بعينى بصره و بصيرته ، وقال العرب أيضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عندما دعاهم للإيمان بالله : ائتنا بالله جحودا بعد أن أدلى لهم بالبراهين الدامغة والحجج القوية التى لاتقبل الشك ويستحيل مع قيامها الجدل « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا » (٢) و إنه لعجيب منهم هذا الجدل . ماشأن تفجير الأرض ينابيع و إيجاد الجنات من النخيل والأعناب تتفجر خلالها الأنهار ، و إسقاط السماء كسفا حتى تنطبق على الأرض فتهلك الحرث والنسل فى عقيدة الإيمان ؟ هل يجوز أن يكون هذا الخلق بلا خالق وهذا الإبداع بلا مبدع ؟ فالحق أن هذا القول جحود وعناد . و إذا كانوا يؤمنون بخالق الأكوان ووجوده وحقه فى إرسال الرسل ، فلِمَ يتطاولون على مقامه

---

(١) آية ١٤٣ الأعراف . (٢) آية ٩٠ ـ ٩٤ الاسراء .

العظيم بطلب مالا ينبغى لهم أن يطلبوه ؟ والله سبحانه وتعالى يقول : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ »[١] فهذه الآيات تدل دلالة واضحة على أن الإيمان بالله لا يحتاج مطلقا إلى هذه الطلبات التى يطلبونها للعناد والمكابرة والجحود، وتدل دلالة ثانية على أنه إذا كان الإيمان فى هذه الدار بالمعاينة والشهود لم يكن للانسان منه تكليف ، ولو وقع لانتهى التكليف ، ولا أجر لهذا الإيمان ، وبما أن هذه المعاينة واقعة حتما يوما ما[٢] فإنه لاينفع التكليف فى هذا اليوم الذى يتبين فيه الحق من الباطل ، ويصبح الإنسان أمام الحساب عن الماضى ولافائدة له من الإيمان يومئذ إذ لاسبيل للإنكار بأى دليل حسى أو معنوى « يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ . خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ »[٣] والسجود هو الإذعان والاعتراف لله بما يليق به من التسبيح والتمجيد من عابد لمعبود ومخلوق لخالق : « وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ »[٤] فالناس فى كل العصور يقعون فى هذه الخطيئة ، إذ يعلقون إيمانهم بالله على رؤيته معاينة ، أو التخاطب معه بهذه الأبصار وهذه الأسماع

---

(١) آية ١٥٨ الأنعام

(٢) عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القمر ليلة البدر فقال « إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا . ثم قرأ : وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » أخرجه الخمسة إلا النسائى تيسير الوصول جـ ٢ ص ١٢٠ وعن صهيب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة ؟ ألم تنجنا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى، ثم تلا هذه الآية : للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » أخرجه مسلم والترمذى تيسير الوصول جـ ٢ ص ١٢٠ .

(٣) آية ٤٢ — ٤٣ القلم . (٤) آية ١١٨ البقرة .

الحادثة وقال الله سبحانه وتعالى « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ »[١] فالذين يطلبون مكالمة الله لهم عن طريق المشافهة والمشاهدة ، إنما يتطاولون على الله وعلى مقامه المعظم وينأون عن فهم حكمته وخطر مقامه وعظمة جبروته وقوة سلطانه الذى لاينازعه فيه منازع ، فهو القاهر فوق خلقه « بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ . يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ . فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ . كَلاَّ لاَ وَزَرَ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ . يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ »[٢] فمادام عقل الإنسان وباطنه يهديه إلى الله فكيف لايؤمن به ويوحده ويتعرف إليه باتباع سبيل مرضاته ، ولا يتطلع إلى طلبات الجاحدين ، وهل يطلب رؤية الله والملائكة وهو فى هذا التكليف تتنازعه الفضيلة والرذيلة ، وتحفه الشهوات من كل مكان ؟ وهل يريد أن يرى الحق سبحانه وتعالى ويستمر فى هذا الشقاء والتكليف محتاجا إلى مأكله ومشربه وملبسه لايحصل عليه إلا بهذا الجهد والنصب ؟ وكيف يدارى سوأته ليبول ويغوط ويباشر زوجته على مشهد من الحق يراه كما يراه ؟ مع أن الذين أحسنوا واتقوا وعبدوا الله كأنهم يرونه كما يراهم وراقبوه فى جميع أحوالهم وعلى جميع هيئاتهم تتغير أحوالهم وأطوارهم من هذه المراقبة ، فلا يشبهون غيرهم فى كثير من أحوال الحياة ويحرمون على أنفسهم كثيرا من الملذات ، فالذين يطلبون رؤية الله سبحانه وتعالى ليؤمنوا به وهم فى هـذه الحالة البشرية يطلبون إفكا وبهتاناً ؛ فهم إن طلبوها استدلالا على وجوده ليؤمنوا ، فهو كفر بالحق الذى لا سبيل إلى إنكاره وجحود آياته وجليل آلائه ونعمه ، وإن كان طلبهم ذلك لغير هذا الوجه فهو تهجم على مقام خطير وإله عظيم « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . والحمد لله رب العالمين »[٣] وإن الإيمان بالله

---

(١) آية ٥١ الشورى . (٢) آية ٥ ـ ١٥ القيامة . (٣) آية ٨٠ ـ ٨٢ الصافات .

فى هذه الدار لايحتاج إلى تُرّهات الجاحدين ، فهوظاهر لأهل الحق ظهورا لايحتاج إلى دليل، ولولا فضل الله ما أثاب عليه أحدا ، ولولا أن الله أراد أن يغلب أهل الجحود على أمرهم ويلزمهم حجة أكبر على عدم إيمانهم به وافترائهم عليه ـ مع قوة ظهوره ـ ماسلط على المؤمنين نار الشهوات وخداع السحرة وتنبؤات الكهان وهمزات الشياطين وأباطيل المضلين « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ »[١] وأراد الله بذلك أن يحزن الذين كفروا ليزدادوا كمدا[٢] على عدم إيمانهم مع وجود هؤلاء المؤمنين الذين ابتلاهم الله بهذه الفتن فلم تحجبهم عن دلائل الإيمان النيرة الواضحة ، وليباهى الله بالمؤمنين الملائكة ويظهر قوة إيمانهم وشغفهم بمعرفته ومقدار حبهم لمرضاته ، ولولا ذلك ماحف الإيمان بكثير من الفتن وما حجب رؤيته عنهم مع تشوقهم إليه إيمانا وحبا وتعبدا ورقا ، وجزاهم بما صبروا جزيل الثواب وحسن المنقلب « أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ . أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ »[٣] فسبحان الله الذى لايغيب ، المهيمن على جميع خلقه « هُوَ اللهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ »[٤] يعلم ما غاب عن الإنسان من عوالم وأسرار لم يصل إليها بصره وسمعه ، ولم يدركها علمه لعجزه وقصوره « قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ . قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِى وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِى إِلَىَّ رَبِّى إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ »[٥] لا إله إلا هو

---

(١) آية ٤٢ الأنفال . (٢) وهل هناك كمد ونكد للذين كفروا أكبر مما أخبرنا الله سبحانه وتعالى عنهم فى قوله تعالى « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين » الأعراف (٣) آية ٣ ـ ٦ العنكبوت (٤) آية ٢٢ الحشر
(٥) اية ٤٨ ـ ٥٠ سبأ

فَاطِرُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ . فالحق أن نؤمن به ونوحده ونتبع أوامره ونجتنب نواهيه كأننا نراه « الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »(١) قال القرطبي رضى الله عنه : اختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا ، فقالت فرقة : الغيب فى هذه الآية الله سبحانه وتعالى ، وضعفه ابن العربى ، وقال آخرون : القضاء والقدر ، وقال آخرون : القرآن وما فيه من الغيوب ، وقال آخرون : الغيب كل ما أخبر به الرسول عليه السلام مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار ، قال ابن عطية وهذه الأقوال لا تتعارض ، بل يقع الغيب على جميعها ، قلت وهذا هو الإيمان الشرعى المشار إليه فى حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبى صلى الله عليه وسلم : « فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ ، قَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ صَدَقْتَ » وقال عبد الله بن مسعود : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ثم قرأ : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ... »(٢) قلت وفى التنزيل : « وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ »(٣) وقال : « الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ »(٤) فهو سبحانه غائب عن الأبصار ، غير مرئى فى هذه الدار ، غير غائب بالنظر والاستدلال . قال الشاعر :

وبالغيب آمنا وقد كان قومنا   يصلون للأوثان قبل محمـــد

---

(١) آية ١ – ٥ البقرة (٢) آية ٣ البقرة (٣) آية ٧ الأعراف (٤) آية ٤٩ الأنبياء

دعاء الإيمان(١)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . الٓمٓ اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . وَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ . هُوَ اللهُ الَّذِى لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ . هُوَ اللهُ الَّذِى لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ ، اللَّهُمَّ إِنِّى أَصْبَحْتُ وَأَمْسَيْتُ أُشْهِدُكَ وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلَائِكَتَكَ وَجَمِيعَ خَلْقِكَ بِأَنَّكَ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ . اللَّهُمَّ إِنِّى أَشْهَدُ بِمَا شَهِدْتَ بِهِ عَلَى نَفْسِكَ وَشَهِدَتْ بِهِ مَلَائِكَتُكَ وَأَنْبِيَاؤُكَ وَأُولُوا الْعِلْمِ . وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْ بِمَا شَهِدْتَ بِهِ فَاكْتُبْ شَهَادَتِى مَكَانَ شَهَادَتِهِ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . رَضِيتُ بِاللهِ تَعَالَى رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا وَرَسُولًا . اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ أَنَا شَهِيدٌ أَنَّكَ أَنْتَ الرَّبُّ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ . اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ . اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ إِخْوَةٌ . اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ اجْعَلْنِى مُخْلِصًا لَكَ وَأَهْلِى فِى كُلِّ سَاعَةٍ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ اسْمَعْ وَاسْتَجِبْ . اللهُ أَكْبَرُ . اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ . اللهُ أَكْبَرُ حَسْبِىَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . اللهُ . اللهُ رَبِّى لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ . لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ .

---

(١) هذا الدعاء وارد فى كتاب المؤلف [النفحات المحمدية] صحيفة ١٤ مجموعا من أدعية سيدنا محمد سيد المرسلين، وقدأوردته هنا تبركا بعد كتابة (الايمان بالغيب) فقد يدعوبه قارئ فيهديه الله ويزيده من نورالايمان.

لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ . اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللّٰهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ . اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ . اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ، فَإِنِّي أَعْهَدُ إِلَيْكَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأُشْهِدُكَ وَكَفَى بِكَ شَهِيدًا أَنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ، لَكَ الْمُلْكُ وَلَكَ الْحَمْدُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ . وَأَشْهَدُ أَنَّ وَعْدَكَ حَقٌّ ، وَلِقَاؤَكَ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَأَنَّكَ تَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ، وَإِنَّكَ إِنْ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي تَكِلْنِي إِلَى ضَعْفٍ وَعَوْرَةٍ وَذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ ، وَتُقَرِّبْنِي مِنَ الشَّرِّ وَتُبَاعِدْنِي مِنَ الْخَيْرِ ، وَإِنِّي لَا أَثِقُ إِلَّا بِرَحْمَتِكَ . فَاجْعَلْ لِي عِنْدَكَ عَهْدًا تُوَفِّينِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ وَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي كُلَّهَا إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ . إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . اللَّهُمَّ (١) رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ . وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ . وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ مَالِكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ . وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ . اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ ، وَبِكَ خَاصَمْتُ ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي . أَنْتَ الْمُقَدِّمُ

(١) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما وهذا لفظهما ، ويقرأ بعد صلاة التهجد .

وأنتَ المؤخِّرُ لاَ إلهَ إلاَّ أنتَ . اللهمَّ أنتَ أحقُّ مَنْ ذُكِرَ ، وأحقُّ مَنْ عُبِدَ ، وأنْصَرُ مَنِ ابتُغِيَ ، وأرْأفُ مَنْ مَلَكَ ، وأجْوَدُ مَنْ سُئِلَ ، وأوْسَعُ مَنْ أعْطى . اللهمَّ أنتَ المَلِكُ لاَشَرِيكَ لَكَ ، والفرْدُ لاندَّ لكَ ، كُلُّ شيْءٍ هالِكٌ إلاَّ وجْهكَ . لنْ تُطاعَ إلاَّ بإذنِكَ ولنْ تُعْصَى إلاَّ بعِلْمِكَ ، تُطاعُ فتَشْكرُ ، وتُعْصَى فتَغفِرُ ، أقْرَبُ شَهيدٍ ، وأدْنَى حَفيظٍ . حُلْتَ دُونَ النفُوسِ ، وأخذْتَ بالنَّواصِي ، وكَتَبْتَ الآثارَ ، ونَسَخْتَ الآجالَ . القُلوبُ لكَ مُفْضِيَةٌ ، والسِّرُّ عِندكَ علاَنِيةٌ . الحَلاَلُ ما أحْلَلْتَ ، والحَرامُ ما حرَّمْتَ ، والدِّينُ ما شرَعْتَ ، والأمْرُ ما قضَيْتَ . والخَلْقُ خلْقُكَ ، والعبْدُ عبْدُكَ . وأنْت اللهُ الرَّءوفُ الرَّحيمُ . أسْألُكَ بنُورِ وجْهِكَ الَّذِى أشْرَقَتْ لهُ السَّمواتُ والأرْضُ وبِكُلِّ حَقٍّ هُوَ لَكَ ، وبحَقِّ السَّائلِينَ عَلَيْكَ أنْ تُقيلَنِي وأنْ تُجيرَنِي مِنَ النَّارِ بِقُدْرَتِكَ . اللهمَّ اهْدِنِى فِيمَنْ هدَيْتَ ، وعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ ، وتوَلَّنِي فِيمَنْ توَلَّيْتَ ، وبَارِكْ لِى فِيمَا أعْطَيْتَ ، وقِنِي شرَّ ما قضَيْتَ ، إنَّكَ تَقْضِي ولاَ يُقْضَى عَلَيْكَ ، وإنَّهُ لاَيَذِلُّ مَنْ والَيْتَ ولاَ يَعِزُّ مَنْ عادَيتَ . تبارَكْتَ ربَّنَا وتعَالَيتَ . نَسْتَغفِرُكَ ونَتوبُ إليْكَ . وصلَّى اللهُ عَلَى النَّبِيِّ . اللهمَّ إنَّا نَسْتَعِينُكَ ونَسْتَغْفِرُكَ ونَسْتَهْدِيكَ ، ونُؤْمِنُ بِكَ ونَتُوبُ إليْكَ ، ونَتوَكَّلُ عَلَيْكَ . ونُثْنِي عَلَيْكَ الخَيْرَ كُلَّهُ . نَشْكُرُكَ ولاَ نَكْفُرُكَ ونَخْلَعُ ونَتْرُكُ مَنْ يَفْجُرُكَ . اللهمَّ إيَّاكَ نَعْبُدُ ، ولَكَ نُصَلِّى ونَسْجُدُ ، وإليْكَ نَسْعَى ونَحْفِدُ ، نَرْجُو رَحْمَتَكَ ، ونَخْشَى عَذابَكَ ، إنَّ عَذابَكَ الجِدَّ بِالْكُفَّارِ مُلْحَقٌ . اللهمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ والمُسْلِمِينَ والمُسْلِمَاتِ وألِّفْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وأصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِهِمْ ، وانْصُرْهُمْ عَلَى عَدُوِّكَ وعَدُوِّهِمْ . اللهمَّ الْعَنْ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ ، ويُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ ويُقَاتِلُونَ أوْلِياءَكَ ، ويَجْحَدُونَ آياتِكَ ، ويَتعَدَّوْنَ حُدُودَكَ ، ويَدْعُونَ مَعَكَ إلهًا آخرَ . لاَ إلهَ إلاَّ أنتَ . تبارَكْتَ وتعَالَيتَ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا . اللهمَّ ألْقِ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ ، وخَالِفْ بَيْنَ كَلِمَتِهِمْ ، وزَلْزِلْ أقْدامَهُمْ ، وأنْزِلْ بِهِمْ

بأسك الذى لا تردُّه عن القوم المجرمين . اللهمّ أنت عضدى ونصيرى ، بك أحول وبك أصول ، ولا حول ولا قوة إلا بك . اللهمّ واقية كواقية الوليد . اللهمّ اجعل فى قلبى نورًا ، وفى بصرى نورًا ، وفى سمعى نورًا ، وعن يمينى نورًا ، وعن شمالى نورًا ، ومن خلفى نورًا ، ومن أمامى نورًا ، واجعل من فوقى نورًا ، ومن تحتى نورًا . اللهمّ أعطنى نورًا ، واجعلنى نورًا ، وفى لحمى نورًا ، وفى دمى نورًا ، وفى شعرى نورًا ، وفى بشرى نورًا ، وفى لسانى نورًا ، واجعل فى نفسى نورًا ، وأعظم لى نورًا ، واجعل لى نورًا . يا من لا تراه العيون ، ولا تخالطه الظنون ، ولا يصفه الواصفون ، ولا تغيّره الحوادث ، ولا يخشى الدوائر . يعلم مثاقيل الجبال ومكاييل البحار ، وعدد قطر الأمطار ، وعدد ورق الأشجار ، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار . ولا توارى منه سماء سماءا ، ولا أرض أرضاً ، ولا بحر ما فى قعره ، ولا جبل ما فى وعره ، اجعل خير عمرى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوماً ألقاك فيه . يا ولىّ الإسلام وأهله ثبّتنى به حتى ألقاك . يا من أظهر الجميل وستر القبيح ، ويا من لا يؤاخذ بالجريرة ، ولا يهتك الستر ، يا عظيم العفو ، يا حسن التجاوز ، يا واسع المغفرة ، يا باسط اليدين بالرحمة ، يا صاحب كلّ نجوى ، يا منتهى كلّ شكوى ، يا كريم الصفح ، يا عظيم المنّ يا مبتدئ النعم قبل استحقاقها ، يا ربّنا ويا سيدنا ، ويا مولانا ، ويا غاية رغبتنا ، أسألك يا ألله أن لا تشوى خلقى بالنار .

اللهمّ إنك لست بإله استحدثناه ، ولا برب يبعد ذكره ابتدعناه ، ولا عليك شركاء يقضون معك ، ولا كان لنا قبلك من إله نلجأ إليه ونذرك ، ولا أعانك على خلقنا أحد فنشركه فيك ، تباركت وتعاليت ، فنسألك لا إله إلا أنت اغفر لى . اللهمّ إنك تسمع كلامى ، وترى مكانى ، وتعلم سرّى وعلانيتى ، لا يخفى عليك شىء من أمرى ، وأنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقرّ المعترف بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذل لك

جِسْمُهُ ورَغِمَ لكَ أنفُهُ . اللّهُمَّ لا تجعلْنِي بدعائكَ شقيًا، وكُنْ بِي رءوفاً رحيماً ، يا خيرَ المسئولينَ ويا خيرَ المُعطِينَ . اللّهُمَّ يا مؤنِسَ كُلِّ وحيدٍ، ويا صاحبَ كُلِّ فريدٍ، ويا قريباً غيْرَ بعيدٍ، ويا شاهِداً غيرَ غائبٍ، ويا غالباً غيْرَ مغلوبٍ، يا حيُّ يا قيُّومُ ، يا ذا الجَلالِ والإِكْرامِ ، يا نورَ السَّمٰواتِ والأَرْضِ ، يا زَيْنَ السَّمٰواتِ والأَرْضِ ، يا جبَّارَ السَّمٰواتِ والأَرْضِ ، يا عِمادَ السَّمٰواتِ والأَرْضِ ، يا بديعَ السَّمٰواتِ والأَرْضِ ، يا قيَّامَ السَّمٰواتِ والأَرْضِ ، يا ذا الجَلالِ والإِكْرامِ ، يا صَرِيخَ المُسْتصرِخينَ ، ومُنْتهى العابدينَ ، والمفرِّجَ عنِ المكرُوبينَ ، والمروِّحَ عنِ المغمُومينَ ، ومُجيبَ دُعاءِ المُضطرِّينَ ، كاشفَ الكُرَبِ ، يا إِلٰهَ العالمينَ ، يا أرْحمَ الرَّاحمينَ ، مَنْزُولٌ بكَ كُلُّ حاجةٍ . اللّهُمَّ أشْكُو إليكَ ضعفَ قوَّتي ، وقِلَّةَ حيلتي وهوانِي على النَّاسِ ، يا أرْحمَ الرَّاحمينَ ، إلى مَنْ تكِلُني؟ إلى عدُوٍّ يتجهَّمُني؟ أمْ إلى قريبٍ ملَّكتهُ أمْرِي ؟ إنْ لمْ تكُنْ ساخطاً عليَّ فلا أُبالي، غيْرَ أنَّ عافيتَكَ أوْسعُ لِي . أعُوذُ بنُورِ وجْهِكَ الكريمِ الَّذي أضاءتْ لهُ السَّمٰواتُ ، وأشْرقتْ لهُ الظُّلُماتُ ، وصَلَحَ عليهِ أمْرُ الدُّنْيا والآخرةِ أنْ تُحِلَّ عليَّ غضبكَ ، أوْ تُنزِلَ عليَّ سخطكَ ، ولكَ العُتْبى حتَّى ترْضى ، ولا قُوَّةَ إلاَّ بكَ . اللّهُمَّ احْرُسْنِي بعينِكَ الَّتي لا تنامُ ، واكْنُفْنِي برُكْنِكَ الَّذي لا يُرامُ ، وارْحمْنِي بقُدْرتِكَ عليَّ فلا أهْلِكَ وأنتَ رجائي ، فكمْ مِنْ نِعْمةٍ أنعمْتَ بها عليَّ قلَّ لكَ بها شُكْرِي ، وكمْ مِنْ بليَّةٍ ابتليْتَني بها قلَّ لكَ بها صبْرِي ، فيا مَنْ قلَّ عِنْدَ نِعْمتِهِ شُكْرِي فلمْ يحْرِمْني ، ويا مَنْ قلَّ عِنْدَ بليَّتِهِ صبْرِي فلمْ يخْذُلْني ، ويا مَنْ رآنِي على الخطايا فلمْ يفضحْني ، يا ذا المعْرُوفِ الَّذي لا ينْقضِي أبداً ، ويا ذا النَّعْماءِ الَّتي لا تُحْصى أبداً ، أسألُكَ أنْ تُصلِّيَ على مُحمَّدٍ وعلى آلِ مُحمَّدٍ ، وبكَ أدْرأُ في نُحُورِ الأعْداءِ والجبابرةِ . اللّهُمَّ لكَ الحمْدُ ، وإليكَ المُشْتكى ، وبكَ المُسْتغاثُ ، وأنتَ المُسْتعانُ . ولا حوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ . ربَّنا إنَّنا آمنَّا فاغْفِرْ لنا ذُنُوبنا وقِنا عذابَ النَّارِ . ربَّنا وآتِنا ما وعدْتنا على رُسُلِكَ ولا تُخْزِنا يوْمَ القيامةِ إنَّكَ لا تُخْلِفُ الميعادَ . اللّهُمَّ صلِّ على سيِّدِنا مُحمَّدٍ الرَّسُولِ الكاملِ ذِي الخُلُقِ العظيمِ وعلى آلهِ وصحْبهِ وسلِّمْ

سبب انحراف الناس عن الحق(١)

الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها تدل على الله ، و إبداع الله للأكوان وعظيم آياته تدل على وحدانيته وكمال صفاته وتنزهه عن كل نقص فى صفاته العلية ، وما يفيضه الله من رحمة وحنان على عباده وتتذوقه قلوبهم ، وما يلقيه من إلهام و بيان لطريق الصواب على صفحة الوجدان وتعرفه الأفئدة ، يجعل بين العباد وخالقهم صلة لاتنقطع « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ »(٢) وعجز الإنسان وحاجته إلى ربه القوى الغنى المحسن فى جميع شئونه تدعوه إلى عبادته بالالتجاء والتزلف إليه ، ولن يتزلف إليه كافر غير مقر بوحدانيته وعظيم آلائه . وفى كل العصور لم يستطع أحد إنكار وجود الله العلى العظيم إلا جحوداً وكفراً ، إذ لو اجتمع أهل الأرض والسماء وكان بعضهم لبعض ظهيرا ما استطاعوا تصوير شبهة تحجب دلائل وحدانيته وقيامه بنفسه وتدبيره لما خلق ، فسبحان الله الذى فطر السموات والأرض وخلق الخلق جميعا من العدم وأبرزها شاهدة على قدرته وعظمته وبديع صنعه .

وكل الفلاسفة الذين تجردوا من الغرض وسلمت أبحاثهم من دنس الشهوات وضلال الفكر سبحوا بحمد ربهم واهتدوا للايمان والتوحيد ، سواء منهم من وضع نصب عينيه ألا يجعل للأدلة النقلية سلطانا على عقله وتأثيرا على فكرته ، والذين قبلوا الأدلة النقلية وبحثوها على محك العقل والمنطق ، يقول سكوتس (إن الفلسفة الحقة والدين الحق شىء واحد لأن العقيدة مرحلة من مراحل الحياة العقلية) وكل فلسفة تجريبية أو علمية أو نظرية أو على أى طريقة من طرق البحث إذا صدقت وخلت من الغرض أدت إلى المعرفة بالله سواء منهم من نظروا إلى الطبيعة وجعلوها دليلا على كمال موجدها وواسع علمه وجليل إبداعه ، أو الذين جالوا بأفكارهم وتأملاتهم وراء الطبيعة فسلموا بوجوده وعجزهم عن إدراك كنهه ، إذ يسع الذهن الحادث تصوير كل شىء مهما عظم إذا كان ذلك الشىء حادثا ،

---

(١) نشرت بجريدة منبر الشرق الغراء سنة ١٩٤٥ . (٢) آية ١٨٦ البقرة

ويحترق ويتلاشى أمام الذى أوجده من العدم ، والعقل يسلم بوجوده تسليما لايقبل الجدل والإنكار ، فسبحان الله الذى حير الألباب من عظيم هيبته وجليل قدرته .

ويسمع الناس سماعا متواتراً من بدء الخليقة أن لهم خالقا أكبر، خلق أباهم آدم فى الجنة وأهبطه الأرض ليكون خليفة له فيها يعمرها ويصلحها هو وذريته ولا يفسدون ، يعدلون ولا يجورون إلى وقتهم المعلوم ، فإذا ما عادوا إلى بارئهم جازاهم عن ذلك أعظم المثوبات . ويعلم الناس فى كل العصور أن الله سبحانه وتعالى أرسل رسلا فى كل أمة ليدلوهم على الحق وليبينوا لهم سبيل الهداية والإيمان الصحيح ، وليخرجوهم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى والعرفان « وإنْ مِنْ أُمَّةٍ إلاَّ خَلاَ فِيها نَذِيرٌ »(1) ولم تخل أمة ، ولا بيئة من ذوى الفطر السليمة والعقول الناضجة . فلدى الإنسان فى كل العصور مادة المعرفة بالله والإيمان به من فطرته وروحه ووجدانه وعقله ، ومن آيات الكون البارزة ، ومن إرشاد الرسل وتعاليمهم ومن أهل الإيمان والحكمة ، مما يرضى به العقل ويطابق المنطق السليم ويحكم به الحق .

فإذا كانت هذه طبيعة الحق فلم اختلف الناس فى العقيدة وتفرقوا شيعاً وعبدوا الشمس والقمر والنجوم والأوثان، واتخذوا من ملوكهم وأنبيائهم وأحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله مع أن الفطر السليمة والعقول الناضجة لا تقرهم على ذلك ؟ فهو أمر تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًا ، إن جحد الإنسان ربه هذا الجحود وبدل شكر نعمته كفرانا . هل يرجع ذلك الاختلاف إلى خفاء الحق وإخفاق الناس وجهدهم فى الوصول إليه ؟ إن الله سبحانه وتعالى يقول « ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وأَهْلُهَا غَافِلُونَ »(2) ويقول: «وما كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ»(3) والحق أنه لاخفاء ؛ والجواب عن هذا السؤال واضح فى الكتاب العزيز : « كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإذْنِهِ ، والله

---

(1) آية ٢٤ فاطر (2) آية ١٣١ الأنعام . (3) آية ١١٥ التوبة .

يهْدِى مَنْ يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »[١] وهنا وضح أنه كانت علة الاختلاف البغى .
ويقول الله جل شأنه فى البغى وسببه ونتيجته « يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »[٢] والبغى هو الظلم الذى هو ضد العدل وعدم الانصياع للحق والتطاول عليه بالباطل ، ورأس الظلم التعرض للمالك فى ملكه والتداخل فى إرادته والاعتراض على أحكامه ، وأول من وقع فى ذلك بالنسبة لله رأس الغواة إبليس اللعين إذ أبى الانصياع لأمر خالقه ومالكه عندما أمر بالسجود لآدم وأخذه الكبر واعترض على حكم ربه قائلا ءأسجد لمن خلقت طيناً ، فجحد وكان من الكافرين . وأول الظالمين الباغين على الأرض قابيل إذ قتل هابيل : « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ »[٣] ولقد فتنت الدنيا قابيل وطمع فى زواج من لا تحل له وأحلها الله لأخيه ، فنقم عليه ذلك ظلماً وعدواناً ، وطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين النادمين فى وقت لا يفيد فيه الندم ، وغضب الله عليه وأضله بعد علم ، فكان من الكافرين ، وصار عوناً لإبليس رأس الغواة الجاحدين ، فاتخذه إماما لأهل الفساد فى الأرض ، ووسوس له أن الله غضب عليك وطردك من رحمته فاعبد الشمس إن كان لابد لك أن تكون من العابدين ، فطبع على قلبه وكان من القوم الكافرين ، وفتنت الدنيا كثيراً غيره فاتبعوا الهوى وظلموا أنفسهم بافتياتهم على حقوق غيرهم وعدم خضوعهم لأحكام ربهم ، فقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وعاثوا فى الأرض فساداً ، وعاقبة هؤلاء وأمثالهم أن يضلهم الله بعد علم ، ويسلب منهم الإيمان والعياذ بالله ، ويصبحوا من الكافرين « أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ؟ »[٤] ويعاقب الله الناس إذا زادوا فى البغى والعدوان

---

(١) آية ٢١٣ البقرة (٢) آية ٢٣ يونس .
(٣) آية ٢٧ — ٢٩ المائدة (٤) آية ٤٣ الفرقان .

واتخذوا الهوى إلهاً وحكما ولم ينقادوا لأحكام الله بسلب الإيمان ، ليبوءوا بعقوبة الكفر والشرك ، ومادتها الخلود فى النار ، وذلك بأنهم كلما كسبوا السيئات ، اشتد سواد قلوبهم « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »(١) وكلما أظلمت القلوب ازدادت جرأة على الحق فازداد غضب الله عليهم ، وإذا غضب الله على عبد قطع صلاته به « هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ »(٢) وصلاة الله على عبده هى هدايته له ورحمته به ، وإذا قطع الله حبل الرحمة والهداية بينه و بين عبده لعدم طاعة العبد وظلمه و بغيه وكثرة فساده ، قطع صلته به ولعنه وغضب عليه ، فإذا كان ذلك والعياذ بالله انقطع عن العبد نور العقل وخف إدراكه لحقائق الأشياء ، واشتدت عليه الفتن ، وكثرت فى قلبه الشبهات وغلظ قلبه وكبده ، وتيسرت له بواعث الضلال ، فآثر الحياة الدنيا ، وأنكر ما وراءها ، تبريراً لأعماله وخداعا لنفسه ، وافترى على الله الكذب وما لم ينزل به سلطاناً ، يقول الحق سبحانه وتعالى : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ »(٣) ويقول : « إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا »(٤) ويقول : « هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ »(٥) ويقول : « الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ »(٦) .

ومن الظلم والبغى تفرعت أسباب الكفر والضلال ، فعبد قوم الشمس والقمر والنجوم والأوثان بعد أن جحدوا وكفروا بالله ، فزين لهم الشيطان أعمالهم ، وسوّل لهم أن يرغموا غيرهم على هذه العبادة ، ليضلوا عن سواء السبيل وليكونوا شركاء ، فكانوا أئمة الكفر والضلال ، عنادا بالباطل وكبراً وعتوا « وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ

---

(١) آية ١٤ المطففين — (٢) ٤٣ الأحزاب — (٣) آية ٥ الصف .
(٤) آية ١٥٥ آل عمران — (٥) آية ٦٠ المائدة — (٦) آية ٣٥ غافر .

لهدينا كُمْ سَوَاءٌ عَلَينا أجزعنا أمْ صبرْنا ما لنا من محيص »[1] وقال تعالى : « ويوْمَ يحشُرُهُمْ ومَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فيقولُ ءأَنتُمْ أضْلَلْتُمْ عِبادِى هؤُلاءِ أمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِى لنا أنْ نتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أوْلِيَاءَ ولَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وآباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وكَانُوا قوْماً بُوراً »[2] وكان هؤلاء الطغاة فى الأرض بعد كفرهم سبب كل مصائب البشر وسبب ضلال كثير من الناس بعد الهدى وكفرهم بعد الإيمان ، فانطمست العقول وعميت البصائر ، فدخل خلق كثير فى تبعيتهم ، وصموا آذانهم عن نداء الحق ودعوة الرسل ، وعطلوا عقولهم فهم فى غفلة معرضون ، لأنهم وجدوا فى الكفر خروجا عن ربقة التكاليف ، وهدما لصرح العدل الذى كرهوه وتجرءوا على الحقوق تكبراً وتجبراً اتباعا للهوى ، ولم يكن ذلك خاصا بزمن دون زمن ، فكم أضل البغى والظلم والكبر والهوى قوما بعد إيمانهم من اتباع المرسلين، فغيروا الأحكام طبقا لمشتهاهم واشتروا بآيات الله ثمناً قليلا يبدلونها تبديلا ، فكفروا بعد إيمانهم وضلوا وأضلوا كثيرا .

واقتضت حكمة الله ورحمته بعباده المؤمنين أن يرسل بين الفترة والفترة رسلا يأمرون الناس بالعدل والإحسان وينهون عن المنكر والبغى ، ويبينون لهم الذى اختلفوا فيه وليردوا الناس إلى الإيمان ، ولكن معظمهم تأخذهم العزة بالإثم فيكذبون الأنبياء ولا تروعهم الآيات ولا أنباء المعجزات ، ويأمرون أتباعهم من السفهاء أن يتطاولوا عليهم بالباطل كبرا ، وعتوا وفساداً فى الأرض ، ولا يزالون بهم حتى يقتلوهم إن استطاعوا فيزدادوا إثماً وكفراً قال الله سبحانه وتعالى : « أفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وفَرِيقاً تَقْتُلُونَ »[3] .

وتتلخص أسباب الضلال والكفر فى النقط الجوهرية الآتية

أولا : الغرور بالدنيا وشغف الناس بالشهوات ، فيلهيهم الأمل عن اتباع الواجب والعدل فى الأمور ، فيأخذون فى البغى والظلم للاستكثار والتكاثر والتمتع بحق وبغير حق ، ويكفرون بعد الإيمان ،استحبابا فى متاع عاجل ويأسا من خير موعود ، قال الله سبحانه وتعالى

---

(١) آية ٢١ ابراهيم (٢) آية ١٧ ، ١٨ الفرقان (٣) آية ٨٧ البقرة .

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ »[1] ويقول الله سبحانه وتعالى فى شأن الذين كفروا منهم « زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ »[2] وهؤلاء الذين استهوتهم الشهوات كالأنعام بل هم أضل ، يرتعون فى المنكر ماشاءوا وشاء لهم الهوى ، وهم عاجزون عن القيام بالقسط لانعدام إنسانيتهم لايستحيون من الله ولا يستحيون من النـاس ، يحرمون الناس حقوقهم ، يسلبونها سلباً لايرعون فيهم إلاً ولا ذمة ، ولا يعرفون واجباً ، وهم عاجزون عن أداء رسالتهم فى كمال الإنسان المستقيم النافع ، ويهزءون من الحق ويعتبرون التمسك به ضعفاً وعجزاً عن بلوغ المآرب والرغبات ، يبيتون فى أنفسهم من أنواع الدناءة والخسة أكثر مما يبدو للناس ، ويزينون الباطل ليكثر أعوانهم فيولغون فى الدناءات بلا استحياء .

ثانيا : استخفاف الطغاة بشعوبهم واستبدادهم بهم ، أو إغراؤهم لهم بالمال والجاه حتى يعبدوهم من دون الله استخفافا بعقولهم ، ويزينون لهم ذلك حتى يألفوا عبادتهم فلايخرجوا من طاعتهم وطاعة ذراريهم لأبنائهم ، كما أخبر الله سبحانه وتعالى عن فرعون وقومه إذ قال جل شأنه : « فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ »[3] وقال تعالى : « وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ »[4] وقال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ »[5] ولم تنفع فيهم الآيات ولا النذر حتى أخذهم الله بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر . وفى التاريخ أمثال فرعون ممن خلعوا على أنفسهم ثوب الألوهية وغرتهم الحياة الدنيا وغرهم بالله الغرور .

ثالثا : طبع كثير من الناس على التقليد الممقوت يقلدون الغالب ويقلدون قومهم وآباءهم ، وتنطبع العقائد والعادات فى نفوسهم بلا بحث ولاتعقل ، ويتعصبون لما هم عليه من ضلال وإفك ويصمون آذانهم عن دعوة الحق ولا يفكون العقل من عقاله ليهتدوا ،

---

(١) آية ١٤ آل عمران (٢) آية ٢١٢ البقرة (٣) آية ٥٤ الزخرف
(٤) آية ٧٩ طه (٥) آية ٣٧ غافر

بل يقولون قلوبنا غلف وفى آذاننا وقر « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ »[١] أو يقولون : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ »[٢] ويشوشون على غيرهم بعنادهم وأباطيلهم ، يلتمسون أوهى الأدلة ، ويدللون على أن النور ظلام ، والظلام نور ، ويعقدون السهل ويدخلون بتأويلات ما أنزل الله بها من سلطان ، فى سبيل نصرة ما ورثوه ، ويقفون فى سبيل النور ويظنون أنهم بتمجيد آبائهم وحرصهم على اقتفاء آثارهم ، ولو كانت باطلة يبرءون من عذاب الله يوم لاتنفع معذرتهم ، والله سبحانه وتعالى يقول فى شأنهم : « وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ . فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ »[٣] .

رابعاً : رأى كثير من الملوك والسياسيين أن المبادئ السياسية والاجتماعية والاقتصادية لاتصلح أساسا ثابتا لتملك زعامة الشعوب وتثبيت سلطانهم وقضاء مآربهم ، لأن اتباع هذه المبادئ أبعد الناس عن الثبات عليها لمدد طويلة وأقلهم تضحية من أجلها ، فهم كثيرو التحول من مبدإ لآخر ، تبعاً للمنافع والأغراض والشهوات ، وتبعا للغالب الذى يرهب جانبه ويؤمل فى مؤازرته الأمن والفوز والرخاء بلا غضاضة على نفوسهم ، ورأوا اتباع الأديان أسلس قياداً منهم متفانين فى مبادئهم الدينية ، يضحون فى سبيلها بكل مرتخص وغال ، يصعب تحويلهم عنها ، يطيعون زعماءهم طاعة تقديس عمياء ، ذلك لأن للمبادئ الدينية المقام الأول فى كل عصر ، فهى الدعامة الكبرى لحياة الإنسان يستلهم منها سعادة المستقبل ، لايرهف شعوره إلا لها ولا تتغذى إحساساته إلا بها ، لأنها تبعث فيه الأمل وتقوّى عنده الشعور بالواجب ، ولأن التدين طبع فى النفس البشرية مهما زاغت عن الحق فيه تبعا للأهواء . فوجد الساسة فى الدين الأسلحة الناجعة لمحاربة الخصوم يستنفرون به الناس على أعدائهم ، فجعلوا من أنفسهم حراسا على العقائد حتى ولو لم يعتنقوها فى قرارة نفوسهم . ولما كانت العقائد الصحيحة حقا مشاعا للبشر ، ولكل شريعة حراس من أهلها

---

(١) آية ١٧٠ البقرة (٢) آية ٢٢ الزخرف (٣) آية ١٠، ١١ الملك .

المصلحين ، لجأ السياسيون إلى الحيل واستهواء بعضهم بالمال والجاه ، ليؤيدوا بهم سلطانهم ، فإن لم يطاوعوهم ولم يجدوا فيهم مأرباً سلطوا عليهم المرتزقة من الكتاب والمتفيهقين لتحقير شأنهم ، وإثارة الجدل والشبهات فى العقائد ، وإكراههم على ما يريدون ؛ فإن لم يستطيعوا كسب الخلص إلى جانبهم نجحوا على الأقل فى تفكيك عرى جماعتهم وحوّلوا طبقة من أهل الأهواء فتشيعوا لهم، ومن هذه الفتن تشيع أهل الدين الواحد وصاروا فرقاً وأحزاباً «إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ »[1] وقد يعمد البعض عند اشتداد العناد إلى تغيير الدين والتجديد فيه ، إما فى أصوله أو فروعه ليأتوا بعقيدة جديدة تخالف عقائد الآخرين ليلقحوا أذهان الجماهير ويرهفوا إحساسهم بالجديد ، ولا يرهبون فى بعض الأحيان وضع دين جديد يختصون بالدفاع عنه ويكون سلاحا قويا فى أيديهم ، ولن تقوى هذه العقائد والأديان على البقاء وسط العقائد الصحيحة إلا إذا تعصبوا لها وأذكوا نار الجدل ولجوا فيه كبرا وعتوا ، واستعانوا على تأييد زائفهم بملحدى المتفلسفين ، وكلفوا المرتزقة من الشعراء والكتاب التغنى به ، وإساغته للعامة بوضع الأساطير الكاذبة والمقالات الرنانة والأدلة المزيفة : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »[2] « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ . ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ »[3] ومن هؤلاء السياسيين ذاقت الأديان فى كل العصور هواناً ، ولعبت بها الأهواء فأفسدوا على الناس عقائدهم ، وعرضوا للعناء حياتهم ، وقلّ أمنهم وتعرضوا لسخط رب العالمين . أولئك الذين يقول الله فى شأنهم: « الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ »[4] .

---

(١) آية ١٥٩ الأنعام (٢) آية ٦ ، ٧ لقمان (٣) آية ٨ ، ٩ الحج
(٤) آية ٥١ الأعراف

خامسا : التعصب والغلوُّ فى الدين امتناعا عن إعطاء الحق لأهله وتكبرا حتى لا يكونوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين، وحبا فى الزعامة وتبعا للأهواء والمنافع الشخصية ، فيحاربون الرسل وأهل الحق والإصلاح يكذبونهم تارة وتارة يبخسونهم ويحقرونهم بالتغالى فى رفع أقدار السابقين إلى مقام الألوهية ، ويكرمون زعماءهم تكريماً يوقعهم فى الشرك ولا يخافون ربهم فيحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلبسون الحق بالباطل حتى يغيب الحق عن أبصار المبصرين : «قُلْ يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ولاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وأَضَلُّوا كَثِيرًا وضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ »[1] «قُلْ يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ ومَا انْزِلَ إلَيْنَا ومَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ »[2] ومن هؤلاء الطوائف من غيروا فى الكتب المنزلة ليشتروا بآيات الله ثمناً قليلا، ومنهم من وقفوا فى سبيل الرسل يكذبونهم بغير الحق ظلما وبغياً حتى تبقى لهم الزعامة والكبرياء فى الأرض « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ومَا كَانُوا مُهْتَدِينَ »[3] مع أنهم لن يطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

سادساً : أولئك الذين أخفقوا فى حياتهم وحسدوا الذين رفعوا راية الحق والكرامة واستظلوا بها فدافعوهم ولم يكونوا أمثالهم ، فاتخذوا سبيل المخالفة فى الرأى والعقيدة سبيلا لإثبات وجودهم بين الأعلام البارزين ، وهؤلاء هم الذين ينطبق عليهم المثل «خالف تعرف» من أمثال الفلاسفة المغرضين والعلماء المتفيهقين الذين يزينون دعواهم المخترعة بالألفاظ الخلابة وزائف المنطق ليستهووا بذلك العقول الضعيفة مع أنهم فى قرارة أنفسهم يعتقدون أنهم كاذبون وأنهم على الحق مجترئون « وإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وإنْ هُمْ إلاَّ يَخْرُصُونَ »[4] .

---

(١) آية ٧٧ المائدة
(٢) آية ٥٩ المائدة .
(٣) آية ١٦ البقرة
(٤) آية ١١٦ الأنعام

حكمة إرسال الرسل

عليهم صلوات الله وسلامه

سبق أن بينا أن الله سبحانه وتعالى جعل قضية معرفته سهلة لايكابر فيها إلا كافر جحود ، أعمى الله بصيرته وختم على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة ؛ كما بينا أن العقل الناضج والفطر السليمة تهدى إلى معرفة صفاته ، وأن الإنسان فى هـذا العالم العظيم مع ما وهب من القوى الفكرية التى تسمح له أن يجوب أسمى المعانى عاجز عن بلوغ أغراضه لا يأمن عواقبه إلا إذا استعان بالقوة الخفية التى تدير أمر العالم ، وهى قوة خالقه ومريده ، قوة الله الذى أتقن كل شئ ، وهى التى يتحتم عليه أن يلجأ إليها كلما استمان ويحتكم إليها إذا ظلم ، فإن استعان بغيرها ضعف المعين وكان من الهالـكين ، وكل إنسان فى هذا العالم لايعيش وحده بل يحتاج إلى بنى جنسه ، وبنو جنسه يحتاجون إليـــه لايعيش الكل إلا بالتعاون والتآزر والتراحم ، ومن هذا كانت حاجته إلى الفضيلة من أهم ضروريات وجوده لصلاح هذا المجتمع وبقائه سليما من أدران الرذيلة ، حتى لا يتفكك نظامه ويسير إلى الفناء ، ولئلا يشقى فيه أهله وتصبح حياة النور الحسى ظلاما يحبس الأنفاس . فهل مع هذه الحقائق الناصعة سار العالم الإنسانى إلى السمو وارتقى إلى أوج العرفان الذاتى وعاش أهله عيشة الأبرار ؟ يؤمنون بالله ويعملون طلبا لرضاه ، وينأون عن الدنس؛ يتعاونون ولا يتباغضون ، ويستلهمون الأسرار العلية والمعانى السامية التى ترفع أقدارهم عن البهيمية وتنفعهم فى مستقبل حياتهم الأخروية .

حال العالم فى كل العصور يدل على أن وضوح الحق لم يكن مانعا من الضلال ، وأن أكثرية الناس تهوى إلى أحط مراتب الإنسانية بل تندفع إلى الفجور اندفاعا ، وتسير إلى الشقاء كما يلقى الفراش بنفسه إلى النار ، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وصف هذه الحال لقومه إذ قال : « إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ تَقَعُ فِيهَا فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَمْنَعُهُنَّ

فيقتحمن فيها فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها » أخرجه البخارى[1] .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال « جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وجلسنا حوله فقال : إن مما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ، فقال رجل : أو يأتى الخير بالشر ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأينا أنه ينزل عليه فأفاق يمسح عنه الرحضاء . وقال : أين هذا السائل ؟ وكأنه حمده . فقال : إنه لا يأتى الخير بالشر وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضرة فإنها أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها فاستقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت . وإن هذا المال خضر حلو . ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ، وإن من يأخذه بغير حقه كمن يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيداً يوم القيامة » أخرجه البخارى ومسلم والنسائى .

ذلك لأن الناس تتبع الشهوات وتميل إليها ميلا عظيما فتجترئ فى سبيلها على كل حق وتطغى النفوس « كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى »[2] ولا تتبع سبيل الحق ولا يردعها العقل بل ينطفئ نوره وتخبو جذوته ويحتاج إلى من يشعله من آن لآخر حتى يضئ لصاحبه ، وقد يفسد حتى لا يعود إلى الضياء إلا إذا مسته قوة الكهرباء العلية .

فهل يكفى العقل إثباتاً على جحود الإنسان وكفره فيحمل عليه العقاب ، ويبوء بالشقاء الدائم فى دار الخلود لأنه لم يعرف الحق من نفسه ، ولم يتعقل طريق الهدى ولو لم يأته هاد يعاونه على سلوك الطريق المستقيم ويذكره بأيام الله ، وهل تقوم عليه الحجة بوضوح الحق لأن قوما عرفوا الحق من أنفسهم فاتبعوه ، وتبينوا الفضيلة والرذيلة بإيثار ما ينبغى وفيه السعادة الأبدية ولو كان شاقا على النفس حارما لها من لذائذها العاجلة ؟ مع أن الإنسان لا تقرعه النذر تلو النذر إلا قليلا ممن يخاف عذاب الآخرة وأكثرهم لا يفيق من غفلته إلا حين يرى العذاب ، وهو فى حالة الضعف والاحتياج خاضع متذلل ، وفى حالة القوة

---

(١) ورد فى تيسير الوصول ص ١٠٣ فى كتاب ذم الدنيا وأما كن من الأرض .
(٢) آية ٦ ، ٧ العلق .

والاستغناء طاغ متكبر « إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً »[١] كثير الجدل والمغالطة يتلمس فى تنكبه عن الطريق القويم أتفه المعاذير . يقول الحق سبحانه وتعالى : « وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى »[٢] وقالوا : « لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ »[٣] ويقول عنهم أيضا : « أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ »[٤] ويحذر الله الناس من هذه المعاذير بقوله : وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ . أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِى جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِى لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »[٥] هذه المعاذير وأمثالها لايدحضها إلا إرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، فإذا أرسلوا قطعت جهيزة قول كل خطيب ، وانتفت حجة كل مكابر « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ »[٦] والله أعدل العادلين يقول: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً »[٧] ويقول: «ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ »[٨] ويقول : « وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ »[٩] ويقول : « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ

---

(١) آية ٢٠ ، ٢١ المعارج (٢) آية ١٣٤ طه (٣) آية ١٦٨ ، ١٦٩ الصافات
(٤) آية ١٥٦ ، ١٥٧ الأنعام (٥) آية ٥٥ ، ٥٨ الزمر (٦) آية ٤٢ الأنفال
(٧) آية ١٥ الاسراء (٨) آية ١٣١ الأنعام (٩) آية ٢٠٨ الشعراء

فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ »[١] ويقول : « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ »[٢] .

وانظر إلى الإنسان خلقه الله وجعله هو وذريته خلفاء فى الأرض ووهبه من أسمى الملكات ما يرفعه إلى مرتبة الكرامة والشرف ، إذ يقول الحق سبحانه وتعالى: « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ »[٣] وخلقه فى أحسن تقويم ووهبه من القوى الروحية ما يسمو به إلى أعلى عليين « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ »[٤] ويقول الحق جل شأنه : « كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ . كِتَابٌ مَرْقُومٌ . يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ »[٥] وسخر له كل شيء وآتاه من كل ما سأل وفى مقابل هذا حمله أمانة سامية ، وهى أن يؤمن به ولا يجحد الفضل فينسى أنه قائم بالنيابة عنه فى إقامة العدل وعمارة الأرض والإصلاح فيها ، وأوصاه أن يتصف بصفات الكمال التى يتصف بها ليكون بارا رحيما مصلحا ، ووعده أجر هذه الأمانة دار رضوانه ، وعظيم إحسانه ، كما أوعد الذين يفرطون فى هذا الشرف العظيم وهذه الأمانة النار يصلونها وبئس القرار . فهذا وايم الحق شرف ليس فوقه شرف وأمانة تعلو قيم الأمانات ، وحملها والقيام بحرمتها من أشق المشقات ، ورعايتها والقيام بواجباتها ليس من الهنات الهينات « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا . لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا »[٦] فهل لا يحتاج الإنسان إلى مرشد ومعين للقيام بتكاليف هذه المهمة السامية والأمانة الغالية مع خطورة مسئوليتها ونبل غايتها ؟ إن الله أرحم بعباده من أن يتركهم يتخبطون فى مراتع الشهوات التى اكتنفت طريق هذا الشرف وتكاد تورد الناس جميعا موارد الهلكة ، فلا يرسل إليهم رسلا من لدنه ، يزينون لهم الإيمان ، ويبينون لهم وجه الإحسان ، ويعلمونهم شريعة الحق ونظام المدنية الفاضلة ، وينذرونهم خطر التفريط فى الأمانة

---

(١) آية ٣٦ النحل (٢) آية ١٦٥ النساء (٣) آية ٧٠ الاسراء
(٤) آية ٤ التين (٥) آية ١٨ ــ ٢١ المطففين (٦) آية ٧٢ ، ٧٣ الأحزاب

التى احتملوها عن جبار السموات والأرض ، فهل بعد ذلك يظن ظان أن الله يترك خلقه سدى بدون تربية ولا تعليم؟ وهل يكفى أن أفرادا من ذوى الفطر السليمة ، والطبع المعتدل ، والعقل الرشيد ، والتفكير المستقيم ، والحكم العادل ، والنفس الأبية النازعة إلى أسمى الفضائل القادرة على مغالبة الشهوات ، قاموا بالقسط وهُدُوا من تلقاء أنفسهم إلى الإيمان الصحيح والطريق المستقيم أن يكون دليلا على أن غيرهم من الناس لايحتاج إلى الهداية والإرشاد ، اعتماداً على أن لهم عقولا تميز ، ووازعا من القدس الأعلى يقرع النفوس ويسكن فى الضمائر ، وقد شهد العالم أن الأكثرية استهوتها الشهوات وتكاثرت عليها الشبه والأباطيل ، وظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، نخفت الضمير وقل إلهام العقول ، وتفرقت السبل وعز الحق فى تيارات الضلال ، ولم يعد لمشكاة العقل سراج يرد الجماح أو يهدى سواء السبيل ، فانطفأ وغاب فى الظلام الدامس ، ولن نعثر عليه إلا إذا طلعت شمس الحقيقة ، ولن يعود إليه النور حتى يجد من يشعله إن كان فيه بقية من قبول للاصلاح . والعقل أساس لقبول الهداية إلا أنه قد يكون صغيراً كالميزان الصغير الذى لايزن إلا ما كان صغيرا ، فإن حملته أكبر من طاقته أخطأ الحكم ، والعقل ميزان يزن الأدلة لأنها بضاعته ، والنفس والهوى من عملائه فإذا طغوا فى الوزن أو وضعوا ثقل التقليد فى كفتيه اختل الميزان وتعطل عمله مهما كانت قابليته لوزن الأمر الخطير أو الصغير ، وخسر الإنسان فى تجارته وقل ربح الفضيلة من أعماله فأخلد إلى السوء «والسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ. وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ» (١) وثبت من أحوال الخلق أن العقل يدل على ناحية الخير وطريق النجاة ، ولكن الإنسان يتحول عن الخير إلى الشر ولايسمع لحكم العقل . وكم تنكبت الأمم عن سلوك الطريق السوى وصمت آذانها عن دعوة الحق ونداء العقل واستغاثة أهل الصلاح . وثبت من دراسة أحوال الناس أن كثيراً منهم يشغلون عقولهم فى بحث كثير مما لا فائدة لهم فيه ، لأنهم لم يحددوا لأنفسهم أهدافا خاصة بل يكون ذلك منهم عبثا وتضييع وقت ، ولا يكلفون أنفسهم بحث قضايا الإيمان والحكمة مع أن على بحثها يتوقف صلاح عقائدهم أوفسادها وسعادتهم أو شقوتهم ، فهم محتاجون فى كل وقت

(١) آية ٧ — ٩ الرحمن

إلى رسالة من منطق الحق يذعنون لها وتقرع نفوسهم . ثم إن العقل الإنسانى إذا تحرر من كل ما يشينه من أسباب الهوى والتقليد يحتاج إلى صهر كالمعدن إذا صهر زال صدؤه واشتد ذكاؤه ، كما أنه لايتمكن من جلاء كثير من الأحكام فى كثير من القضايا التى تلزمه إلا بعد جهد شديد وبحث عميق لايصل إليه كافة الأفراد ، فإذا جاءته القضايا محضرة والدليل واضحاً جليًا مبسطا هضمه العقل الصغير والكبير وأمكنه الحكم فى القضايا حكما حقيقيا ، فهو فى أشد الاحتياج لأرقى نوعه كى يهديه ويرشده للحكم الصحيح من أقرب طريق حتى لاتتفرق به السبل ، بل يهتدى للسبيل الأقوم قبل ضياع الفرص ، من هذا نتأكد أن العقل محتاج إلى أدلة غيره بحكم التعاون فى إصدار أحكامه ، وقد يزهد فى العمل ويتبلد عن أداء رسالته فلاتصدر أحكامه إلا عن التقليد المطلق بدون بحث للقضايا التى تعرض عليه فينحط عن مرتبة نوعه ويكون أضل من الأنعام إذا انغمس فى الشهوات مع أن الله يمد الخلق إمداداً لا ينقطع فى أحوالهم الشخصية وأحوالهم العامة بالقضايا التى تحتاج إلى الأحكام ليزكيهم ويأجرهم على جهادهم ، ولم يصل العقل البشرى إلى النهاية من السمو على كثرة ماحبته القرائح من عصارات الفهوم وما أنتجه الفكر من مكنونات العلوم ، ولم يزل دائبا ولما يصل إلى أغوارها البعيدة « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً »[1] . ويختلف الناس فى الأحكام تبعا لاختلاف الأدلة واختلاف البيئات وترقى الفهم وظهور الأدلة لقوم دون آخرين ، أو قيام دليل جديد يضعف دليلا كان موضع الاحترام ، ألا يكون من رحمة الله على خلقه أن يرسل لهم رسلا من لدنه يبينون لهم سبل الهدى ويشرعون لهم القانون الذى يسيرون عليه ويكون فيه صلاحهم فى الدنيا والآخرة فى غير ضلال ولا هوى ويقربون لهم فهم ما استعصى عليهم فهمه فى أهم القضايا التى يتوقف على الحكم فيها والإيمان بها سعادتهم فى الدنيا والآخرة ؛ والخلق محتاجون لقانون التعبد الذى يسمو بالروح إلى أوج الصفاء واستجلاء أنوار القدس ؛ وهو قانون لايعلل بالأسباب ولا يمكن لمخلوق أن يخترعه اختراعا لأنه خاص برب الملك والملكوت ولا يصدر إلا بتبليغ منه ليكون فى اتباعه رضاه ، وقانون التعبد مهما بولغ

---

(١) آية ٨٥ الاسراء .

فى استجلائه بأن يقال إنه تعويد للنظام والخضوع للأحكام فهو غير مسبب بسبب ولامعلول بعلة ، لأن العبادة لاتعود على الله بشىء «وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ»[١] والله غنى عن جميع أعمال العباد وأحوالهم ، كما أن الأعمال التعبدية ليست فى أشكالها أشياء تفيد الإنسان إلا أنها فى جوهرها صلة بين العبد وربه وحبل الوصل، فهى من العبد خضوع والتجاء إلى الله بالكيفية التى أمرهم باحترامها وآدابها ، ومن الله انعطاف على العبد بالرحمة والود وإفاضة النور .

هـذا والناس بحكم الموت والحياة يتطلعون إلى معرفة شىء عن العالم الآخر ومحتاجون إلى من يرغبهم فيه بالعمل الصالح ويخوفهم أيام الله حتى يتقوها ، وهم بحكم الغريزة الفطرية يتشوفون من يأنسون فيه معرفة الغيب ويطمئنون إلى صدقه تعزية لهم عن ترك هذا العالم الفانى فينتظرون ما أعد لهم فى عالم الآخرة من جزيل الأجر والثواب بثبات وصبر على التكاليف « وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِى وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا »[١] والناس فوق ذلك كله محتاجون فى كل أمورهم إلى قوة عظمى تردهم إلى شريعة الحق وحماية العدل ، فإنهم إن خافوا سلطان البطش الإنسانى فى ظاهر أحوالهم فإنهم لايخافونه فى باطن معاملاتهم ، مع أن حقيقة الطاعة فى باطن النفس ومنها يصدر الإخلاص والتفانى فى الواجب وإيثار الآخرة على العاجلة ، ولا يرهب إنسان من قلبه أحدا يلزمه طاعته إلا الله سبحانه وتعالى أو من استمد الحق والقوة منه لقوة سطوته وعظمة جبروته ؛ ولأنه سبحانه وتعالى لايضيع ثواب عمل عامل من ذكر أو أنثى ، وأهم ما يُعْنَى به أهل الإرشاد هو إيصال هذا الخوف إلى القلوب . ولا يخضع الإنسان لقانون خضوعا قلبيا إلا إذا اقتنع أنه الحق الذى لامرية فيه وأنه صادر من العدالة الإلٰهية التى تعوض الإنسان عما يلحقه من حيف إن عاجلا أو آجلا فيسلم له تسليما . ولن يصل للبشر قانون سهل المأخذ فى أوامره ونواهيه بعيد عن ضلال الفكر ونزعات الهوى والنفس مصدره الحق سبحانه وتعالى نفسه إلا بوساطة الرسل الذين اصطفاهم لشرف الرسالة وهذه المهمة ، من أصفى عباده سريرة وأكملهم خلقا وأعدلهم

---

(١) آية ١٢ لقمان (٢) آية ٥٦ الكهف .

حكما وأطيبهم نفساً وأزكاهم روحاً ، وأولئك هم الذين اختارهم الله سبحانه وتعالى فى صدر الأمر الذى قضاه بإبراز هذا الوجود ليكونوا مبلغى رسالاته لخلقه ومقيمى أمر دينه مرشدين هادين لعباده ، والله أعلم حيث يجعل رسالته قال الله سبحانه وتعالى: « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ »[1] . ولا يمكن أن يكون لهم الشأن العظيم فى أعين الناس ما بين مصدّقين ومكذبين إلا إذا أيدهم الله بالآيات البينات والمعجزات الباهرات تمييزا لهم عن غيرهم من المجتهدين ، أو الأدعياء الذين يتطاولون على شرف الرسالة بغير سلطان أتاهم حتى يطمئن الناس على أن ما جاءوا به هو الصدق من عند ربهم فيذعنون ، فإذا أيدهم الله بآياته وجب الإيمان بهم والأخذ عنهم .

ولما كان شرف الرسول من شرف مرسله كان لمقام الرسالة خطره ، فهو ليس كأحد من الناس بل هو رسول من قبل رب العالمين ، من لم يؤمن به فقد كفر وجحد من أرسله ، ومن كذب بما جاء به بلا بينة من ربه فقد افترى على الله ، ومن لم يعظمه ويعزه ويوقره من قلبه ولسانه فقد استهان بمقام خطير ، المساس به احتكاك بسلطان الله القوى الذى لا يغلب ، وسفه نفسه « يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ »[2] .

عناية الله بخلقه ومنابع الهدى

لقد كانت عناية الله بالإنسان عظيمة من بدء خلقه ، قال الله سبحانه وتعالى : « الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ »[3] فأى شرف يعدل هذا الشرف إذ نسب الله النفخ فى الإنسان

---

(١) آية ٨١ آل عمران . (٢) آية ١٠٩ المائدة . (٣) آية ٧ ــ ٩ السجدة .

حتى استوى وصارت له روح مميزة إلى نفسه بأمره وقدرته ، وأودعه نور العقل قبل أن يلحقه التكليف ويهبط لعمارة الدنيا « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ »[1] فبهذا التقويم الحسن أرسل الله الإنسان إلى عالم التكليف وجعله خليفة له فى الأرض ليعبده ثم يقيم فيها مدنية فاضلة ، فإن تعشق الحق وعاش للحق إلى أن يعود للحق سبحانه وتعالى عاد معافى من دنس المادة و إلا ارتد إلى أسفل سافلين وتبدل تقويمه الحسن إلى سواد وطين ، ومنّ الله على الإنسان بأن سخر له ما فى السموات والأرض عناية به وتشريفا للسر الذى أودعه فيه ولأنه نفخ فيه من روحه « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »[2] وتكفل الله للخلق بالرزق فأمدهم بما فى خزائن السموات والأرض من ثمرات ، ولولا رحمته بهم وتكريمه لصورتهم المعنوية أن يصيبها الخمول ولا يكون للإنسان فضل فيما يرزق ما كلفه بالسعى إليه حتى يأتيه رزقه المقسوم « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ »[3] .

وتعهد الله الإنسان بعنايته ورعايته من بدء خلقه فى عالم الروح بهذا الشرف وهذه الكرامة إلى أوان ظهوره فى الصورة الإنسانية ، ولم تكن عناية الله بالإنسان مقصورة عند هذا الحد بل جعله الله موضع رعايته وعنايته وتعهده من وقت نزوله فى بطن أمه فى جميع أطوار خلقه وفى جميع أسباب حياته « اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ . سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ . لَهُ

---

(١) من آية ٤ — ٦ التين . (٢) آية ١٣ الجاثية . (٣) آية ٣٢ — ٣٤ ابراهيم .

مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ »[1] .

وأكرم الله الذين آمنوا بولاية أخص « اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »[2] فكيف يظن إنسان بعد هذه الآيات البينات أنه خُلق عبثاً أو أنه يسير بنفسه بلا مدبر دبر أمره . ورب يمده بفيضه ويربيه خلقا وجسدا وروحا ، فإن أساء أدّبه ، وإن كفر عذبه ، وإن آمن حفظه ، وإن أحسن وكان من الهداة المهديين أدخله فى زمرة الصالحين ورفع درجته فى درجات المقربين ، وأثنى عليه بما يليق به « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى »[3] .

فكيف بعد ذلك لايستحى الإنسان من ربه ويظن به الظنون « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ . كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ . وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ . إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ »[4] . « قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ »[5] فكل إنسان ميسر لما خلق له ، يظهر فى الصورة التى يريد الله إبرازه فى ثوبها ليؤدى رسالته على ما أراد الله لايتخلف فى نفس أو لفظ أو عمل ، فلا يتنفس نفسا واحدا إلا من فضله ولا يخطر بباله خاطر إلا يعلمه « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ »[6] ولايرزق رزقا من خيرى الدنيا والآخرة إلا من فضله و بسط يديه .

---

(١) آية ٨ — ١١ الرعد (٢) آية ٢٥٧ البقرة (٣) آية ٣٦ — ٣٨ القيامة
(٤) آية ٦ — ١٤ الانفطار (٥) آية ١٧ — ٢٠ عبس (٦) آية ١٦ ق

وقصارى القول أن كل عمل من أعمال الإنسان يستمده من فيض موجده بالصورة التى صوّره بها وفى الزمن الذى يريده ، وفى القوم الذين يسعدهم أو يشقيهم بلقائه « وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا »(١)

هذه عناية الله بالإنسان فى عموم نوعه من الأسود إلى الأبيض والعربى والعجمى، لم يخلق فردا من أفراده بلا تدبير وقضاء سابق ولم يحرمه رزقه وفيض رحمته و إمداده وتدبير شأنه ، كلٌّ على صورته سواء أكان من السعداء أم من الأشقياء . وأما عناية الله بخصوص الأفراد فلا تنتهى إلى حد . وقد خص من آمن منهم بتوفيقه وهدايته أولئك الذين أحبهم ويحبونه ورضى عنهم ورضوا عنه « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا »(٢) فالنور الذى يسكبه الله فى أرواحهم وعقولهم وضمائرهم يتذوقون به حنانه ويهتدون به فى ظلمات الحياة ويحيون به حياة السعداء فى دار الدنيا ودار الآخرة فى طمأنينة وهدوء « أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ »(٣) واختار الله من بين هؤلاء المؤمنين قوما أحسن صورهم خَلْقاً وخُلُقاً ومعنًى ، وأمدهم بفيض من أسمى فيضه ، وحجب ذواتهم عن الدنس بنور قدسى ملأ أركانها وفاض على الأرجاء ، واختارهم رسلا من لدنه لهداية خلقه وكان لهم نعم المولى ونعم النصير ، فكان مددهم أكبر ، وفيضهم أتم ، ونورهم أعم ، وكانت خواطرهم رحمة ، وأحاديث أنفاسهم ملكية ، وإلهاماتهم صدقا ، وأقوالهم حقا ، وكان سيرهم هدى ، وتشريعهم فى خير البشر ، وجهادهم خالصا لوجه ربهم ، تعبدا ورقا وحبا ، فكانوا ملائكة فى أثواب بشر ، وكانوا كواكب نور ربانى حجبت فى جمال ظهورهم فى ذلك الرداء الإنسانى ، وكانوا سبب هداية كثير من الضالين وفتنة كثير من الكافرين ، فيا سعادتهم ويا هناءتهم ويا شرفهم بكرامة الله لهم وبره بهم ويا سعادة من تأسى بهم ونهج نهجهم وترسم خطاهم .

يقول الحق سبحانه وتعالى عن إبراهيم « وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً »(٤) ويقول فى حقه وحق بنيه « وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا »(٥) وخاطب

---

(١) آية ٦٤ مريم (٢) آية ٩٦ مريم (٣) آية ٨٢ الأنعام
(٤) آية ١٢٥ النساء (٥) آية ٥٠ مريم

الحق جل شأنه موسى بقوله « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي »(١) وقال على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام « وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا »(٢) .

ويقول جل من أنعم عن يحيى عليه السلام « يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا . وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا »(٣) .

هذا مثال من كرم الله وشرف خطابه لمن اجتباه فكان تاجا على جبين الزمن ، وفضلا فوق كل فضل ، ونعيما فوق كل نعيم ، وعطفاً وإحساناً فوق كل عطف وإحسان ، ومنة تتضاءل دونها كل المنن « أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا »(٤) .

هذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله يخلق ما يشاء ويختار ، فما بالك بصفوة المختارين حبيب رب العالمين ، وسيد المرسلين ، وخير المشرعين ، وأعلم البشر أجمعين ، وخير المعلمين ، وإمام المتقين ، وقائد الغر المحجلين ، وأصبر المجاهدين ، وأخلص المحتسبين ، وأعبد العابدين ، وأخشع الخاشعين ، وأحمد الشاكرين ، وأصفى المحبين المحبوبين ، وأطهر أهل القدس أجمعين ، المبعوث رحمة للعالمين ، صاحب النور الأول ، والسر الأول ، والفيض الأول ، والمدد الأعم ، الذى ظل مرموقا بالعناية الأزلية ، مغشى بنور الأبدية ، ملحوظا بجلال الصمدية ، إلى أن آن أوانه ، وتهيأ العالم لظهوره وقبول علومه وأسراره ، صاغ الله ذاته الشريفة من حسن وجمال وجلال وكمال ، ولما استوت فى كمال الصورة الإنسانية خاطبه الحق جل وعلا من قدسه الأعلى « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا »(٥) فكان سراجا من الحق يغذى به مصابيح الأرواح ، مصدر

---

(١) آية ٣٩ طه (٢) آية ٣١ — ٣٣ مريم (٣) آية ١٢ ، ١٣ مريم
(٤) آية ٥٨ مريم (٥) آية ٤٥ ، ٤٦ الأحزاب

فيضه نور من الحق يصل به روحه المتلألئة فى تواصل مستمر الزيادة ، هو سر روحه وحياته هو منبع إلهاماته الصادقة وأقواله الحكيمة « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى »[1] فكلامه العادى صادر من تلك الإلهامات النورانية من فيض الذات العلية ، وكلامه عن الحضرة الربانية مؤيد بالوحى الملكى فى مكاشفة الروح وتمييزها الكامل الذى لايقبل الشك والالتباس :

تبارك الله ما وحى بمكتسب ولا نبى على غيب بمتهم

فالنور الذى غمر الله به سيد المرسلين فى الظاهر والباطن وفى سر ذاته وفيض روحه ، هو أعلى ما وهبه الله لمخلوق من خلقه بلا مكابرة مكابر :

فهو الذى تم معناه وصورته ثم اصطفاه حبيبا بارئْ النسم

منزه عن شريك فى محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم

وهـذا النور ليس هبة له وحده بل جعله الله هبة ثانية للعالمين لمن أراد أن يستقيم ويدخل فى زمرة المؤمنين « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ »[2] تستزيد منه أرواح المؤمنين نورا وهداية وقربا ورفعة ، وتحيا به أرواح بعد موتها أو خُبُوِّ نورها من ظلمة ما يقترفونه من المعاصى والسيئات فتعود إلى عالم القدس الطاهر ثانية سالمة بإذن الله ولا يحيق بها الشقاء ، لذلك عبر الله عن هذا النور بأنه سراج منير ، ذلك لأنه وضاح كثير النور تهتدى به النفوس الضالة وتراه الأرواح التى بقى فيها أثر من آثار نور العقل الذى أمدها الله به فى نشأتها الأولى ، أو تكون من تلك الأرواح التى كتب الله لهـا السعادة فعرّضها وساقها لهذا النور وهذا الفيض لترتوى من مناهله فتحيا به بعد موات كما تحيا الأرض الجدباء بأمطار السماء وفيضان الماء ، ولا تنكره إلا الأرواح المظلمة التى باءت بغضب الحق وحقت عليها كلمة العذاب ونزل بساحتها الشقاء ، فأنكرت النور أو رأته كما ترى عين فاقد الضياء .

هذا النور هو نور خير المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله وهو أعظم من أى نور خلقه الله وأمد به قوما من عباده فى صفاته وقوته ومعناه ، هو للأرواح غذاء حياتها ومنبع سعادتها

---

(١) آية ٣ — ٥ النجم (٢) آية ١٠٧ الأنبياء

وفيض معارفها ولباب حكمتها ونور عرفانها ؛ وإذا كانت الأجساد تحتاج لنور الشمس والقمر لتحيا به نعمة من نعم الله على الأبدان ، فالأرواح أحوج ماتكون لنور الذات المحمدية لتطهر وتسعد به نعمة من نعم الله على أرواح أهل الإيمان ، يقول الحق سبحانه وتعالى « تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا »[1] فالسراج هو الشمس بنورها الوهاج وحرارتها التى تفيد الأجسام والقمر المنير ، بنوره الصافى بين كواكب السماء ، فقابل هذا بقوله سبحانه وتعالى : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا »[2] . نجد أنه قابل سراج الشمس بسراج النور النبوى وفضل نور النبى عليه بصفاء النور وجلائه لأنه لاينقطع ليلا ولا يفصر نهارا ، فهذا النور سراج الأرواح فى ظلمة الحياة ، أمدنا الله بنوره وأفاض علينا من فيضه وجعلنا فى زمرته وممن والاه وأحبه وسار على هديه ، وممن سدد الله خطاهم وتفضل عليهم بأحسن ما يحبون آمين .

موارد الفكر الإنسانى التى يصدر عنها فى أعماله[3]

إن العالم ليتيه فى بيداء علم الله الذى لا نهاية له فإن لم يركن إلى الله غاب فى الظلمات ومن يُنكر ذلك فهو ظالم لنفسه جهول ، وقل لى بربك :

هل وصل العلماء فى أبحاثهم إلى عمق النواميس الطبيعية ، وأبانوا عن عللها بعد بحث الأجيال المتعاقبة ؟ اللهم لا ، إذ كلما كشف لهم البحث العلمى النظرى عن قانون كان عليهم أن يبحثوا فى علة هذا القانون بصرف النظر عن خطئه أو صوابه ـ ويتسلسل البحث حتى لا يجدوا علة أولى لكل موجود إلا مفيض الوجود ، فيقفوا أمام قوته وواسع علمه وجليل قدرته حاسرين عاجزين .

---

(١) آية ٦١ الفرقان (٢) آية ٤٥ ، ٤٦ الأحزاب .

(٣) نشرت بجريدة منبر الشرق الغراء .

وكل علم أو بحث لا يلد الاعتقاد بهذا العجز فهو الجهل بعينه ، وكل علم يوصل إلى الاعتقاد بالعجز عن بلوغ مدى القوة اللانهائية ، التى تفيض على كل موجود وجوده ، وتسير العالم يقرب من الحق سبحانه وتعالى وينير لصاحبه السبيل ويكشف له أسراراً عظمى ، لأنه بذلك يذعن لصاحب القوة ويعترف بالحق للحق الذى يلهم البشر ويكشف لهم عن خفايا العلوم بقسطاس معلوم فى أزمان مقدرة كما اقتضت ذلك حكمته العلية تبعا لتقدم العمران وترقى الإنسان على مدى العصور ، حتى يتهيأ الفكر البشرى لقبول ما هو أعظم مما لم يخطر ببال من سبق من الناس ، وقد تفاض بعض العلوم رحمة ونعمة لتفتح على الناس أبواب البركات من السماء والأرض عند ما تتفجر من قلوبهم ينابيع الإيمان ويشكرون الرحمن جل وعلا ، وقد تفتح عليهم غضبا ونقمة عند ما يعم العالم موجة من أمواج الكفر والإلحاد والبغى وقلة الحياء ، ومجاهرة جبار السموات والأرض بالمعاصى ليذيق بعضهم بأس بعض ، فيضلون ضلالا بعيدا وتقسو قلوبهم ويشتد كربهم لانتزاع الرحمة من قلوبهم ، فيجعلون من نور العلم نارا تحرق أجسامهم وأفئدتهم ، فإذا يئسوا من تراحمهم وجأروا إلى أرحم الراحمين بالتضرع والرجاء صرف عنهم هذا البلاء ، وإلا سلط عليهم أبوابا من العلم تزيدهم ألوانا من العذاب ، فالناس على حالين فى العلوم ، وأهم علومهم علم الحكمة «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا»[1] وكل من لا يرفع حجاب الغفلة ويقنع بالظواهر لا يسبر عمق الحقيقة ولا يذوق طعم العلم ولا يتمتع بأسرار الحكمة من معين الفيض اللانهائى . وكل عالم لا يزال متعلما حتى يبلغ قبره «أُطْلُبِ الْعِلْمَ مِنَ الْمَهْدِ إِلَى اللَّحْدِ» وكل متعلم ظن أنه وصل إلى نهاية البحث فى شىء بذاته إلا قول لا إله إلا الله ، فقد خرج من دار العلم واستخف بمقامه ، وسكن دار الخراب والجهل وعميت بصيرته ووقف من ترقى الخلق فى الدرجة الدنيا ، « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »[2] . « وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ »[3] وها هى ذى شهادات علماء الغرب فيما وصلوا إليه من العلم :

---

(١) آية ٢٩٦ البقرة (٢) آية ٢٨ فاطر . (٣) آية ٧٦ يوسف .

إسحق نيوتن (لسنا إلا كالأطفال فى جزيرة على شاطىء بحر العلم نلتقط ما يقذفه البحر من القواقع ، على حين أن الجواهر النفيسة فى قعر البحر) .

شوبنهور (كلما انحط الإنسان فى القوة العقلية ، عمى عن نور الحق ، وجمد تفكيره ، وأصبح كل شىء فى نظره يحمل تفسيرا لكيفية وجوده وسبب حدوثه) .

لوسيان بوانكاريه (إنه لاتوجد لدينا نظريات كبرى الآن يمكن قبولها قبولا تاما ويجمع عليها المجربون إجماعا عاما ، بل يسود اليوم عالم العلوم الطبيعية نوع من الفوضى) .

جوستاف لوبون (الوجود مفعم بالمجهولات التى لا نراها والحجاب الذى يحجبها عنا منسوج غالبا من الآراء الضالة أو الناقصة التى توجبها علينا تقاليد العلم الرسمى) .

إدوارد لوروا (العلم لم يتألف إلا من تواضع العلماء على أصوله وهو لكونه على هذه الحالة يظهر لنا بمظهر الثبوت ، فالعلم وحالته هذه لا يستطيع أن يكشف لنا عن وجه الحقيقة المطلقة وكل ما ينتظر منه أن يخدمنا كقاعدة للعمل) .

وليم كروكس (إن عدم اعتمادى على رأس مالى العلمى قد بلغ حدا بعيدا جدا ، فقد يفتض هذا النسيج العنكبوتى للعلم كما عبر عنه بعض المؤلفين حتى لا يبقى منه إلا كرية حقيرة تكاد لا تدرك) .

هنرى بوانكاريه (إذا نظرنا فى ناموس خاص أيا كان فإنا نستطيع أن نتأكد من أنه لا يمكن إلا أن يكون تقريبيا) .

لوجيل (كلما أمعن الإنسان فى دراسة العلوم من ناحيتها المعنوية ازداد اعتقادا بأن ليس فى العلم ما يمنع اتفاقه وأبعد الفلسفات مرمى . نحن لا نعلم إلا الظواهر والقشور أما الحقيقة والعلة فتأبيان أن تنكشفا لنا) .

بيو الفرنسى (إننا لا نشاهد إلا ما يظهر لنا من العلم فى الخارج وقد حجب عنا ما هو أعجب وأغرب ، لعمرك قل لى من ذا الذى استطاع أن يفهم سر طيران الذبابة وسر ألاعيب الفراش ؟ نعلم شيئا عن تركيبها الجسمانى وقابليته ، ولكننا عاجزون عن رؤية الحكمة التى أمرت بها ونظمتها ، إنى أمام مشهد الوجود العظيم أعتبر نفسى جاهلا) .

كاميل فلاماريون (ما هو الوسيط الذى يتوسط للقوى العقلية فى إنتاج نتيجة مادية ؟ كيف يوصل العصب البصرى صور الأشياء إلى العقل ؟ كيف يدرك هذا العقل ؟ أين مستقره ؟ ما هى طبيعة العمل المخى ؟ لن تستطيع أ كبر رأس أن تجيب على أحقر أسئلتى) .

وأخيرا وصلوا إلى تفتيت الذرة ولـكنهم مع ذلك لم يصلوا إلى شىء قال تعالى « الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقًا، مَاتَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ »[1] .

وهذا يدلنا على أن الإنسان مهما دأب على تعلم العلم فإنه يعجز عن إدراك كنه خالق الوجود وعن إدراك كنه أفعاله ، وعن إدراك كنه كل ما خلق حتى إدراك كنه نفسه ، وليس له من وجوده إلا إدراك ظواهر الأشياء وظواهر الأفعال، وجميع الذين لايسلمون بذلك « يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ »[2] . فمردّ كل شىء إلى الله الذى خلق السموات والأرض ويدرك كنه كل شىء خلقه ، ولا يدرك ذلك غيره ، لأنك إذا أردت أن تفعل مثل فعل غيرك لابد أن تكون مساويا له فى الذات والصفات فتدرك كنه ما يفعل ، ولا بد أن تكون موجودا وقت الفعل ولا يوجد مساوٍ لله سبحانه وتعالى فى الذات ولا فى الصفات ، ومن المستحيل أن يكون مخلوق موجودا قبل خلقه واعيا ما يفعل به « مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا »[3] .

فلا سبيل لإنكار عجزنا عن إدراك الـكنه وسيرنا إلى علم لا نهاية له .

وما دام الوجود غير قائم بنفسه فهو محتاج إلى من يقوم به وهو موجده فى أى لحظة من الزمن ، ومن هذا نسلم أن دورة الوجود من بدئها إلى النهاية أو اللانهاية بيد الحى القيوم إقرأ قوله سبحانه وتعالى « اللّٰهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ

---

(١) آية ٣ ، ٤ الملك . (٢) آية ٧ الروم (٣) آية ٥١ الـكهف .

لَهُ مَا فِى السَّمٰوٰاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوٰاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِىُّ الْعَظِيمُ »(١) .

نعم هو الله الذى لو انقطع مدده وفيضه عن أى موجود لاختل نظام وجوده ، بل لزال أثره وأصبح عدما محضا وتلاشى إدراك كل مميز حتى لا تبقى مادة ولا روح .

وهذا الفيض السارى فى عناصر المادة ولطائف الأرواح ، يهب لكل مخلوق وجوده هبة استمرار ماشاء الله وجوده ، ويفيض فيضه فى كل مخلوق بما يلائمه وفى كل حى بما يناسب مرتبته ، ويلهم كل موجود وظيفته فى الوجود « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ »(٢) .

وهذا الفيض له مظاهر متعددة فى الإنشاء والتكوين وفى جميع عناصر المادة وتحولاتها وانسجام نظمها ومظاهرها وفائدتها لما خلقت له ، وفى الإلهام والفكر وفى الأفعال بل وفى جميع أحوال الروح وما يترتب عليها .

ومن هذا نرى جميع الحشرات والحيوانات من الطفيليات ذات الخلية الواحدة إلى أرقى أنواعها تحيا بقدرة موجدها وتؤدى وظيفتها وتعاونها بين أفراد نوعها بالإلهام ، وتعمل كل ما فيه استمرار حياتها وتدفع كل ما يقطع عليها حياتها إلى آجالها المحدودة بالإلهام .

ولا يمكن أن يكون الإنسان قائما بنفسه وسط هذا الكون الحادث الشامل لكل ما هو حادث ، فهو مخلوق لخالق الأكوان مربوط بسلاسل القدرة الخفية والظاهرة فى دائرة الأكوان المتحركة بسر موجدها ولو أن الإنسان يشعر فى بعض أفعاله بالاختيار ، إلا أنه يذوق الاختيار ذوقا وليس فى قدرته أن يمد حقيقته بامداد من عنده وفيض من وجوده ، لأنه مغمور بالمدد والفيض من موجده لا من حقيقة نفسه ، ولأن وجوده مندرج بسر الأمر من الإرادة العلية . وكل همنا فى هذا البحث هو دراسة مظاهر هذا الفيض فى أعمال الإنسان وأخلاقه ومدى أثره فى تطور النفس البشرية ، وهذا يلزمنا البحث فى أحوال الروح المدبرة للجسد ، لنرى من أى مصدر يصدر الإنسان فى عمله وهو ما ستطالعه فى الأبواب الآتية إن شاء الله بقدر الإمكان .

---

(١) آية ٢٥٥ البقرة . (٢) آية ١١ فصلت .

الروح[1]

هى ذلك الجوهر النورى الصادر من عالم الغيب، عالم الأمر الذى لايدرك كنهه، ألا لَهُ الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ، أو هى قبضة الفيض السامى من جواهر العالم العلوى اللطيفة . هبة من الله لـكل مخلوق مميز قُدِّرَ له أن يعيش فى عالم الشهادة وحلقة الاتصال بينهما ، أو هى القوة القابلة لافتعال المعانى والأفعال فى عالم المادة .

هى السر الخفى فى نفس الإنسان الذى غاب عنه وحير ألباب العالمين ، هى التى تدع الإنسان فى غصة وعجب لعجزه عن إدراك كنه نفسه ، ومصدر أفعاله ؛ فالناس يعلمون علم اليقين أن لهم أرواحا ، ولـكنهم عاجزون عن تحديد مكان وجودها فى أعماق أنفسهم كأنها من عالم الوهم الذى لا يتطاول إليه التصـور . فما أخزى بنى الإنسان حين يتطاولون إلى مقام خالقهم ، ويجهدون أنفسهم بذواتهم التى جهلوها أن يصوروا فى أذهانهم القاصرة كيفية تدبير الله لخلقه وقيامه بأمرهم وحكمته فى أفعاله ، كما يتطاول البرغوث إلى فهم أسرار السماء ومحاكاة الملائكة ، مع أنه مثل مع الفارق . فالبرغوث مساو للملك فى أنهما مخلوقان ، وما أسفههم حين يحاولون استقراء الغيب بظاهر حواسهم . لذلك لانبحث فى كنه الروح ولـكن نبحث فى كيفية اتصالها بالجسد وأحوالها وأفعالها . « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً »[2].
وتتلخص أقوال العلماء فيها على هذا النحو :

يرى أرسطو والغزالى والإمام فخر الدين الرازى والراغب الأصفهانى وغيرهم : أنها جوهر متجرد عن المادة ، واتصالها بالمادة اتصال تدبير وتصرف لا اتصال حلول واتحاد .

ويرى سقراط : أنها جسم حالّ فى هذا الهيكل حلول الدهن فى السمسم وماء الورد .

ويرى أفلاطون : أنها حياة غير قابلة للفناء محصورة فى سجن فانٍ هو الجسد .

والرأى الأول نشأ من أن أصحابه اعتبروا الروح كاملة النشأة وتصوروا أن لها قوة مطلقة ،

---

(١) نشر هذا البحث تباعا بجريدة منبر الشرق الغراء ابتداء من العدد ٣٦١ بتاريخ ١٢ رجب سنة ١٣٦٤ هـ و ٢٢ يونيو سنة ١٩٤٥ . (٢) آية ٨٥ الإسراء .

وعلى هذا الأساس الذى اعتبروه وكونوه بالظن لم يدر بخلدهم أنها وهى بهذه القوة وعلى هذه الصورة تسكن الجسد أو تحل به وتتقيد فى قيود عجزه .

وأصحاب الرأى الثانى ذهبوا إلى واقع المحسوس من أنهم يشعرون أن الروح حالة فى الجسد متحدة به متقيدة بأغلاله ، وأنهم يرون من حضره الموت تنتزع روحه من جسده انتزاعا وهى غير راضية عن مفارقته ، وتنتزع من كل عضو انتزاعا قويا حتى تبلغ الحلقوم . فتسيل الروح الحيوانية من الفم وتذهب الروح الأخرى إلى بارئها وملئها التى وردت منه . وهم هنا أقرب إلى الحقيقة من أصحاب الرأى الأول وأقرب إلى قوله سبحانه وتعالى : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ . وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ . فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »[(١)] . وإذا كانت الروح متجردة عن الجسد تجردا كليا لكان خروجها من الجسد أهون عليها مما يرى ، ولذهبت إلى عالمها فى أى وقت شاءت ولم تبلغ آجالها المحدودة ، وكانت الأجسام سخرية والتكليف مرفوعا ، ولما احتاج الذى ضاقت عليه الدنيا بما رحبت وقنط من رحمة الله إلى الانتحار ، ولكن أصحاب هذا الرأى أرادوا تصويرها وهى حالة فى الجسد فجعلوها أشبه بجوهر مادى حل بالجسد حلول الدهن فى السمسم وماء الورد ، فإن كان تشبيها مع الفارق فقد صح ، وإن كان اتحاد حلول كاتحاد واختلاط المواد فهو بعيد عن الصواب .

وأما أصحاب الرأى الثالث فإنهم توسطوا بين الطرفين وجعلوا الروح سجينة فى الجسد حتى يكونوا مع الرأى الأول فى أنها متجردة مطلقة ، وليوافقوا أصحاب الرأى الثانى الذين لا يتعدون ماهو محسوس ولكنهم لما عجزوا عن تحديد مكان وجودها وإدراك كيفية اتحادها به وقفوا عند حد أنها سجينة بلا بيان للكيفية .

وذهب جماعة آخرون من منكرى البعث إلى أنها تفاعل حرارة الدم فى الجسد وما ينتجه من إحساسات فى الدماغ إما صادرة من الداخل أو محركة بإحساس من الخارج .

---

(١) آية ٨٣ — ٨٧ الواقعة .

وهؤلاء لايقدرون على تعليل مافى النفس البشرية من قوة التميز والإدراك ، ولا تميز لهم ولا إدراك . وهم أحرى بالاحتقار والازدراء لأنهم يحقرون خلق الله ويريدون أن يضعوا مرتبة الإنسان فى مرتبة أحط الحيوان ، فهم أحق بهذه المرتبة لحكمهم على أنفسهم بها .

والذى استقرأته وأميل إليه من أمر الروح بعد أن قرأت أقوال بعض المتقدمين وأقوال بعض المتأخرين أبينه فيما يأتى غير متقيد بنقل بذاته أو بالاصطلاحات التى تعارفوا عليها أو بترتيب خاص فيما أقوله تاركا لنفسى حرية البحث والاستطراد ، مجردا قولى عن التنميق لأظهر صورة مما يجول فى نفسى وغاية معرفتى صريحة واضحة للقارئ ، خصوصا فإن معظم ما أقول راجع إلى تدبرى لأحوال نفسى وما ألهمنى الله أو أكرمنى برؤياه قبل أن أقرأ لغيرى . فأقول مستعينا بالله :

إن الروح لها فى الخلق نشأة بعد نشأة[١] وتتطور من طور إلى طور ، قال الله سبحانه وتعالى : « وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا »[٢] فأما خلقها الأول فهو من عالم الأمر الذى لايخضع لأسباب المادة والعلة من أسرار البقاء[٣] .

وقد شرف الله خلق الروح بأن نسبه إلى ذاته سبحانه وتعالى : قال جل شأنه وهو يصف خلق الإنسان بعد أن استوى فى كمال الصورة الحسية والمعنوية الروحية والجسدية . « ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ »[٤]

---

(١) أجمع أهل السنة على أن الروح محدثة مخلوقة ، ولم يخالف فى ذلك إلا الزنادقة ؛ وممن نقل الاجماع على حدوثها محمد بن نصر المروزى وابن قتيبة ؛ ومن الأدلة على ذلك حديث « الأرواح جنود مجندة » والمجندة لا تكون إلا مخلوقة (شرح الصدور للجلال السيوطى رضى الله عنه) .

(٢) آية ١٤ نوح .

(٣) قال الجنيد : الروح شىء استأثر الله تعالى بعلمه فلم يطلع عليه أحدا من خلقه فلا يجوز لعباده البحث عنه بأكثر من أنه موجود وعلى هذا ابن عباس وأكثر السلف .

(٤) آية ٦ ــ ٩ السجدة .

والروح المنفوخة سرٌّ من أسرار الله لايدرك كنهها إلا الله « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا »[1] فكيف خلقت؟ ومتى خلقت؟ سرٌّ لا يعلمه إلا الله، « مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا »[2] .

وأما خلقها الثانى خلق التسوية، فقد خلقها الله من جسم[3] نورانى شفاف يتمثل على صورة الجسد قبل أن يكون، ثم أودع السر الإلهى (الروح) وباجتماع الروح بهيكلها النورانى تكون نفسا[4]، وقد ورد عن الإمام مالك رضى الله عنه أن الروح على صورة الجسد كما قال اللقانى فى جوهرته :

لمالك هى صــورة كالجسد   فحسبك النص بهذا السند

---

(١) آية ٨٥ الاسراء .   (٢) آية ٥١ الكهف .

(٣) أكثر المسلمين على أن الروح جسم وهو الذى دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الصحابة لوصفها فى الآيات والأحاديث بالتوفى والقبض والإمساك والارسال والتناول والإخراج والخروج والتنعيم والتعذيب والرجوع والدخول والرضا والانتقال والتردد فى البرزخ، وأنها تأكل وتشرب وتسرح وتأوى وتعلق وتنطق وتعرف وتنكر إلى غير ذلك مما هو من صفات الأجسام . والعرض لا يتصف بهذه الصفات أيضا، فلاشك تعرف نفسها وخالقها وتدرك المعقولات، وهذه علوم ، والعلوم أعراض؟ فلو كانت عرضا والعلم قائم به لزم قيام العرض بالعرض وهوفاسد . وقال الأستاذ أبو القاسم القشيرى : وكون الروح من الأجسام اللطيفة فى الصورة ككون الملائكة والشياطين بصفة اللطافة . انتهى ما لخصه الإمام جلال الدين السيوطى عن أقوال الأئمة . هذا، وقد كنت أزوره مقاما عظيما وجلست إلى قبره أتلو القرآن والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قمت للسلام فزال من أمام بصرى جميع ما كنت أرى من معالم الأمكنة ورأت عيناى حقائق نورانية وأنا فى يقظة كاملة فى مكان مضىء ثم تراءت لى الروح على هيئتها كاملة الأعضاء جسدا من نور على هيئة الاجساد الانسانية ولكنها بهرتنى فأخذنى الحياء ثم تشجعت ونظرتها ثانية فإذا هى الروح أمامى ولم أستطع زيادة النظر من شدة الرهبة والخشية والحياء . ومن هنا جزمت ببقائها بعد الجسد وبأنها هيكل نورانى ولم أكن قرأت هذا ولم أكن لأصدقه، فالحمد لله أعتنا على هدى ونور ، وعلماء الاسلام أصدق العلماء على مدى العصور .

(٤) قال الإمام الجلال السيوطى تلخيصا عن ابن القيم وأئمة العلماء : الصحيح أن الروح والنفس شىء واحد، قال الله تعالى (يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك) وقوله (ونهى النفس عن الهوى) ويقال : فاضت نفسه أى ماتت وخرجت؟ وقال بعض أهل السنة : إن الروح التى تقبض غير النفس، ويؤيده ماأخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها) قال فى جوف الانسان نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس فيتوفى الله النفس فى منامها ويدع الروح فى جوفه تتقلب وتعيش، فإن أراد الله أن يقبضه =

و يقول الله سبحانه وتعالى عن هـذا الطور من الخلق « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا »[1] والنشأة الثالثة باتحادها مع الجسد عند ماينزل بها الملك حوالى الشهر الرابع من الحمل فيودعها جسد الجنين وهو فى بطن أمه .

والنشأة الرابعة عند مباشرتها للجسد وتدبيره ويكمل بها طور الإنسان المخاطب بقول الله سبحانه وتعالى : « يَاأَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ »[2] وقد تعارف العلماء على تسميتها فى هذا الطور بالنفس الناطقة ، والنفس الناطقة الكاملة النشأة تسكن القلب وتشع منه فى جميع الأعضاء ومجراها الإرادى وموضع تدبيرها بين القلب والصدر والفؤاد ، ولابد لمن يريد أن يلاحظها ويتحسسها أن يراقب من نفسه كيف يبدأ الخاطر والتفكير ؟ وكيف يعتمل الحديث النفسانى؟ وكيف تبدأ إرادته فى التنفيذ؟ وكيف يبدأ فى النطق؟ ولتقريب ذلك نريد أن نذكر اسمه تعالى «الله» فانظر إلى القلب والفؤاد وكيف يبدأ الأمر بالذكر؟ ثم اذكر الاسم فى أخفى الخفاء كالكلام النفسى ثم كرر ذلك جملة مرات وأنت تراقب بدء جريان الاسم ثم أعلنه لنفسك مع النفس شهيقاً وزفيراً ثم أجره بعد ذلك يسيرا يسيرا حتى تنطق به فإنك بعد ذلك تدرك بدء الإرادة من قلب الروح ، ثم تستشعر رويدا رويدا مركز النفس الناطقة المدبرة المريدة التى إن خرجت مات الجسد .

= قبض الروح فمات ، وإن أخرأجله رد النفس إلى مكانها من جوفه . وقال مقاتل : للانسان حياة وروح ونفس فإذا نام خرجت نفسه التى يعقل بها الأشياء ولم تفارق الجسد بل تخرج كحبل ممتد له شعاع فيرى الرؤيا بالنفس التى خرجت منه وتبقى الحياة والروح فى الجسد فبهما يتقلب ويتنفس فإذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفة عين ، فإذا أراد الله أن يميته فى المنام أمسك تلك النفس التى خرجت ، وقال أيضا : إذا خرجت نفسه فصعدت فاذا رأت الرؤيا رجعت وأخبرت الروح وتخبر الروح القلب فيصبح ويعلم أنه قد رأى كيت وكيت انتهى . أما الحقيقة فكلا القولين بأنهـا نفس واحدة أو أنها نفس وروح فهذا شىء واحد لأنها كانت روحا ثم اندمجت بالجسد الروحانى فصارت نفسا واحدة كما صارت بعد اتحادها بالجسد إنسانا واحدا ، والروح لها معالم كبرى لزيادة قوتها ونورها ، والملائكة من عالم الأمر ولها روح وأجساد نورانية تماثل وتكبر وتزيد (يزيد فى الخلق مايشاء) وعند النفخة تقبض الملائكة فتخرج الروح وتموت أجسادها النورانية المزادة ، وفى البعث تخرج إلى حالة أسمى وأقوى من الأول ، والجن والشياطين كذلك الجن أجسام من نار والشياطين من هذا الأصل ، سبحان الله العظيم خالق كل شىء وهو بكل شىء عليم .

(١) آية ٧ ، ٨ الشمس . (٢) آية ٦ — ٨ الانفطار .

ولنتكلم عن النفس المسواة التى خلقها الله على صورة من نور تماثل صورة الجسد ، وفطرها فطرة سليمة يوم سواها فألهمها فجورها وتقواها . فبالإلهام تحكم على ماهو قبيح بالقبح وكل ما هو حسن بالحسن ، فتميز بين الفجور والتقوى باحساس ذوقى صادر عن تكوينها فتحس بانقباض عند نية السوء يحيك فى الصــدر ولا يمكنها دفعه ، حتى إذا ما وقع اشتد الانقباض و بدأت تلوم نفسها ؛ وتشعر بارتياح وانشراح عند ماتنوى فعل الخير ، فإذا أتمته كانت أشد ارتياحا وانشراحا ، وهذا كله بالإلهام الإلهى ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيهِ النَّفْسُ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَخِفْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ » .

هذا الشعور بالخير والشر الذى يصدر من انشراح النفس وانقباضها بطريق الإلهام والذوق هو الأساس الأول من أسس التمييز فى الإنسان وهو مايسمونه بالضمير ، وأنا أسميه الحر الخام أو ضمير المعرفة الأولى الوهبية قبل أن ترد على الإنسان المعارف الـكسبية . يقول سقراط : إن الرجل الذى يمكن أن يحيا سعيدا هو الذى لا يعمل ما يستوجب تأنيب الضمير . ويقول باسكال : إن الضمير هو أصدق وأجل كتاب نملكه فيجب أن نسترشد بصفحاته ونستعين بجمله وكلماته كلما حزبتنا مهمة من مهمات الحياة . ويقول فيسيو : اذهب حيث شئت فإنك تجد ضميرك أمامك ، إن كل القضاة معرضون للخطأ ما عدا قاضى القلب فإنه معصوم — ليس حكم غيرك هو الذى يخشى وإنما هو حكم الوجدان . ويقول جون سيمون : لا توجد سلطة أخرى تصدر أوامرها بحرية غير سلطة الضمير .

فهؤلاء جميعا وأمثالهم يؤكدون أن حكم الضمير حكم فوق تكييف أهواء الشخص نفسه . ولا يخالف الإنسان هذا الحكم إلا ظلما وعدوانا ، ذلك لأن سلطان الضمير من سلطان الحق الذى أودعه سريرة الروح لتميز به بين الخير والشر بالذوق المعنوى ، فهو صادر من الحق سبحانه وتعالى ؛ لذلك يقول كانت الألمانى : إن الضمير هو شعاع نورانى هبط من لدن القوة العليا المطلقة غير المحدودة إلى القوة المقيدة المحدودة ؛ فهو هاديها إلى الصراط القويم ، وقائدها

فى الطريق المعتدل ، ومبدد ظلمات الحياة التى تضل فيها لو حادت عن نصحه و إرشاده قيد أنملة . ويقول جان جاك روسو : إن الضمير هو قوة نورانية سكبها الخالق جل جلاله فى وسط ظلمة هذا الجسد الكثيف الضال فأحالت ظلامه نورا و بدلت ضلاله هدى .

فهولاء وأمثالهم أيضا اعترفوا بالحق وعرفوا مصدر هذا النور الذى يميز به الإنسان بين الخير والشر . وأما غيرهم فقد قالوا : إن الضمير هو حاسة يميز بها الإنسان بين الخير والشر كحاسة السمع واللمس . فإن كانت حاسة قائمة بالروح يكون الخلاف فى التعبير ، ولكن بعضهم يقصد أنها حاسة كباقى حواس الجسد . وهذا يخالف الحقيقة لأن المعانى لا تقوم إلا بالروح ، والضمير معنوى فى وجوده وأحكامه ؛ كما أن باقى الحواس لا قيمة لها إلا إذا ميزتها الروح ، فالحواس لا تقوم بنفسها ، فإذا رأى البصر مثلا صورة من الصور وانطبعت الصورة فى المخ ولم يقم معناها بالذات لا تكون إلا صورة جماد انطبعت فى جماد ، كالجسد الميت إذا فارقته الروح تتعطل حواسه . وحقيقة الضمير أنه نور إلهى أودع سريرة الروح من يوم التسوية و يزيده الله إمدادا بالنور كلما جاهد الإنسان نفسه فى ترك اللذات غير المباحة وابتعد عن الشر إلى الخير .

استطراد : و بعض علماء الأخلاق ينكرون أن الضمير وازع يصل إلى الإنسان بحبل من نور الله وأنه يقوم بالروح ، و يقولون إنه لا صلة له بالله ، وحجتهم أن الإنسان يتألم من الشرخوف اطلاع الناس عليه ، ولو أمن أن تنزل به العقوبة واطمأن ما لام نفسه قط ، والواقع يخالف ذلك لأننا نرى كثيرا من المجرمين يعملون جرائم فى الخفاء وهم آمنون من اطلاع الناس عليها ولكنهم يفزعون منها فى أحلامهم و يلازمهم الفزع فى صحوهم حتى يدلوا على أنفسهم ؛ ولهذا ضرب المثل (يكاد المريب يقول خذونى) ولن يكون هذا الدافع للخوف من المرء نفسه بل من تخويف الله المنصب على روح الإنسان والملقى فى روعه ولو كان لا يبصره ولا يدركه .

وأذكر قصة مجرم سمعتها : عرف رجل فى قرية بالفقر والإعسار ، وعلى حين غفلة من الزمان صار من أثرياء القرية بل أثرى الناس فيها ، ثم أراد أن يتزوج فنزح إلى مدينة واختار أشرف رجل فيها وتقدم لمصاهرته فسارع إلى القبول ورحب به ، ولكن بنته لم تشعر براحة صدر فاحتجت لوالدها بأصله، ولكنه رغبها فى ماله و «أصل الفتى ماقد حصل» ، وزفت إليه وعاشت شهورا منقبضة النفس دون أن تعرف لانقباضها سببا ، فهى تسكن قصرا وتطعم وتكسى فى رفاغة من العيش . وفى يوم من أيام الصيف كان زوجها ينظر للنهر من نافذة وكانت هى على مقربة منه ولكنها لم تشعره بوجودها ، فهب نسيم عليل فحدّث الزوج نفسه بصوت عال آه آه لقد كان فلان يظن ظن البلهاء أن الهواء يبلغ رجال الأمن ما فعلت به ويقول لا تقتلنى فإن الهواء يبلغ رجال الأمن فيقتلوك فنكون قتيلَىْ مال لعنه الله ، انتظر الدار الآخرة أو خذ مالى ودعنى ، ثم يقول لنفسه لو طاوعته أو خفت من هرائه ما تمتعت بهذا النعيم وما تزوجت من هــــذا البيت العظيم زوجتى هذه الحسناء . ومن هذا علمت زوجته بالحادث فخافت من معاشرته وخرجت لبيت والدها تفزع إليه هربا من هذا المجرم السفاك ثم بلغت والدها عنه فظهرت الجريمة وسيق إلى الجزاء العادل . .

وقد استدل غيرهم على أن الضمير من أهواء الشخص نفسه ، وليس له صلة بالله، وحجتهم أن الضمير هو عماد الوازع الخلقى فلو كان من عند الله أو له صلة بالله لاتفق الناس على قانون الأخلاق ، كما أن الأخلاق الدينية التى اتفقت عليها الكتب المقدسة أنها من عند الله لايلهمها الإنسان بدون تعلم ، ولو كان للضمير شعاع من نور الله لتواضع العالم الإنسانى كله بلا تعلم على قانون الأخلاق كما جاءت به الشرائع وما اختلف الناس فى فهم الأخلاق ، فقوم يرون عملا من الأعمال فضيلة ، وغيرهم يراه رذيلة ؛ ويختلف تذوق الفضيلة فى الأمم والأفراد ، ولو أن الضمير متصل بالله لاتفق الناس لأنه إله واحد وهو فى ضمير الخلائق لا يتعدد وإرشاده للخير لا يتشعب فى مذاهب عدة ، ولكن هؤلاء فاتهم أن الله لم يخلق الأجساد فى كمالها مرة واحدة أو جعلها فى تناسق واحد بل تدرج فى خلقهامن نطفة إلى علقة

إلى مضغة ثم جعلها عظاما ، وكوّن جنينا حتى صار طفلا فرجلا ، وكذلك الروح تتدرج في تربيتها ويتوقف فهمها للفضائل على ماتنال من العلم ومدى استعدادها لتلقى النور الإلهى، ولا يتساوى الناس فى المواهب والاكتساب ، ولم يقفل الله باب الاجتهاد لترقى الإنسان فى نوعه فإذا ما بلغ مرتبة العقل الراجح والضمير الحى كان ذوقه سليما وحكمه صحيحا فرأى أن قانون الأخلاق الذى ورد به القرآن الكريم هو أصح قانون يعمل به وهو الميزان المحكم ورجع إلى صفاء الروح ، ولا يزال يترقى الإنسان ويفهم حكم الضمير على أعماله وشئونه الخاصة الذى ترك الله لكل إنسان حرية الاجتهاد فيها لأنها لا تقع تحت طائلة القانون العام ، وإذا جاهد الإنسان نفسه فى اتباع الخير وترك الشر وسخر حواسه الظاهرة مع حواسه الباطنة فى الوصول إلى النبل والسمو والكمال قوى ضميره وجاشت فى صدره الآمال الرفيعة ومطالب المجد وأصبح للفضيلة نصيرا ولو ضحى بنفسه ورغباته :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجساد

وإذا جاشت بالروح مطالب المجد ضحت بالجسد والحياة لاعتقادها أنها كسبت معركة الحياة مرة واحدة ، وكذلك إذا طافت المبادئ السامية بأمة من الأمم استهان أفرادها بالأجساد والحياة فحاربوا بقوة فى سبيل المجد لأن الروح لا تعبأ عند ذلك بالجسد وتكون فى نشوة من خمر السموّ ؛ بخلاف ما إذا تبلدت وحرصت على حياة أشبه بحياة الحيوان فتسعى فى الأرض إلى أن تموت خاوية من المعارف والسمو ذليلة إذا جاء أجلها المحتوم .

ولنرجع إلى تصوير أحوال الروح فى كمال خلقها الإنسانى : تودع الصورة الروحية الملهمة مستودعها من الجسد وهى خالية من المعارف . ولنقرب ذلك إلى الفهم : نفرض أن رجلا ولد وحيدا وأمكنه أن يحيا وحيدا فى ظلام دامس إلى أن كبر ولم يجتمع بأى مخلوق ولم تصله أية معلومات عن هـذا العالم فإنه بالطبع يكون خاليا من كل معلوماته ولو أفهمناه وهو فى عزلته وظلامه عن هذا العالم أمره وشئونه فإنه يتصورها تصورا ذهنيا لا يبلغ تصوره إذا ما رأى العالم بصورته الحقيقية واستودع خياله حقيقة صوره حسا ومعنى ؛ كما أنه إذا فهم شيئا عنه قبل رؤيته فإنه يكون بطىء الفهم مع أنه لو رآه يكون أسرع فهما واستنباطا وأدق معرفة وأكثر استقراء وعلما .

وبالطبع لايتأتى له ذلك طفرة لأنه يبدأ كما يبدأ الطفل يحتاج إلى التعلم رويدا رويدا ، كما أنه قد يفزع مما تقع عليه عينه كما يفزع الطفل ولكنه لا يلبث أن يستوى .

هذا مثل واضح للروح عندما تسكن جسدها كغريب انتقل إلى عالم جديد، تخرج من نشأتها الأولى إلى هذا الوجود لا تدرى من هذا العالم وتكاليفه شيئا ، مستعدة استعدادا إلهيا لتميز ما هى مقبلة عليه من التكاليف وأعباء الحياة . ولما كانت الروح تماثل الجسد فى الصورة فهى ترى منه مثالا لها تفرح به بعد حلولها فيه ، وترى فيه أداة للسير فى هذا العالم الجديد ، فإذا وصلت من حواسه الظاهرة إلى حواسها الباطنة ما تلتذ به اشتد تعلقها به واهتمت بمباشرة شئونه فتلهو به عن عالمها الذى درجت منه ، ولا تحنّ إليه إلا فى أوقات النوم إذا نام الجسد نوما هنيئا واطمأنت على حالته ، فتجتهد فى الإشعاع شعاعا لطيفا غير محسوس إلا إذا تعلقت بشهواتها والميول الدنيئة فإنها تخبو فى خيالاتها . وقد يحصل للروح إشعاع من أغشية الجسد فترق كنفاذ أشعة إكس، وذلك إذا توجهت إلى العلم والحكمة والتقى وا كتالت من هذه الينابيع بالكيل الأوفى ، لأنها مادة حياتها وثروتها الباقية وزادها الذى تتزود به فى رحلتها إلى عالمها الذى درجت منه ، والذى لا غذاء لأهله إلا المعنويات ولباب المعرفة فتساوى بذلك عالمها ، ولا تأنس بالعالم الأرضى إلا فيما يعود عليها بالنفع وما تستبقى به جسدها للتزود بهذا الزاد الذى يزيد فى درجاتها . ويحصل لها ذلك غالبا فى آخر أيام الحياة عند الشيخوخة وعند ما يكون الإنسان فى انقطاع عن الدنيا وإقبال على الآخرة ، أو عند اليأس من متع الدنيا ولذاتها وا كتفاء النفس من حظوظها وانصراف الروح إلى أعمال الآخرة ونظرها إلى الجسد نظرة الإنسان إلى العود الذابل .

ولنرجع إلى موضوعنا فنقول : إن الروح تباشر أعمالها وأحوالها فى هذا الجسد مسخرة حواسه الظاهرة إلى حواسها الباطنة فيما يعنّ لها من شئون فى هذا العالم المادى كوسيط مرئى بينها وبينه ، أو كسائق يسوق (ما كينة) تدير آلات للرى والحصاد والطحن وغير ذلك من الشئون ولكل من قطع هذه (الما كينة) وآلاتها اسم مخصوص وفائدة مخصوصة

وأسائقها الفوائد التى تنتج من أعمالها وهو المركز المدبر لكل هذه القطع . فالروح لها مركز الإرادة والتدبير وسر التمييز فى حواس الجسد وحركات أعضائه ، وتستفيد منها تذوق اللذة والألم وارتشاف المعارف . وفوق ذلك للروح حواس باطنة أهم من حواسها الظاهرة فى قلب الروح، تتعدد أسماؤها المعنوية ولاتتعدد جهاتها وآلاتها كما تتعدد فى أعضاء الجسد ؛ ولكنها تفيضها على حواس الجسد وتتقبلها منه تقبل الفراز الذى يفرز ما يصله من بضائع فيختار منها ما يحب . وأما إحساسات العالم الروحى غير المنظور فإنها تصل إلى حواس الروح الباطنة مباشرة بدون وساطة حواس الجسد الظاهرة لانعدام الحاجة إليها فيما تتبادله بينها و بين عالمها الذى لايحتاج إلى الوسائط المادية فى العمل والفهم ، ولكن الإنسان لاينتبه لعمل روحه وحواسه الباطنة لحرصه على الدنيا وتعلقه بها ولانصرافه الكلى إلى أحوالها حتى تموت إحساساته الباطنة وتصبح وظيفتها محصورة فى تدبير الحواس الظاهرة لاتلتفت إلى طروق أهل عالمها أو تفسير ما تتلقاه منه ، وقد تسمع أحيانا هواتفه ولكنها لا تميزها إلا قليلا وقت النوم عند سكونها عن تدبير حواسها الظاهرة فى الميول التى اكتسبتها فى يومها وراء المادة . ولكن هذه السوانح غير المفهومة لا أثر لها فى أعمال الأرواح ولا تدنيها من عالمها السامى .

وتسرى إرادة الروح فى حواس الجسد كسيال الكهرباء فى أدق ما فى الأعصاب من تكوين[1] ولذلك يصدر العمل بمجرد النية المقرونة بالإرادة . والإرادة مركزها القلب مهبط

---

(١) اطلعت بعد كتابة هذا البحث ونشره بمنبر الشرق فى سنة ١٩٤٥ على كتاب الطاقة الروحية للعلامة هنرى برجسون تعريب الأستاذ سامى الدروبى فى أواخر سنة ١٩٤٦ وآرائه فى هذا الموضوع وسأكتب بعضا منها على حواشى هذا الكتاب فقد جاء فى صحيفة ٣٩ من هذا الكتاب (إن الجسم يقوم بالحركات الارادية بفضل بعض الأجهزة المعبأة فى المجموعة العصبية ، والتى تنتظر الاشارة حتى تنطلق . والدماغ هو النقطة التى تصدر عنها الاشارة ويصدر عنها الانطلاق أيضا ، فالمنطقة الرولاندية التى حددت فيها الحركة الإرادية أشبه بمركز توجيه القطارات حيث يفتح العامل للقطار الواصل السكة التى سيسير فيها ، أو هى أشبه بجهاز الوصل الذى يصل التيار بآلة من الآلات تنتخب انتخابا ، ولكنّ هناك شيئا آخر، غير أعضاء الحركة وعضو الانتخاب ، هو الانتخاب نفسه . وانظروا أخيرا إلى الفكر حين نفكر بقدر ألا نتحدث إلى أنفسنا فنخطط حركات الألفاظ أو نهيئها وقد نجربهـا بالفعل . ولا بد أن يرسم شىء من هذا فى الدماغ) إلى أن قال فى صفحة ٤٢ (إن الدماغ عضو التعبير عن الفكر باشارات ، فوظيفته أن يعكس حياة الفكر وأن يعكس كذلك الظروف الخارجية التى ينبغى للفكر أن يتلاءم معها . فالنشاط الدماغى هو من النشاط النفسى، هو بمثابة حركات العصا التى يحركهـا رئيس الاركستر من اللحن المعروف . إن اللحن يضفو على الحركات=

الروح ومركز التمييز ووعاء المعانى . فالحافظة والمخيلة وغيرها فى المخ البشرى ليست إلا مكان الإرسال والتلقى من باقى الأعضاء و إليها، فلا تقرأ الروح منه كتابا مسطورا على تجاعيده[١]. أو صورة محفوظة على ثناياه ، إنما تتلقى وتصدر بوساطته كآلة الكتابة التى أعدها صاحبها بالحروف والأعداد والرسوم و يزيد عليها ما يلزمه و يصوره ليضرب عليها بيده فتخرج كتابا مقروءا أو منطوقا منه ، ولذلك لاتستعمله وقت إرسال المحفوظ فيقرأ الإنسان سريعا مما وعته الروح ولا يستعمل إلا آلة النطق وهى اللسان . أما فى حالة ما يستعيده سرا عند النسيان فإنها توصله إلى المخ[٢] وتستعيده فيه كحديث النفس حتى تستذكر ولا تتلعثم عند النطق به لأن سيالها الروحى أسرع من أعمال الجوارح التى تضطرب عند السرعة .

والخلاصة أن فى مركز الروح كل المعانى والتخيلات التى تكسبها من العالم المنظور وغير المنظور ، تتوارد بكثرة على الأداة حتى إنك ترى المخيلة البشرية تعجز فى بعض الأحايين عن قبول كل الصور التخيلية ، أو يحصل للشخص اختلال أو هذيان عند كثرة التفكير الروحى الذى يلهب أعصاب المخ فلا يصح حتى يستريح وتعود إليه قوى التلقى من مركز

= وكذلك حركات الروح تضفو على حياة الدماغ ولكن الدماغ لأنه يستخلص من حياة الروح كل ما يمكن أن يتحرك وأن يكون مادة ولأنه نقطة اتصال الفكر بالمادة يضمن تلاؤم الفكر مع الظروف فى كل لحظة ويصون اتصال الفكر بالوقائع فى غير انقطاع ، فليس هو إذن بالمعنى الأصلى للكلمة ، عضو تفكير ولا عاطفة ولا شعور ، وإنما هو يجعل العاطفة والشعور والتفكير تظل ممتدة على الحياة الواقعية ، وقادرة لذلك على القيام بعمل ناجع . فقولوا إذا شئتم إن الدماغ هو عضو الانتباه إلى الحياة .

(١) قال العلامة هنرى برجسون فى كتاب الطاقة الروحية بعد الاستدلال فى صحيفة ٤٨ (ولكن إذا لم تكن الذكريات مختزنة فى الدماغ فأين إذن تقيم ؟ الحق أنى لا أدرى أى معنى لسؤال (أين ؟) حين لا يكون الحديث عن الجسد ، الانطباعات الفوتوغرافية تحفظ فى علبة ، والتسجيلات الصوتية تحفظ فى خزانة ولكن ما حاجة الذكريات إلى مخزن وما هى بالأشياء التى تحس وتلمس ، بل كيف يمكن أن يكون لها مخزن ؟ وإذا كان لابد من مخزن تقيم فيه بالمعنى المجازى للكلمة فهذا المخزن هو الروح ، واستدل بكثير من الاستدلالات ، فمن أراد زيادة الاطلاع فليرجع إليها .

(٢) قال العلامة برجسون فى كتاب الطاقة الروحية صحيفة ٤٦ (وما يدل على أن الذكرى لا تزال موجودة هو أنه يتفق للمريض فى بعض الأحيان وهو يستعين بجمل عن الكلمة التى يظن أنها زالت ، أن يستعمل هذه الكلمة نفسها فى جملة من تلك الجمل ، فالذى ضعف إذن إنما هو ذلك الانطباق على الواقع ، الذى يكفله الدماغ ، أوقل بوجه أخص إنه الوظيفة التى تنقل الذكرى إلى حيز الشعور بمبادرتها إلى رسم الحركات التى تظهر بها الذكرى إلى الخارج .

الروح فى القلب المودع سر التميز ونور الفطرة هبة من الله العلى الحكيم ، لذلك خاطب الله القلب على أنه سامع ومبصر لأنه نهاية اكتساب أعمال الحواس ومجتمع أعمالها ومركز إرادتها . وأما الخطاب الموجه لكل حاسة بالذات فى القرآن الكريم فمن قبيل مخاطبة من لا يعلم الحقيقة بظاهر ما يعلم ويحس ، ومن باب الإنذار حتى لا تستعمل الحاسة البدنية إلا فيما خلقت له ، ولئلا تفتح بابها للذة فلا يغلق حتى يرد منه العذاب ، فهو أداة التوصيل فى كلا الحالين . ولذلك يقول الحق « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ »[١]

وتتصل الروح من مسكنها الأول وهو القلب بجميع الحواس بوساطة المخ ولذلك أسميه مركز التلقى أو الفؤاد أو صفحة الوجدان أو ما شئت فسمه ، وهذا المركز هو ملتقى الحواس الباطنة والظاهرة[٢] وهو كأداة البريد يتقبل الرسائل الواردة ويفرزها ويوزعها ويرسلها ، والرسائل الصادرة من الروح إلى نواحيها بقدر ما يستطيع ، لذلك كان على الإنسان أن يحفظه من صادر السوء ووارد السوء « إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا »[٣] ولنضرب مثلا يقرب صورة من عمله . يرغب الإنسان لقاء شخص فتصدر الروح أمرها للمركز فتبحث المخيلة عن مكان وجوده بما تصدره لها الروح من صور تتخيلها

---

(١) آية ٥٦ النساء .

(٢) قال العلامة هنرى برجسون فى كتاب الطاقة الروحية صحيفة ١٦٥ (إننا مخيرون حين نتحدث عن الأشياء الخارجية ، بين نظامين فى الاشارة ، فإما أن نعامل هذه الأشياء وما يطرأ عليها من تغيرات على أنها أشياء ، وإما أن نعاملها على أنها تصور وكلا هذين النظامين مقبول بشريطة أن يحافظ أحدنا على النظام الذى ينتحيه — ولنحاول قبل كل شىء أن نميز هذين النظامين تمييزا دقيقا واضحا حين يتحدث المذهب الواقعى عن أشياء ، وحين يتحدث المذهب المثالى عن تصورات ، فإنهما لا يتناقشان حول ألفاظ . فهذان فى الواقع نظامان فى الاشارة مختلفان فى فهم تحليل الواقع . فأما بالنسبة للمثالى فليس فى الواقع شىء غير ما يبدو لشعور الفرد ، أو للشعور بوجه عام . ومن السخف أن نتحدث عن خاصة من خواص المادة لا يمكن أن تكون موضوع تصور . فليس ثمت إمكان ، أو على الأقل ليس فى الأشياء شىء إمكانى صرف ، فكل ما هو موجود فهو فعلى أو قابل لأن يكون فعليا : أى أن المذهب المثالى نظام فى الاشارة فحواه أن الجوهرى من المادة معروض أو يمكن أن يعرض فى تصورنا لها ، وأن مفاصل الواقع هى بعينها مفاصل التصور ، وأما المذهب الواقعى فيقوم على عكس هذا الفرض ، وهو يرى أن المادة موجودة بغض النظر عن التصور ، وأن تحت تصورنا للمادة علة لهذا التصور لا تدرك ، وأن وراء الادراك الذى هو فعلى ، قوى وإمكانيات مختبئة ، وأن ما نرى فى تصورنا من انقسامات ومفاصل متوقف على طريقتنا فى الادراك فقط) .

(٣) آية ٣٦ الاسراء .

عن مكان وجوده من حاسة البصر الباطنة وهو ما يسمى الظن ، فإن وضح كان اليقين .

وتشتغل الذاكرة حتى يمضى الأمر لجميع الأعضاء . وكذلك فى أى رغبة من رغبات المطعم والملبس والمشرب وجميع الشئون ، أو يتلقى رغبة من رغبات غيره بوساطة السمع والبصر فتلتفت الروح إلى النداء بالسمع أو الإشارة بالمرائى ، وتصدر بمجرد وصوله إرادة الروح بالعمل أو الترك أو الالتفات المركزى أو صرفه حسب رغبتها وتعلقها وسعة معارفها وتيقظها لكل ما هو مفيد أو لذيذ حسب ما اكتسبته من ميول تألفها بالتكرار سواء كانت هـذه الميول ضارة أو نافعة ، وعند ما يشتد الميل إلى رغبة مّا يكون عمل المركز قليلا لأن الأوامر تصدر اندفاعا من رغبة الروح كأنه عمل بلا إرادة بالنسبة لما اعتادت عليه وكثرة تلذذها به وهواها فى الإسراع إلى الحصول عليه أو دفع كل ما يقوم ضد هذه الرغبة حتى تفقد الوعى الظاهر لعدم استطاعة الجسد السرعة ومتابعتها فيما تريد .

ولنتكلم عن واردات وصادرات هذا المركز ، وهى : قسم يختص بعالم المحسوس المنظور . وقسم يختص بعالم غير المحسوس غير المنظور .

فأما واردات القسم الأول فتشتمل على ما يأتى :

١ — ما يتأتى من حاجات الجسد نفسه ، فالجسد يسير بحركة لا إرادة للإنسان فيها . فالدورة الدموية والإفراز والهضم والتفاعل وأمثالها تسير بحركات لا دخل للإرادة فيها . وكلما احتاج إلى حاجة من الحاجات أرسل إلى المركز دقات التنبيه لتتيقظ الروح [١] إلى ما يحتاجه من طعام وشراب عند الجوع والعطش ، ويوصل إليها الألم والراحة عند ما يصاب بشىء من داخله أو خارجه ، فتسعى الروح فى حاجاته وإصلاحه بما اكتسبته من معارف وتذوقته من لذائذ .

---

(١) قال العلامة هنرى برجسون فى كتاب الطاقة الروحية صحيفة (٣٩) (وأما ذلك الجزء اليسير وهو الجانب الوحيد المرسوم فى النشاط الدماغى ، فإن دراسة الوقائع سوف تسمح بوصفه وصفا ماينفك يزداد دقة انظروا مثلا إلى وظيفة الادراك أو الشم ؟ إن جسمنا المتدرج فى العالم المادى يتلقى تنبيهات عليه أن يرد عليها بحركات مخصوصة ، والدماغ بل والمجموعة الدماغية الشوكية عامة هما اللذان يهيئان هذه الحركات ولـكن الادراك شىء آخر تماما .

٢ — ما يرد أو يصدر إلى الحواس الخمس الظاهرة، وهى السمع والبصر ، والذوق واللمس والشم .

٣ — ما يصدر أو يرد على الحافظة والمخيلة باستمرار عند الفكر والتذكر والرغبات

٤ — ما يصدر أو يرد من العقل الأول المعنوى لقياسه على العقل الحسى .

أما القسم الخاص بعالم غير المحسوس، فيشمل ما يأتى :

١ — ما يرد من الباب الملكى للروح مباشرة : وسميناه الباب الملكى لأنه باب الرحمن باب الخير ومهبط النور :

(ا) وهو ما تتلقاه من الله مباشرة نورا يقذف فى روحها يقوى فيها التمييز والإدراك ويبعثها على العمل الصالح إما بسطا أو قبضا حسب استعداد الروح وتحملها موارد الأنوار فتقوى مداركها وتفتح لها مغاليق العلم والحكمة .

(ب) تتلقى من الملائكة[1] والروح الطاهرة النصحَ والإرشاد بما يضربون على أوتار المركز؛ كما تفعل الروح نفسها بمركزها فتقرأ ما يرد عليها ، إما يقظة بالتذكر فيما ألقى من قول أو صورة وهو ما يسمى بالخاطر ، أو مناما بمشافهة الأرواح للأرواح كما تتفاهم الأشباح وتنبه إليه الروح لعدم انصرافها إلى شئون الدنيا والجسد ، ومن ذلك مخاطبة الموتى السابقين بما لايلتبس على الإنسان تذكره بالنهار ، وقد تتم هذه المشافهة من الروح للروح فى حالة اليقظة الكاملة أو الناقصة حسب همة الروح وقواها ؛ فمنها ما تتوقف معه الحواس الظاهرة فيكون الشخص أشبه بالنائم أو المغمى عليه ، لعدم قدرة الروح على احتمال رؤية العالم المحسوس وغير المحسوس مرة واحدة مستعملة حواسها الظاهرة والباطنة فى وقت واحد[2] .

---

(١) عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة . فأما لمة الشيطان: فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك: فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد منذلك شيئا فليعلم أنه من الله تعالى ، فليحمد الله تعالى ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ : (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) الآية أخرجه الترمذى .

(٢) اطلعت بعد كتابة هذا الموضوع على كتاب [المطالب القدسية] لحضرة صاحب الفضيلة العالم الجليل الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى رضى الله عنه فى صحيفة ٥ مانصه (فالبرهان قائم على أن للنفس فى ذاتها قوى عقلية تتصرف بها فى المعقولات تصرفا لا تحتاج معه إلى هذه الآلات الجسمانية وإن كانت مقارنة لها

أو يكون من أرباب الهمم النادرة والمواهب العليا فتحتمل قواه الباطنة والظاهرة الإشراف فى العالمين[1] ولو إلى وقت محدود ، لأن الجسد يتألم من هذه الحال ، وقد يفسد إذا ما زاد عليه ؛ وأهل هـذه الحال هم الرسل والأنبياء والصدّيقون ، وأعلاه الوحى الذى يهبط عليهم ويحتملونه . وتنقسم الأرواح فى هـذا الشأن إلى مدركة أو غير مدركة له حسب درجاتها ومواهب العلى العظيم لخلقه ، وحسب استعداد النفوس لتحمل النور وتعشق اكتسابه والعمل بالنصح والإرشاد واستماع ما يلقى إليها من هذا الباب والاجتهاد فى تمييزه حتى تصل إلى نفس لوامة أو إلى نفس مطمئنة بالإيمان ، لكى تتصل بموارد الرحمن وتتوالى عليها البشارات وتكون من الذين قال فيهم الحق « أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ »[2] ولأدلك على هذا الباب اقرأ قول الله سبحانه وتعالى: «هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ »[3] وصلاة الله على عبده هى رحمته به ولا يتذوق هذه الرحمة إلا بالسير على الطريق المستقيم وهدايته إليه . وصلاة الملائكة ملازمة بالنصح

وهو كمالها الذاتى وجهة غناها عن البدن الذى تفتقر إليه فى تحصيل كمالاتها فى هذه النشأة الثانية فهى جسمانية الحدوث والتصرف روحانية البقاء والتعقل فلها كينونة فى عالم العقل وكينونة فى عالم الطبيعة والحس وكينونتها هناك أكمل من كينونتها هنا ولذا تبصر وتسمع وتشم وتذوق وتلمس حال مفارقتها للبدن فى النوم بما لها من تلك الحواس الذاتية) .

(١) وقال صاحب المطالب القدسية فى صحيفة ٧٢ (اعلم أن انسلاخ النفس عن لبوس البشرية وعوائق الطبيعة الجسمانية يقع على وجوه شتى وفى حال دون حال وأكمله ما يقع للشخص من حفظ ناموس الطبيعة ورسوم الشريعة فتجده وهو فى هذا المشهد يأكل ويشرب ويبيع ويشترى ويصلى ويصوم ويزكى ويحج ويعامل الناس بأنواع المعاملات على وجه أتم وأكمل جامعا بين المشهدين قائما بأحكام الموطنين كأن روحه تشهد ما هناك وتحفظ ما هناك كالنائم تسبح روحه فى عالم الخيال وتصعد إلى المبادئ العالية وترى ما ترى ومع ذلك لها اتصال بالبدن يحفظ عليه حياته ويستبقى آثاره إلا أن هذه تفضل نفس النائم بحفظ الحركة والشعور على وجه لا تم فيه ، وهذا النوع من الانسلاخ يقع للأنبياء والكمل من الأولياء وهم أصحاب التمكين ، ودونه مراتب متفاوتة وأنواع شتى لا يعرفها إلا الواجدون .

وبالجملة فالانسلاخ عن البشرية يرجع إلى تجرد النفس ونزوعها إلى مبدئها الأول وعالمها الروحانى . بخلع صورة ولبس صورة أخرى ، فهو نوع من تطورات النفوس فى حركاتها الصاعدة وتمثل فى عالم الظهور بأمثال متباينة عكس نشأتها الطبيعية وأطوارها البدنية ، ومن طالع كتب الصوفية وتأمل فيها وقف على كثير من غرائبه ولا أظنك بعد هذا تعود إلى إنكار كرامات الأولياء أو ترتاب فى معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) .

(٢) آية ٨٢ الأنعام . (٣) آية ٤٣ الأحزاب .

والإرشاد وردّ الأباطيل والترّهات بالحجة الواضحة يلقونها إليه كما مر . واقرأ قول الله سبحانه وتعالى : « أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا »[١] .

٢ — الباب الثانى وهو الباب الشيطانى ، وسميناه بهذا الاسم لأنه باب الشر :

(ا) مايلقيه الشيطان فى مركز التلقى ويصل بوساطته إلى الروح من الخبث والتحايل والحجج الباطلة والتيئيس والهموم .

(ب) مايوسوس به الجن والأرواح القوية فى الشر من الشرور وتتلقاه الأرواح فى صورتها الأصلية من صنائع السوء وهمسات الصدور . وهذا الإلقاء لاتميزه الروح بحواسها الظاهرة لأنه من عمل الأرواح فى صورتها الأصلية غير المدركة بالظاهر إلا قليلا من هؤلاء الشواذ الذين لايغفلون عن ذكر الله ومراقبته ، لذلك يحذرنا الله من هذا الوارد بقوله سبحانه وتعالى : « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلٰهِ النَّاسِ . مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ »[٢] وورد عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خَطْمَهُ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ فَإِذَا ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ ، وإِنْ نَسِيَ الْتَقَمَ قَلْبَهُ » .

هذه هى موارد الروح التى يصدر عنها الإنسان فى أعماله وأقواله وأفكاره ويتأثر بها العقل البشرى . وبما أن العقل أعظم هبة وهبها الله الإنسان وفضله بها على سائر الحيوان وجعله الله نورا صبه فى الروح وفيضا من فيضه السامى ، كان على الإنسان أن يقدر هذه الهبة ويغذيها بما يقويها باكتساب الصالح وترك ما هو فاسد حتى لا تخبو شعلة نوره .

العقـــل

ولنتكلم كلمة عن العقل ؛ فالعقل الأول هو العقل الوهبى الفطرى ، وبما يكتسبه من العمل يسمى العقل الاكتسابى وهو بحاسته الباطنة هو العقل المعنوى الحر ، وباستعماله الحواس الظاهرة يسمى العقل الحسى ؛ وسنتكلم كلمة عابرة توضح لنا هذا التقسيم .

---

(١) آية ١٢٢ الأنعام . (٢) سورة الناس .

١ — العقل الحسى لايقبل الاعتراف إلا بما هو منظور وبالكميات والعدد : هذا ملموس ومنظور ومحسوس ، وهذا أكبر وأكثر ، وكل معنى لايؤيد بالمحسوس فهو مرفوض عند هذا العقل لأنه يتقيد بالحواس الظاهرة وتتوقف معارفه عليها والروح التى تكبت نورها وتصرف همها على هذه الحواس الظاهرة . ولا تزال تبحث فيما يصل إليها من التخيلات والمعانى بهذه الحواس فقط حتى ترد إليها الأدلة الحسية تحدث فيها المعانى وأسباب السمو وتفقد المرونة العقلية . وكثيرا ما يقع الناس تحت طائلة هذا العقل عند انحرافهم عن الطريق السوى فيفقد العقل نوره وفيضه من الأسرار العلوية .

٢ — العقل المعنوى لا يقبل كل ما يلقيه الحسى حتى يطمئن إلى الحكم من حيث المعنى والمنطق والإحساس الباطن الذى يلهمه الحكم بالذوق فى حالتى القبض والبسط . وهذا العقل لا يميل إلى الالتذاذ بالماديات إلا فيما يقربه إلى الأعمال الخالدة والمعانى الجليلة ولا تَنطفئ شعلته إلا بارتكاب المعاصى والرضا بالزور والتدليس فيما يفاض عليه للأغراض الدنيئة وحب الظهور والزهو والغرور .

وكل من العقلين متمم للآخر ككفتى الميزان حتى لاتطغى الروح فى إنكار المحسوس وتتعطل معارفها من عالم المادة ، وحتى لاتطغى عليها المحسوسات فتفقد معارفها من المعنويات ؛ وحاجة الإنسان لاستعمال كلا العقلين كحاجة الروح للجسد والجسد للروح .

نتيجـــة

من هذا يتحقق الإنسان العاقل أنه لا يتمكن من نيل السعادة إلا إذا وهبه الله روحا صادقة الإلهام ، ووهبه فيضا مستمرا يشعل فيه مصباح الهداية إلى الطريق المستقيم ، وفتح روحه لتلقى النور من عالم الملائكة ، وأغلق سمعه عن عالم الشياطين ، واستعان بالله فى كل أوقاته يذكره فى كل نفس يتردد حتى تصبغ نفسه بصبغة الحق ، ويستمر صوت ضميره عذبا جليا كثير فيض النور الذى يدفعه إلى أسمى الفضائل وأنبل الأعمال وأرقى الهمم ، فلا يصدر إلا عن بِرّ ورحمة وإحسان ، ويبقى سليما من اللوثات التى تفقده صفاء العقل وموارد الإلهام ، وتؤدى به إلى خفوت جذوته ، أو إطفاء شعلته ، أو ضلاله بعد هدايته .

المواهب والاكتساب والفيض الإلهى

المواهب : إن الله سبحانه وتعالى هو مالك الملك عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، جلت حكمته العليا أن تدركها العقول والأفكار ، أو تتطاول إليها الأفئدة والأبصار ، إذ كلما تدرج البشر إلى فهم حكمة من الحكم وتذوقتها العقول كشف لهم عن حكمة أعلى ، فإن أدركتها عقولهم بهرتها ، فإذا ما سكنت تكشفت لها حكم أسمى وازدادت ترقيا ، ولا نهاية لهذا الترق فى فهم الحكم ، سبحان الله العلى الحكيم « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا »[١] .

وقد اقتضت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يخلق الخلق ليتمتع بمعرفة خالقه فخلق عالم الأمر وعالم الخلق « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »[٢] . وعالم الأمر هو عالم خلق الله له نور العقل ومنحه إرادة مستمدة من إرادته أودعهما سريرة الأرواح ، ثم خلق عالم المثال وخلق له عالم المادة يعمل فيه فتم أمره سبحانه وتعالى على جميع الصور والمظاهر « هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »[٣] .

وقد تم بناء العالم على ما أراد لا يتخلف ولن يتخلف ، قال الله سبحانه وتعالى : « قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ، ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ »[٤] .

---

(١) آية ٢٦٩ البقرة . (٢) آية ٥٤ الأعراف . (٣) آية ٢٤ الحشر .
(٤) آية ٩ — ١٢ فصلت .

وقد قسم الله الحظوظ والأرزاق ، وأعطى وزاد فى الإعطاء ، وحرم من شاء فيما شاء ، سبحانه وتعالى « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ »(١) . خلق روحا تفضل جميع الأرواح ثم أخرى دونها ، وتتفاوت هكذا حتى أدناها ، وهكذا يتفاوت الناس فى العقول وفى الأجسام وفى الجمال وفى القبح وفى كل العطايا والمنح ، ويتفاوت الخلق كله أنواعا وفصائل جماعات وأفرادا .

ومن الحكم التى تتراءى للعقول السليمة ؛ أنه لو تساوى الخلق فى العقول والجِرْمِ والمِنَحِ لصار الكون جامدا بل لنفدت المعانى التى تعيش بها العقول وتتغذى منها الألباب ، إذ النظر إلى المتجانس يكلّ منه البصر ويملّ منه العقل بل تسأم الحياةَ فى جموده الروحُ ، و بضدها تتميز الأشياء ، والكهرباء لا تسرى إلا من اتحاد السالب بالموجب ، والمعرفة لاتتم إلا من النفى والإثبات ، فإذا عرفت الله حقا أثبت ألوهيته وسبحت بحمده وغرقت فى بحار كماله التى لا تتناهى ووحدته لأنه الواحد القائم بنفسه ، والتجأت إليه وحده ، ونزهت بصيرتك أن تنظر لغيره حتى لا تخبو فى عالم مخلوق لا يضر ولا ينفع ولا قيام له إلا بخالقه كما قال أحد المتصوفة :

الله قل وذر الوجود وما حوى ... إن كنت مرتادا بلوغ كمال
فالكل دون الله إن حققته ... عدم على التفصيل والإجمال
من لاوجود لذاته من ذاته ... فوجوده لولاه عين محال

وكما قال لبيد :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

لذلك قال أهل الحقيقة : انطوت العلوم والمعارف جميعها تحت قول لا إله إلاالله ، ولولا تباين العطاء ما أحسّ أحد فضل الله عليه ولا تلذذ بما فضله به على غيره ، ولا طمع فى فضل أكبر منه ، بل لانقطع تطلع الخلق إلى الخالق وقلّ التجاؤهم وإنابتهم إليه وهو جلّ

(١) آية ٢٣ الأنبياء .

شأنه ، العلى الحكيم ، وهل يعرف الغنى من لم ير الفقر ؟ وهل يحمد الصحة من لم يذق طعم المرض ؟ .

لذلك فضل الله بعض أفراد النوع البشرى على غيرهم فى أصل الخلقة والتكوين فهذا أعطاه عقلا أكبر من عقل غيره وهذا روحا أقوى من روح غيره وهذا نورا أكبر من نور غيره وهكذا ؛ ولما بدا تقسيم الأرزاق الجسمانية وما تحتاج إليه من أقوات ومساكن ومنافع ، قسمها قسمة ثانية لاتتحكم فيها القسمة الأولى فقد يمنح منها صاحب العقل الفائض رزقا يسيرا والروح الكبرى جسما نحيلا ؛ وهناك قسمة ثالثة لا ترتبط بسابق القِسَمِ وهى تقدير الآجال إلى أوقاتها ، هذه أقسام مقسومة لجميع الخلق مؤمنهم وجاحدهم لا اعتبار فيها للايمان أو الجحود ، لأن الإيمان نوع من هذه الأرزاق المقسومة ، لاتتخلف منحة من هذه المنح بسبب الجحود أو الكفران أو الفجور أو الفساد ، فهى ميراث من الله إما أن يحفظه العبد ويزيده أو يضيعه أثناء الاكتساب « وَالَّذِينَ آمَنُوا واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِن شَيْءٍ »(١) . ولا يقضى على أحد حتى يستوفى رزقه وأيام تكليفه ، ويؤدى رسالته وينجح أو يسقط فى الامتحان ؛ وكما أن امتحان المهندسين فى علوم الهندسة والأطباء فى علوم الطب والحقوقيين فى التشريع وهكذا فإن الله خصص الخلق كل فى اختصاصه ؛ لذلك ترى أوراق الامتحان التى وزعت عليهم مختلفة الأسئلة والمُعوَّلُ على حسن الإجابة لاعلى نوع الامتحان ، ومعظم الناس يعنيهم نوع الامتحان حتى ولو سقطوا فيه وهذا هو الغباء بعينه ، لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ » . وقد يكون نوع الامتحان فى الصبر أو فى الأمانة والعفة أو فى حفظ الحدود أو فى غير ذلك عند الابتلاء بما يجعل المحافظة على واحدة منها صعبا شديدا على النفس .

وقد تكون ورقة الأسئلة مكتوبة فى الفقر والتعفف عن اللذات والحرمان من كثير الخيرات ، والجواب الذى يوجب النجاح هو الرضا والصبر على الحلال مهما ضاق ، وقد

---

(١) آية ٢١ الطور .

يكون السؤال فى الغنى والاقتصاد فيه و بذله لأحسن وجوهه وحسن التصرف فيما جعل الله العبد مستخلفاً فيه وحسن الإجابة فى الصبر على فتنة المال وعدم الغرور به وأداء حقه مع شكر النعمة والتواضع، وأ كثر أهل هذا الاختصاص يرسبون فى هذا الامتحان القاسى. قال الله سبحانه وتعالى « يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ . فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ . فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ . أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ »[1] .

وقد تكون الأسئلة فى حرمان نعمة من النعم مع زيادة المنة فى نعم أخرى كحرمان الأولاد مع الغنى وغيره، أو كثرة الأولاد مع قلة المال وسوء حالهم وزيادة عقوقهم وحسن الإجابة فى الرضا بالتقدير وخلوّ البال من الانشغال بالنقص؛ وقد تكون فى احتمال الأوضاع المتغايرة كالمشقة فى طلب الرزق مع وجود أهل الراحة فى كثرة من الخيرات والإجابة فى إحسان العمل وأن يعلم العبد أنه فى الحقيقة مستخدم فى مملكة الله و يعرف أن الأجر أجران : أجر فى الدنيا بالأسباب الظاهرة من أيدى الناس وهو غير عادل ؛ وأجر الآخرة الأجر العادل؛ وكذلك احتمال رئاســة الأدنى للأعلى كيوسف الصديق عند عزيز مصر، وشتان بين الاثنين حتى إذا ما ذهبا إلى الخافضة الرافعة رجع كل ذى أصل إلى أصله، قال الله تعالى : « قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ . وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ »[2] . وقد تكون الأسئلة فى الصحة والمرض وحسن الإجابة فى شكر الصحة واستنفادها فى العمل الصالح وترك المعاصى وفى الصبر على المرض وهكذا .

وبما أن الله جعل أرزاق النساء من أيدى آبائهن وبعولتهن جعل امتحانهن فى طاعتهم وفيما يلقى إلى آبائهن و بعولتهن من امتحان فإن صبرن على الطاعة وعلى لأواء المعيشة وحفظ

---

(١) آية ٥١ — ٥٦ المؤمنون . (٢) آية ٥٥ — ٥٧ يوسف .

فروجهن وتصرفهن فى أموالهم وتربية أولادهم بما يرضى الله « فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ »(١) وإذا أعانوهم على النجاح وتعاونّ معهم على البر كتب لهن أجرهن مرتين وفزن فى امتحانهن فوزا مبينا .

الاكتساب : والنجاح لا يكون فى هذا الامتحان إلا بالرضا عن الأسئلة والاجتهاد فى الإجابة مع العبودية وترك الاختيار ومجانبة الهوى والتزمت ؛ عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ رِضَاهُ بِمَا قَضَى اللهُ تَعَالَى ، وَمِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرْكُهُ اسْتِخَارَةَ اللهِ تَعَالَى ، وَمِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ سُخْطُهُ بِمَا قَضَى اللهُ تَعَالَى » أخرجه الترمذى .

لذلك وجب على المرء الصبر الفائق مع الجد والمثابرة واليقظة إلى حين انتهاء وقت الامتحان جعلنا الله من الناجحين فى هذا الامتحان ورفعنا بمنه وجوده أعلى الدرجات قال الله سبحانه وتعالى « وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهٰرُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيٰى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ . وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »(٢)

من هذا الذى قدمنا كله نعلم أن العطاء نوعان وهبى واكتسابى . فالوهبى سابق فى أصل الخليقة قبل ظهور الأعمال الاكتسابية ؛ فالعبقرية مثلا هى ذرة من النور منبثة من بدء الخلق فى لألاء جوهرة عقل الروح ، وهى موزعة على الأمم فى جميع العالم على مر الأزمنة لا تخلو منها أمة ولا يخلو منها زمان لأنها تنير لغيرها السبيل فيما خلقت له فى أى نوع من أنواع العمل والفنون ، فقد تظهر آثارها مرة فى فنون الطبيعة والكونيات ، ومرة

---

(١) آية ٣٤ النساء . (٢) آية ٨٣ — ٨٧ الأنعام .

فى المعانى والتخيلات ولا يشترط فى هذه الإيمان . وأخرى فى الإيمان والتقوى وهداية الخلق إلى جبار السموات والأرض ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « النَّاسُ تبعٌ لِقُرَيْشٍ فِي هَذَا الشَّأْنِ مُسْلِمُهُمْ تبعٌ لِمُسْلِمِهِمْ ، وكَافِرُهُمْ تبعٌ لِكَافِرِهِمْ ، النَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فقهُوا ، وتَجِدُونَ مِنْ خِيَارِ النَّاسِ أَشَدَّ النَّاسِ كَرَاهَةً لِهَذَا الشَّأْنِ حَتَّى يَقَعَ فِيهِ » أخرجه البخارى ومسلم رضى الله عنهما : أى أن قريشا فضلها الله على الناس فى بدء الخلق وفى المنح الأولى وأن من كفرة الناس من أعطوا عقلا عظيما ، فإما أن يستعملوه فى عناد الكفر أو فى الانقياد إلى صحيح الإيمان فانتفعوا وأفادوا غيرهم ، لذلك تتفاوت الأرواح قوة وعطاء وتتفاوت أيضا قوة من اكتسابها عند ظهورها فى هذا العالم ومباشرة شئونه ، ولا يزال الله يعطى منحا للعباد فيما يسألونه من فيضه اللانهائى السارى فى لطائف الأرواح وعناصر المادة ما يحير العقول ويدهش الألباب و يعطى أرباب الخير على قدر اجتهادهم ليزدادوا خيرا و إيمانا مع إيمانهم ، وأرباب الشر فيما يطلبون فتنة وعقابا إذ يتركهم للشيطان الذى أطاعوه ليزين لهم سوء أعمالهم ، قال الله سبحانه وتعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً . كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً . انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً »(١) .

فالله سبحانه وتعالى يعطى السائل مما يسأل ، فإن كان من أهل الإيمان المتوكلين عليه أعطاه من الخير وكف عنه الشر ، وإن كان من الجاحدين الطامعين فى الدنيا أعطاه ما هو بسبيله من غاية وطلب كلٌّ على وجهته من مطالب الدنيا أو مطالب الآخرة ، قال الله سبحانه وتعالى : « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ »(٢) فإن كان طالب علم فتح الله عليه فى علمه ، وإن كان مخترعا كشف له ، وإن كان طالب فنٍّ فتح عليه

(١) آية ١٨ — ٢١ الاسراء . (٢) آية ١٣٢ الأنعام .

فى فنه ، و إن كان طالب مال عجل له ما شاء لمن أراد . و إن كان طالب جاه وزعامة لغير وجهه تركه لأعوان الإثم يزينون له سوء عمله إلى يوم قدره وقضاه ، فى حكمة أرادها وقضاها إذ يخرج الخير من الشر والحى من الميت ، حتى إذا جاء ميقات القصاص العاجل أو الآجل أخذه أخذ عزيز مقتدر فى ذروة غروره على غرة منه ، قال الله تعالى : « لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »[1] وقال تعالى : « أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ »[2] .

وقاعدة النجاح و باب إجابة الطلب عند الله المثابرة والصبر والإحسان فى العمل ليكون السائل جاداً فى طلبه مشفوعا بأدلة الصدق فيه؛ قال الله سبحانه وتعالى : « إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا »[3] فى أى عمل تولاه العبد ولا يكون الإخفاق إلا عند التملل واليأس أو تنازع الرغبات فتفرق بالطالب السبل ، وقد ثبت أن المتخصصين فى أعمالهم أكثر الناس فتحا ونجاحا ، وأهل الأهواء الذين يتنقلون من عمل لآخر ولا يستقرون لايحسنون عملا ولا حافز لهم ، وهمتهم فاترة من عدم صبرهم حتى يستجيب الله لهم ويفتح لهم أبواب النجاح :

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

وكم جاء الصبر بأعظم النتائج ، وقد سمى الله نفسه بالصبور : أى الذى لايعجل ولاينسى ولابد للصبور أن يكون حكيما ، فأهل الصبر أهل الحكمة ؛ وقال الله سبحانه وتعالى: « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ »[4] لأن الله مع من يتصف بصفاته و يتخلق بأخلاقه؛ وقال سبحانه وتعالى « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ »[5] وكم تعجل قوم فى آخر المضمار فخرجوا من أعمالهم قبل لحظات من وصول بريد المكافأة ، وكم من الذين صبروا سُكِبَ عليهم العطاء فكبتَ قلوب الشامتين .

---

(١) آية ١٨٨ آل عمران . (٢) آية ٨ فاطر . (٣) آية ٣٠ الكهف .
(٤) آية ٤٦ الأنفال . (٥) آية ١٠ الزمر .

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ خَيْرٌ وأحبُّ إلى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ بِاللهِ ولاَ تَعْجَزْ، وإنْ أَصَابَكَ شَىْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّى فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وكَذَا، ولَـٰكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللهُ ومَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» أخرجه مسلم.

والصبر إما على الأعمال الدنيوية فيصيبون فيها الأجر العاجل فيما يطلبون، ومنه نرى نجاح الكفار وأهل الجحود فضلا عن أهل الإيمان لصبرهم على أعمالهم وعدم فتور همتهم وقوة جلادهم وعظيم جهادهم، فكم رأينا علماءهم لايصيبون نجاحا ولا يكافأون أجرا يناسب أقدارهم ولكنهم لايفترون، وكم تعثروا فى ظلمات البحث والدرس فلم يعترهم الملل والسأم، بل ظلوا دائبين فى غير يأس حتى يفاجئهم الله بالفتح فيلهمون أسباب الكشف والاختراع كسب الصدف جزاء وفاقا، لصبرهم وتفانيهم فى أعمالهم التى كرسوا أعمارهم لها، ولله فى ذلك حكمة جليلة إذ نجاحهم فى أعمالهم سعادة لآخرين، فجعلهم خداما لغيرهم من حيث لايشعرون وعجل لهم أجرهم فيما يشتهون، وحرمهم أجره الأكبر فى دار الكرامة الذى خصه بقوم صبروا ابتغاء وجهه الأعلى ممن آمنوا واحتملوا الأذى فى سبيله وصدقوا ما عاهدوا الله عليه وقاموا بأعمال الخير والبر وهداية الخلق إلى الصراط المستقيم، كما ظلوا حراسا أمناء على بناء الفضيلة وصرح الأخلاق السامية، فنالوا بذلك أعظم الأجر والمثوبة فى العاجل والآجل ورفعهم أعظم الدرجات قال تعالى: «وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً»(1)

الفيض الإلهى: والفيض الإلهى فيض عام وفيض خاص. أما العام فهو أنهار تجرى من أمر الله وتفيض لإمداد الخليقة بالحركة، والحياة تجرى فى مدارك الأرواح وهبات العقول وفى حياة الأجسام والحيوان والجماد وتسيل بغزارة وقوة، فهو حياة العالم وسرّ بقائه وكينونته وإبداع سننه، ونظامه يدل على حياة موجده وقيامه بشئونه؛ قال الله سبحانه وتعالى: «اللهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ

---

(1) آية ٢١ الاسراء.

مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ وسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ ولاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ »(١) وفيض خاص وهو الفيض الذى يجريه الله على العقول النيرة والألباب القابلة للفيض من النور الإلهى الذى تحيا به الأرواح وتتفكر فى آيات الصنع الجميل فتوحد البارى جل شأنه فتحيا حياة السمو والارتقاء بقدر استعدادها لتلقى هذا النور ومدى توفيقها فى طلبه والاهتداء إليه ؛ قال سبحانه وتعالى : « اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ والآصَالِ . رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ، لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ واللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ »(٢) .

ومن هذا الفيض ترتوى أرواح أهل الحقيقة فتظهر عليهم بركاته وتلمع فى عقولهم ومداركهم أسراره ويتميزون عن غيرهم من الناس بأنواع المنح والعطايا وأسباب الكرامة والتفضيل ، فأجسام الناس لا تتميز عن بعضها كثيرا ولكن قوة أرواحهم ومدى إيمانهم تتفاضل حتى يبلغ الواحد منهم درجة تفضل الآلاف من بنى جنسه ، لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَوْ وُزِنَ إِيمَانُ الْأُمَّةِ بِإِيمَانِ أَبِي بَكْرٍ لَرَجَحَ إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ » « واللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

وتقوى فى أرواح هؤلاء حواسها الباطنة حتى تدرك بنور البصيرة ما لا يدركه غيرهم فيكون لهم كشف عن الأسرار التى أخفاها الله عن غيرهم وقوة فى السمع والبصر وفراسة وإلهام فياض مما تسمعه الأرواح وتسمو به الخواطر ويسعف المنطق ، وسنتكلم عن هذه

---

(١) آية ٢٥٥ البقرة . (٢) آية ٣٥ — ٣٨ النور .

المواهب إلا أنى سأنقل هنا ما كتبه والدى (السيد عبد السلام الحلوانى) رحمه الله ورضى عنه فى كتابه السيرة الخليلية المطبوع فى سنة ١٣٣٩ هجرية قال : الكشف والسمع والبصر ؛ فالكشف نور فى القلب يدرك به الولى عين الشىء بقوة البصيرة فيطلعه الله على ما يشاء أن يطلعه عليه بحسب حاله ، وهو على ثلاثة أقسام : أولها قوة الخاطر وسرعة الفهم وتخيل الأشياء وتكرر ذلك مع صدق الخاطر فى كل مرة فيصير فى قوة الكشف وهو طوالع الكشف . وثانيها تمثل الأشياء الغيبية ومواقعها فى القلب فتدرك بالتحقيق عند وقوعها و يتكرر ذلك . وثالثها قوة الإدراك بقوة البصيرة فيقول باطلاع محقق يطلعه الله سبحانه وتعالى عليه متى شاء .

« والسمع والبصر : قوتان من قوة الكشف ودرجتان عظيمتان يهبهما الله سبحانه وتعالى للولى ، قال لى شيخى : إن الله سبحانه وتعالى يعطى الولىّ درجتى السمع والبصر فيرى الولى من هو فى أقصى الأرض و يسمع من يناديه كذلك .

« ولقد كان لى واقعة حال معه رضى الله عنه فى هذه المسألة فإنى فى بدء أمرى قبل المعاهدة سمعت منه ذلك وما كنت أدرى أن الولى يسمع و يبصر ، بل كنت أفهم أن ذلك عطاء يوحيه الله سبحانه وتعالى فى قلب من يريد من أوليائه فقلت له كيف ذلك؟ فقال يسمع الكلام فى القلب قبل أن يتقلقل ويبصره كأنه محسوس فاندهشت فى نفسى ونظرت إلى سيدى فى حال محادثته بحالة الاستغراب فنظر إلىّ نظرة شديدة رأيته فيها كالأسد الضارى بعينين براقتين لا أكاد أنظر إليه وكدت أهلك من هذه النظرة ولم أجد لى مجالا للقيام فسكتَ وسكتُّ أنا مذعنا، فهدأ روعى ولم يمكنى بعدها النظر إليه كما كنت أنظر إليه من قبل.

«أما تحقُّق الكشف والسمع والبصر فقد ورد بتأكيده الشرع الشريف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَقَدْ كَانَ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ نَاسٌ مُحَدَّثُونَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ وَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ » رواه أبو هريرة رضى الله عنه كما أخرجه البخارى ومسلم ، وقد ثبت عن سيدنا عمر رضى الله عنه فوق ذلك الكشف والسمع والبصر و إسماعه للغير ؛ فقد كان بالمدينة وجيشه (بنهاوند) و بينهما مسافة شهرين فرأى

العدوّ كامنا وراء الجبل ينظر مرور الجيش فنادى سيدنا سارية وكان أمير الجيش وقال له : يا سارية الجبل وهو على المنبر يخطب يوم الجمعة ، فسمع سيدنا سارية هذا النداء سماع المحقق وعلم أنه أمير المؤمنين ، فسار إلى الجبل وهناك رأى الأعداء فانتصر عليهم ولولا ذلك لهلك الجيش . وقد ساق جملة من الأدلة والأخبار فمن شاء المزيد فليطلع عليها، وقال رضى الله عنه :

الفراسة : هى نور يقذفه الله سبحانه وتعالى فى القلب بسبب إخلاصه فى محبته وسلوكه مقام الوصول فيهتدى إلى الحق ويميز به الظلمات من النور فيدرك بعقله مسارح الأرواح وتقلب القلوب مهما خَفِيت ، ولذلك حثَّ السادة الصوفية على ضرورة حفظ القلب مع السالكين خوف النظر بطريق استدلال الأرواح بنور الفراسة لخواطر القلوب فيحصل تغير فى التقابل فتتغير القلوب ويتكدر صفوها والله تعالى مع المتقين « إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ »[1] وقال سبحانه وتعالى فى حديث قدسى « أَنَا مَعَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ » وفى الأثر « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ » وفى الأثر أيضا « اتَّقُوا غَيْظَ الْقُلُوبِ » ثم إن الفراسة تتولد من السير فى مقامات السلوك فيتقلب القلب فى المجاهدات ومعرفة خطايا النفس فيشهد مثل أحواله فى غيره والمؤمن مرآة أخيه فيتفرسها .

والفراسة أيضا تهجم على القلب من نار الوجد والمحبة لله تعالى حتى تصير إلهاماً ، والفراسة أيضا ربما تكون من قوة الروح المتسلطة على العقل فتدرك بطريق التميز وقد يكون فى عامة الناس وليست هذه الأخيرة هى المقصودة من مواهب الأولياء ، ومنها :

الإلهام[2] : وهو عبارة عن وحى يوحيه الله تعالى فى القلب بنور المعرفة فيهتدى إلى

---

(١) آية ١٢٨ النحل .

(٢) قال العالم الجليل صاحب الفضيلة الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى رضى الله عنه فى كتابه [المطالب القدسية] ص ٦٦ بعد مقدمة ما نصه (وبالجملة فتفاوت النفوس فى ذلك وبلوغ بعضها حد الخارق فى الأعمال والمدارك تابع لاستعدادها الخاص وما يفاض عليها من واهب الصور وليست إفاضة المواهب على النفوس محدودة ولا إشراقات أنوارها على بعض أفراد نوع الانسان مرصودة بل لا تزال بمحض الفيض شاملة لسائر النفوس وإن اختص بالقسم الوافر منها أصحاب العزائم الصادقة وأهل حضرة القدوس ، ومنهم المحدثون كما ورد أن من أمتى المحدثين والمكلمين ومنهم عمر رضى الله عنه ، والمحدث الملهم وهو الذى يلقى فى نفسه الشىء فيخبر به حدسا وفراسة ، وهو نوع يخص به الله من يشاء من عباده كأنهم حدثوا بشىء فقالوه ومن هذا شأنه تكفيه إشارة الدلالة وأى دلالة :

يكفى اللبيب إشارة مرموزة ... وسواه يدعى بالنداء العالى

الصواب ويثمر علما لدنيا من علم الله تعالى ، والعلم اللدنى هو الذى لاواسطة فى حصوله بين الروح و بين الله سبحانه وتعالى بل يكون كالضوء من النور يفرغه الله سبحانه وتعالى على قلب صاف فارغ من الأغيار ومن هوى النفس ومن حب الدنيا ومن الأمراض التى تحجب العبد عن ربه فتنزل على قلب لطيف تشغله فيكون واسطة العبد بربه فلا ينطق إلا حقا ولا يقول إلا مايريده الله سبحانه وتعالى ، وقد قال شيخنا رضى الله عنه : لايأتى من الذكر غير الحق لأن القلب الصافى المشغول بالله يذكر الحق ولا يقول إلا حقا ، قال تعالى : « يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ »(١) إلى أن قال: قال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالى ما ملخصه : والوحى قد انقطع بانقطاع النبوة لأن باب الرسالة قد أغلق بعد تصحيح الحجة و إكمال الدين لهم على يد سيد المرسلين صلى الله وسلم عليه حيث قال الله تعالى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا »(٢) وليس من الحكمة إظهار زيادة الفائدة من غير حاجة بإرسال الرسل ، ولكن ضرورة النفوس وحاجاتها إلى تأكيد وتجديد وتذكير جعل الله باب الإلهام مفتوحا ومدد نور النبوة لاينقطع رحمة منه سبحانه وتعالى بالأمة حتى لاتستغرق النفوس فى الوساوس وتنهمك فى الشهوات وليظهر ينابيع الحكمة فى الروح وتأثير المؤثر عليها ولأجل النظر فى إبداع الصنع والتفكر فى مخلوقات الله سبحانه وتعالى ، ولو نظر الإنسان فى نفسه وأن قلبه مسيطر على حواسه وجوارحه يحركها كيف أراد لعلم أن لله سبحانه وتعالى فى خلقه شئونا يحركها كيف أراد وأنه هو المعطى وهو المدبر وهو اللطيف الخبير » اه . و إنى أعتقد أن الإلهام له أنواع شتى فى جميع الخليقة يعطى لكل حسب اجتهاده وطلبه من الله سبحانه وتعالى ، كما أنه يزداد وينقص ولا يثبت على حالة واحدة تبعا لصفاء الروح وقوة الإلهام ، فإن كان الوجد قويا والملك الرحمانى حاضرا اقتحم نور الإلهام حظيرة الفؤاد فطرد منها خواطر النفس وهواها وزلزل الشيطان نخنس بعيدا، فإن خف الوارد اختلط بالأحاديث الأخرى وخرج مزيجا وهو ما نراه ضعيفا من صور الإلهام . أما إلهام أهل الصفاء الكلى من رجال الحقيقة فى حالة التجلى الأكبر فهو من إمداد الحق فى نور الحقيقة ، وما دمنا قد وصلنا إلى هذه الحقيقة من أحوال الأرواح فى صفائها وترقيها ... فسنسوق هنا شعراً من كلام الملهمين .

---

(١) آية ٢٦٩ البقرة . (٢) آية ٣ المائدة .

فيض من الإلهام (١)

مناجاة

أسعى لخلاّق وأقصد وجهه ... وعن المسير إليه لن أتخلفا
يا مالكا روحى ومانحها الهدى ... أنظرْ إلىّ فأنت أكرم من عفا
إنْ قيلَ منْ؟ — قلتُ امرؤ فى ربه ... ساعٍ وهذا فى انتسابى قد كفى
لا والذى غمرَ العباد بفضله ... إنى بغير الله لن أتشرّفا

---

(١) هذا الشعر الإلهامى لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكامل التقى الصالح الشيخ (على عقل) إمام مسجد المواساة بالاسكندرية ، وهو أحد إخوانى فى طريق الحق ، ولد بسباط مركز طلخا من أعمال مديرية الغربية سنة ١٨٩٤ م . من عائلة عريقة بها ، وأصابه مرض كف منه بصره صغيرا وأدخل كتاب القرية لحفظ القرآن ثم رحل إلى مصر فتعلم القراءات ثم قفل راجعا إلى بلده . ولما كان فى سن السابعة عشرة من عمره رأى والدى فى زيارة أهل بلده ، فانجذب إليه ، ثم أخذ عنه العهد ودأب على الطاعة بجد واجتهاد خارق للعادة ففتح عليه ، ولما بلغ هذا الشأن أخذه والدى وسلمه لشيخه الجليل قطب عصره بالتحقيق، من رفعت له أعلام الولاية فى أهل الحقيقة سيدى وشيخى (الحاج محمد أبى خليل) بالزقازيق، فلازمه فى سياحاته التى كان يزور فيها تلاميذه وكان يحضر الليالى التى كان يحييها الإخوان احتفالا بمقدم الشيخ رضى الله عنه وينشد على مجالس الذكر أمام جميع الناس على اختلاف تعليمهم ومراتبهم الدنيوية والأخروية ارتجالا سريعاً فيض الخاطر وفور الوقت مما حير عقول الفصحاء والبلغاء والعلماء ، فقد كان الواحد منهم يطلب منه تخميس أو تشطير أى بيت فى وسط الجمع الحافل فيشطره أو يخمسه ، ويقول عليه قصيدة عصماء أمام المجتمع فورا لا يتلعثم ، وقد يتلعثم القارئ أو الحافظ ولكنه ينصب كالغيث فإذا ما تواجد زاد الفيض على قلبه وجنانه فقليلا ما يستطيع السمع لحاقه ، وقد كان بعض الحاضرين تأخذه هذه المعانى فيطرب قلبه لها، وقد رؤى الفيلسوف الحكيم المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى وأمثاله من أجلة العلماء والمستشارين وهم يتهللون طربا من عذوبة ما يلقيه من المعانى وحلاوة الفيض ، واستمر فضيلته ملازما لشيخنا إلى سنة ١٩٢٠ حيث انتقل شيخنا إلى دار الكرامة ثم لازم بعد ذلك أستاذه المغفور له والدى بالصحبة الصادقة والأدب الجم والوفاء النادر ، وظل ملازما له إلى أن انتقل والدى رضى الله عنه إلى دار الكرامة فى سنة ١٩٤٤ .
ولا زال رضى الله عنه يحفظ الود معنا ومع الإخوان ويوالى الجميع بفضله أطال الله فى عمره ؛ ومن يوم أن عرفته لم أره ينام من العصر إلى الفجر ، ولا يضع جنبه الأرض للراحة مهما كانت الأحوال ، ولو كان على سفر ، وكم يطوى فى السهر والسفر أياما بلياليها ، وتراه وهو على هذه الحال من المواهب الالهية متواضعا جم الأدب ذليلا فى نفسه ، وله من بارئه صوت جميل ويقرأ قرآنا عظيما فى عذوبة وكمال أداء ، ولكنه لا يبيعه بيع القراء متعففا زاهدا فى الدنيا ، لم يجمع شيئا من المال ، يحب أن يكون فقيرا مستورا ، مع أن الوافدين لزيارته من جميع الأقاليم ومن جميع الطبقات يكلفونه مالا ووقتا ولكنه مبارك فى جميع أحواله =

احفظ مقام الناس واترك عرضهم

ما كلّ مَنْ دخل الطريق أخو هدى　　أوْ كلّ مَنْ صَبّ المُدامةَ ساقى
كَمْ عالمٍ فى نفســه مَرَضُ الْعُلاَ　　لَمْ ينتفع بمكارم الأخـــلاق
الصدق والإخلاص أسباب الهدى　　يا مُدّعى التقوى بلا استحقاق
أُحفظ مقام الناس واترك عرضهم　　حتى تنال مَوَاهب الخلاّق
أنا لى من القرآن خَيْرُ مُعَلِّمٍ　　وَمِنَ الحــديث مَنَابعى ومَذَاق

نحييكمو يا آل بيت محمد

لــكم فى فؤادى قُوَّةٌ لا يحدُّها　　بيانٌ ولم يَحْصُرْ عبارتَها الشِّعْرُ
وللرُّوح منكم مَسْرَحٌ لا تحوطه　　سماءٌ ولم يَبْلُغْ لوامعَــه البــدر
وللقلب رَوْضٌ فى المحبَّــة ناشر　　على الـكون أكماماً يُصَانُ بها الزَّهْرْ
فإنْ أتنفَّسْ بالغرام فإنما　　على نسماتِ الأنْس قد غرَّد الطير

= صفة أهل الدين الحق ، وأهل الـكرامة عند الله ، زاده الله فتحا وقربا وعطاء ، وجمعنا على الهدى دواما حتى نصل مع إخواننا جميعا إلى دار الـكرامة سالمين « لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب » .

ولـكن لايؤسفنى شىء أكثر من أسفى على ضياع ما أنشده فضيلته دون إثبات ، فهو ثروة العصر الحاضر فى الأدب الصوفى التى لايتطاول إليها كثير من العصور ، وقد فطن إلى ذلك أخيراً الأستاذ حسن بك كامل الملطاوى أحد إخواننا فـكان يجلس مستمعا إليه ثم يسرع فى كتابة ما يمكن إثباته من أناشيده لأنه فى إنشاده كالنهر المنهمر ، ولا بد للذى يريد تسجيل ما يقول من الاستعانة بأكثر من واحد ممن يستعملون الاختزال فـكل ما أمكنه أن يثبته قليل مما كل لديه من أبيات بعض القصائد الطوال لأنه إذا وفق لـكتابة مصرع بيت قد يفوته المصرع الثانى ، وأخيرا ساعده الأخ المحترم أحمد أفندى كامل عبود حسن ونجله المهذب محمد كمال الدين أفندى من أعيان كفر طهرمس جيزة والأستاذ بكرى أفندى حامد الموظف بالبريد وراجعهم حضرة الأخ الأستاذ ذو الفقار مهران وشقيق الأستاذ محمد زكى عبد السلام الحلوانى وكتبوا سماعا منه ماااستطاعوا إثباته من قصائده التى أثبت شيئاً منها فى هذا الباب على سبيل المثال ، وإنى أرجو من الله أن نوفق لطبع كل ما جمعوه ، فقد بلغ فى وقت قصير حجم ديوان كبير ، جزاهم الله عن إخوانهم وعن المسلمين خير الجزاء وبارك فيهم جميعا .

وإنَّ الْهَوَى يَحْلُو لروحى انْتِشاقُهُ إذا بِتُّ يحلو لى مع السَّحَرِ السَّحْر
نحيّيكُمُ يا آل بَيْتِ مُحَمَّدٍ تحيَّاتِ مشتاقٍ يضيق به الصبر
فأنتم مُنَى الدنيا وزَهْرَةُ أهلها وأنتم رضا الأخرى وأمركم الأمر
أَحِنُّ إليكم والحنان يهزّنى كطير سما فى الجوّ بلّله القطر
أحنُّ إليكم واللقاء سعادة ويَوْمَ لِقاكم عندنا العيد والنصر

أرواحنا متناسقات

الحلمُ زينةُ مَنْ تَأَدَّبْ والصبر قُوَّةُ مَنْ تَهذَّبْ
والعفْوُ سَيْفُ القادرينَ يُصِيبُ مَنْ فِي الحقِّ أَذْنَبْ
والصدق ميزانُ الرجال وإنه الذَّهَبُ المُشَذَّبْ
والحبُّ مَرْتَبَةُ الحياء فما تَعَشَّقَ مَنْ تَشَبَّبْ
إنَّ المحبة فى الحياء مع الوقار بها نُهَذَّبْ
فاحفظْ عَلَيْكَ وقار قَلْبك إنه الذُّخْرُ المُحَبَّبُ
وانهضْ على علم وسِرْ بالصدق حَتَّى لا تُكَذَّبْ
الحبّ إن زار القلوبَ فإنَّهُ نارٌ تَلَهَّبْ
الحبُّ حُلْوٌ ذَوْقُهُ وسبيله مُرٌّ وأَصْعَبْ
فاعشق بصدق واجتهد إنْ رُمْتَ بالتقوى تقرَّبْ
هذا لسان الروح يَنْطِقِ بالْهُدَى قَصْدًا ومأْرَبْ
والنور فى الأرواح مِثْلَ الكهرباء لِمَنْ تُصَوَّبْ
يُدْنِي البعيد ويَجْعَلُ النَّجْمَ المُحَلِّقَ مِنْكَ أَقْرَبْ
أرواحنا متناسقات وهى للرحمن تُنْسَبْ
قالوا بأنَّكَ لم تكن فيما تُقَرِّرُه منسَّبْ

فأجبتهم أنا نسبتى عبدٌ على الأبواب أُحْسَبْ
لا تحسبونى إن أقل (أنا) قد أضلُّ هوى وأُحْجَبْ
أنا عارف قدرى ومن عرف الحقيقة ما تحجَّبْ
ولقد شهدتُ من اليقين موارد الإيمان تكتب
قلبى يناجى ربَّه وعلى موارده تأدّبْ
لم أنْسه أوْ أنْثَنِى عنه وروحى فيه تجذب
لى لذّة فى ذلّ قلْبى وهْو عنه ما تقلّبْ
إنى على أعتابكم لم أرْض غير الحبّ مَشْرَبْ
وأدلّتى أنى ضعيف والضعيف عليك يُحْسَبْ
ما كنت فى الشعراء بالمعْرُوف فيمن قد تَصَبَّبْ
أرضى الخيال ولَسْت أرضى غيَّه غرضاً ومطْلبْ
أنشدته للسامعين هدى من الإيمان تُسْكَبْ
لا أعتنى بزخارف الأقوال أوْ ما كان أكْذَبْ
بل كلّ قولى فى مواهبه الزكيَّة وهى أصْوَبْ
لَسْتُ الذى جهل المبالغةَ التى بالشعر أنسَبْ
نطقت بلاغتنا بأنْنَا فى سنا الرحمن نرغب
فبذكره يسمو خيال الشعر فينا وهْو أعْذَبْ
إنى امرؤ درس الأمور ولم يَفُتْهُ ما تصوّبْ
كتبوا عَلَىَّ وكَتَّبُونِىَ قُلْتُ لَسْتُ أُحِبُّ أكْتُبْ
حُرِّيَتى رِقٌّ لكم فَهِىَ المقامُ وذاك أقْرَبْ
أنا صابرٌ إلاّ على بعدى فما للصبر مَرْكَبْ
أرْضى العذاب مع الوصول فلا نعيمَ لِمَنْ تهرَّبْ
قولوا قبلناكم فهذا فى الحياة الخلد يُكْتَبْ

العين تبكى

للنفس من مَعْنى اليقين هيام ... منه يكون الصدق والإلهام
والقلب إنْ عَرَف المهيمن موقنا ... بجلاله لم تُغْرِه الأحلام
والروح إن هِيَ شاهدت خلاّقها ... تم اليقين لها والاستسلام
والعبد إن ترك الورى من قلبه ... لم تستطع تغييره الأيام
والنفس ما دامت تحنّ إلى اللقا ... لم تُثْنِها عن قَصْدها الأوهام
أرواحنا معروفة من يومها ... ميثاقها الإيمان والإسلام
والعين تبكى خيفةً مِنْ بُعْدِها ... والقلب من خوف البعاد ضرام
فلئن صمتُّ فمؤمن ولئن نطقتُ فعارِفٌ ولى الشهود مقام
إنّ المعانى للنفوس مَرَاهِمٌ ... يدرى دواها الصائم القوّام

أرضى به

القلب من قوة الإيمان مشهده ... وفى بحار التجلّى طاب مورده
ألوذ بالله لا أبغى به بدلا ... ومن يَلُذْ بجلال الله يُسْعِدُه
وإنّ لى بحبيبى وصلة وهدى ... وصادق القلب لاينفكّ يشهده
أرضى به وهو يرضينى ويغمرنى ... بفضله وبهذا العلم أعبده
خَلَصْتُ نفسى له من كلّ شائبة ... إنْ عشْتُ أو مُتُّ أعضائى توحّده
وكيف أرضى بغير الله متجها ... والكلّ والجزء والأحشاء تحمده

نحكى بالعلم

قد شربنا من حبه فسكرنا ... وعَرَفْنَا مِنْ أيْنَ نأتى الجوارا
ودخلنا حيّ الكرام لنروى ... بيقين الهدى وكُنّا حيارى

فترانا من حيث نشرب فى الكأ س سُكارى ولم نكن بسُكارى
نحن نحكى بالعلم فى كل نادٍ قد جعلنا التقى علينا إزارا
فقلوب مثلُ الكواكب فينا تظهر النور فهو لا يتوارى

ذليل على الأبواب

هواك لروحى خير ما أتوقَّعُ وإنى على الأعتاب لا أتزعزع
وكم دفعتنى فى الحياة كوارث ولكن بفضل الله ما كنت أُدْفَعُ
بلوْتُ زمانى واختبرت رجالَه فلم أر غير الله فى الخطب ينفع
تركت جميع الخلق لله وحده وعدْتُ له فردا وبالفرد أُجْمَعُ
إذا رجعوا يوما إلى الأصل لم يكن بقلبى سوى اسم الله أصل ومرجِع
وإن رتعوا فى المال رتعة جاهل فلى ذكر خلّاق متاع ومرتع
ومهما سما حبى فإنى مُقصّر وليس سوى التقصير فى القلب أوجع
ضعيف أتيت الله أستمطر الرضا فعُدْتُ وروحى فى السموات تلمع
ذليل على الأبواب باكٍ وخاشع ولكن لغير الله ما أنا أخشع
وزنت حيانى لا تساوى نقيرها ولكنَّ فضل الله أزكى وأوسع
فما سرنى صبح ولا ساءنى دُجًى إذا لم أزلْ فى حضرة الله أُرْفَعِ
ألم تر أن العبد لو يسأل السوى أضاع هداه العمر بل هو أضيع
فكيف بنا لا نجعل الله وردنا وأرواحنا فى حبه تتجمع

نفثات الغـــرام

لم يَفُتنى من المحبة مَعْنى إنما كُنتُ بالحقيقة مُعْنى
وحبيبى أراه سِرًّا وجهراً هو فى الفرد والجماعة مَعْنا[1]

(١) بفتح العين وسكنت للشعر .

لم أذقْ خمرةً تثيرُ ولكن ... كل جسمى ذوق إذا هو غنىّ
نفثات الغرام تُشْعل قلبى ... من جلالٍ فيه أحيا وأفنى
إنْ أكنْ فى الورى فقيرا فإنى ... أنا أغنى بمن أحبُّ وأقْنى
نحنُ نرتاد كلّ صَرْحٍ فنرقى ... بمراقى اليقين حسًّا ومعنى
ونديرُ الهوى على كلّ وادٍ ... بجمال الحبيب حيث سعِدْنا
عودونى الهوى وقالوا تحمّلْ ... ذقْ ولو كنت بالتصبّر تَفْنَى
فتحملته وما ضقت ذرعا ... كيف والحبّ للمحبّين أهْنا

ساعة تمرّ

إن قلبى لمن أُحبُّ مَقَام ... وبه دائما يطيب المُقَام
وهواه شأنى ومرتع روحى ... وحماه هو المنى والمرام
أنا فى حبّه أسُودُ حياتى ... والرضا باسمه علىّ وسام
وعلامات حبّه أن أراه ... وإذا ما رأيته لا أنام
شرْعُنا أنّ من يحب ويهوى ... فمنام الدجى عليه حرام
أيها العاشق المهيأ لِلُقْيا ... تصبّرْ فالصبر فيه السلام
فحياة العباد لم نلْقَ فيها ... لدوام هل كان مَن قبل داموا
إنها ساعة تمرّ وتمضى ... والبقا يوم أنْ يكون الزحام
إنما ذمُّنا الحياة لما فيـ ... ـها من المَيْنِ لم يسدْها سَلَام
لا تسبُّوا الدُّنيا على كلّ حالٍ ... هِىَ جِسْر يمُرُّ منهُ الكرام
إنْ زرعتم خيرا بها ونجحتم ... قد حصدتم خيرا هناك يُقام
اتركوها وشأنها وتعالَوْا ... نتهادَنْ فلا يكون خصام
واذكروا أنّ للنبىّ علينا ... أكبرَ الفضل فهْو نعم الإمام
منع الشِّرْكَ بالكتاب الذى ... فى نوره حكمة لنا واحتكام

حبـذا نوره وأنعم بذا النو ر ففيه قد طاب لى الإنعام

يا كراما لجأتُ ضعفاً إليكم راجيا أن يكون لى إكرام

نحن يا آل أحمـدٍ قد نهلنا وردكم وهو للنفوس زمام

نحن منكم بكم عليكم إليكم ولديكم وفى يديكم قيام

انظروا لى بعين رفق ولطف ما على مَنْ نظرتمو آثام

واكتبونىَ ملكَ اليمين رقيقاً ما على مَنْ ملكتمو إيلام

يا بْنَ بنت النبىِّ قد جئتُ مُحيا كَ مَشُوقاً تَسُوقنى الأحْلام

فإذا ما عطفْتَ فضـلا علينا سَعِدَتْ عندَ عطفك الأفهام

وإذا ما مَدَدْتَ كفَّكَ جودا نهلَتْ من عطائك الأقوام

وإذا ما رَضيتَ عنّا جميعاً عمَّنا العزّ والمنى والهيام

وأنشدوا له قول الشاعر :

المصطفى ما زال يعلو قدره حتى غدا فى الـكون مسكا عاطراً

فأنشـد :

المصطفى ما زال يعلو قدره فسما الزمانَ أوائلا وأواخرا

طهرْ فؤادكَ من شوائب غيّه حتّى تقابله فؤاداً طاهرا

يا سيّدى ولقد غدوتُ مناجياً عُمْرى وبِتُّ مع الجلال مسامرا

كَمْ مِنْ صغير جاء حيّك تائباً أضحى يَسُودُ من الرجال أكابرا

والله ما طرأ العناء وساءنى إلاّ وأذكره أفصبِحُ ظافرا

فإذا نهلْتُ نهلْتُ من نور الهدى وإذا سَكِرْتُ سكرْتُ علماً زاخرا

وإذا غفوْتُ غفوْتُ صبًّا مغرما وإذا أفقْتُ رأيته لى ناظرا

وإذا خشيت من العدوّ وكيده كان النبىّ هو الملاذ الناصرا

عودتنا منك الجميل فهبْ لنا منك الوصول ولا تردّ الزائرا

أنا إن أكُنْ جسما بعيدا إنما ... روحى من النّجوى تفيض سرائرا
أرْسلتُها بفم النّسيم شهيدة ... وتزِفّ باسمكمُ السلام العاطرا
فلكم فقير عزّ باسمك جاهه ... أمسى يساجل فى الملوك قياصرا
ولكم ذليل ناله من جاهكم ... قَدْرٌ فأصبح بالمذلة قاهرا
ولكم عَيِيّ قد نظرتَ لروحه ... فروَى المعارف ناثرا أو شاعرا
قوْلى هُوَ الحقّ الصّريح فلَمْ أكن ... أرجو بمدحك أن أسُودَ مظاهرا
لم أنس حبّك ماحييت وإنْ أمت ... أجد الغرام علىّ مُدّ منابرا
إن كنتُ صبًّا أكتم الوجدان فى ... قلبى يظنونى بحبك فاترا
أنا هائم ومن المحبة هائج ... كالريح قَدْ أزْجَى السحابَ الماطرا
فأصبّ فى الإحساس من مهج الورى ... حكمًا تقلّبها القلوب مزاهرا
يا هــذه الأيام إنى ليس لى ... إلاّ رسولُ الله سرًّا ظاهرا
أنا كلّ شىء فى الحياة تركتهُ ... ووقفْتُ نفسى للنبىّ مثابرا
والوقف لايشرى وليس يباع فى ... حالٍ يدوم إلى القيامة حاضرا
أنا باسمكم وإلى اسمكم ولوسمكم ... فى رسمكم قلبى على الشِّعْرَى سرى
لم أنس أيام الطفولة حيثما ... كنْتَ المؤمَّلَ لى وكُنْتُ الظافرا
ما زال حبك باقيا فى مهجتى ... يُضْفى علىّ من اليقين سرائرا
ولقد غسلتُ بواطنى وظواهرى ... فى حبّه حتى نُسِبْتُ الطاهرا
نور النبىّ إذا تمكّنَ من فتى ... لم يُبْق فيه صغائرا وكبائرا
نور النبىّ إذا تمكّنَ من فتى ... ألفيته بين البريّة ظاهرا
فإذا رزقتُ محبّة فبفضله ... وإذا كسبتُ فقد كسبتُ جواهرا
قلْ لى عليك صلاتنا وسلامنا ... حتى أعود على المحبّة شاكرا
أرضيتنى كرما وصاحبنى الرضا ... حتى وصلتُ فلَسْتُ أسْلكُ حائرا
ما زال فضلك فى البرية سائرا ... يسمو ويزكو بالنفوس ضمائرا
ولكم أراه فى العوالم صاعدا ... حتى غدا فى الكون مسكا عاطرا

وأنشد على قول لبيد بن ربيعة :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل   وكلّ نعيم لا محالة زائل

ألا كل شىء ما خلا الله باطل   وكلُّ فؤاد لم يُوَحِّدْه عاطل
أرى الرَّوْضَ مزدانا وقداخضرّ عوده   ولكنه فى آخر العهد ذابل
أرى القصر مبنيًّا ويشمخ عاليا   ولكنه إن أعقبَ الدهرُ زائل
وكم ملِكٍ تهتزّ منه فرائص   ومن لحمه دود المقابر آكل
وإنّ حياة تنتهى بفنائها   عَلامَ إذنْ فيها البقاء نحاول
وإنّ الذى يدعو إليها وينتمى   ألاَ إنه بين البريّة هازل
فمَنْ ينتهى بالموت ليس له عُلاً   محاسنه عند الممات رذائل
وإنّكَ لَوْ فكَّرْتَ فى الموت ساعةً   ترَى عنده أنّ الحْيَاةَ مهَازل
أنَفْرَحُ فيها وهْىَ للموت مُرتقًى   ونَحْزَنُ فيها والجميع روَاحل
فما العزّ أرضانى ولا الحزن ساءنى   إذا أنا بالبارى المهيمن واصل
أسلمُهُ نفسى فلم أر غيره   لروحى غذاء إن دهتنى الغوائل
ولولا الرضا ما كنتُ والله قائما   على العَيْشِ فى الدنيا وقلبىَ خامل
أنا الصبُّ صبّ الدمعَ فى حب ربّه   ومشكاته الإيمان والعفو نائل
ألا فى سبيل الحبّ لم أرْضَ غيره   وما أنا إلا حيثما الشرع ناهل
أصونُ ودادى أن يدنّسه الهوى   وأحفظ عهدى العمر ما أنا غافل
حوَالىّ فضل الله من كلّ جانب   عزيز غزير جاره اليوم واصل
حوالىّ إيناس من الله وحده   وما لعبتْ يوما بعقلى الشواغل
حوالىّ نور المصطفى وأنا به   أموتُ وأحيا إنه لى مناهل
حوالىّ نَجْمُ العلْمِ يَسْكُنُ جبْهَتى   أُسَالِمُ أيّامى وما أنا جاهل
حوالىّ إشراق من الشرع ثابت   وشمس التجلى ما عليها حوائل

فقولوا لمن لم يجعل العيش خَلْفَه رُوَيْدَكَ إنّ الكلّ بالموت راحل
رُوَيْدكَ ما باقٍ على العيش ناعِمٌ وكل نعيم لا محــالة زائل

الناس لايدرون

طَابَ النُّهَى وازْدَانَتِ الآثار وحَلاَ الْغَرَامُ وفاضت الأسرار
إن يذكر الرحمن فى دار امرئٍ حلَّ الهناء بها ونِعْمَ الدار
والليـل بين سـواده وسكونه بالذكر تَكْشِفُ سِتْرَه الأنوار
لا تسأموا من حبّه لا تسأموا من ذكره فهنا العطاء يُدَار
قوْمى اطمئنوا فى الحياة بربكم فبذكره تتنعّمُ الأبرار
إن تنصروا الرحمن ينصركم وما خابت رجال هم له أنصار
والأرض إن تُرْوى بماء صالح نبتت به فى الروضـة الأشجار
والزرعُ إنْ تَعَهَّدْه حين صلاحه أكمامه عبقت بها الأزهار
والقلب روض واليقين ثماره فإذا اعتززْتَ به تطيب ثمار
دنياكَ مرتبة الغرور فكن على حذرٍ ولا تلعبْ بكَ الأشرار
كم مِنْ جهُولٍ ظنه فى جنةٍ وعلى جوانحـه تدور النار
عَمَلٌ بلا علمٍ رجاءٌ ضائع والعــلم لا تعمل به لك عار
علم بلا عمل زهور عُطِّلَتْ كالروض قد جفّتْ به الأثمار
هــذا لهذا لازم هذا بهــذا قائم فلتسـعد الأخيار
وابنُ الطريق بغير علمٍ غافلٌ إنَّ الطريقة كلهــا أسرار
قد ضلّ من ترك السلاح وراءه إن السـلاح به الجهاد يدار
فإذا خلوت من السلاح فأنتَ مِنْ نَهْب العدوّ وما تضمّك دار
اصبر تفز واذكر تحز واعرف تَلُذ واسلم بقلبك إنه غفّار

فإذا سألتَ حَبَاكَ من آلائه ... ربٌّ العباد المنعمُ الستار
واحذر تقل (أنا) قبل موتك إنه ... مَنْ قالها فى عُرفنا كفّار
ودع العباد وشأنهم لإلهم ... إذ ما عليك من الورى أوْزار
الناس لا يدرون خاتمة المطا ... ف فَرُبَّ ذى شعَثٍ له إيثار
ليس التصوف بالظواهر إنما ... هو للبواطن حُلّةٌ وشعَار
كم ضاحك لكنه فى محنةٍ ... كم خائف لكنه مختَار
من أدركوا عشقوا ومن ذاقوا ارْتوَوْا ... إنّ المحبة كلها أسرار

وشرابى حبّ حضرته

أنا صبٌّ ثابت القَدم ... مُستَهام القلب من قِدَم
يجتلينى الحب فى سهرى ... ونجوم الليل من خَدَمى
أملى فى الله يقبلنى ... فسوى الرحمن لم أرُمِ
لم يُثِرْنى الناس فى كَلِمٍ ... إنما الله مدى كلمى
إنْ أرادونى لمدح فتى ... لم تفه بالمدح بنت فمى
وإذا ما رمت أذكره ... فاض منى سائل العرم
لَسْتُ هجّاءً لأى فتى ... إننى عن كل ذاك عمى
وشرابى حبّ حضرته ... فهو مأمولى ومغتنمى
عزتى بالله واصلتى ... وقوى الإيمان مُعْتصَمى
إنّ قلبى فى محبته ... قلب صبٍّ غير منْفَصِمِ
عصمة للروح أعرفها ... هُوَ عندى أصْدَقُ العِصَمِ
أنا من حبى لحضرته ... لم أُفِقْ من لذة النغم
أنا من شوقى لحضرته ... تاركٌ للناس كلهم

ليس يغنيني سواه هوى ۞ وهواه منتهى هممى
لم أزل فى حىّ حضرته ۞ مرتعا للعلم والحكم
وفؤادى من هدايته ۞ يرتوى من مورد الكرم
إنما روحى بحكمته ۞ نَعَّبَتْ من حوضه الشَّبِم
ولقد شاهدتُ رحمته ۞ وهى تَهديني هدى الشَّيَم
وبقلبى من مَحَبّته ۞ همّة من أعظم الهمم
أيها الباكى وكل فتى ۞ ذاق طعم الحب لم ينم
مَنْ يَذُقْ ذوق ويدركه ۞ ويرى مابى فلا يلم
هاجنى وجدى وبى حرق ۞ لم تكن من شدة الضَّرم
بل هى الأنوار يقذفها ۞ فَسَرَتْ فى مهجتى ودمى

وإنى فتى لم يدخل الغير قلبه

فؤادى إلى نور النبى يسير ۞ وذنبى فى عفو الإله يسير
وإنى فتى لم يُدْخِل الغَيْرُ قلبَه ۞ ولكننى فى العاشقين غيور
أمتع روحى بالكريم وحبه ۞ ولا شك أنى للإله أسير
ولم ألتفت إلا إليه وذكره ۞ وهذا فؤادى فى الغرام يسير
فلا تحسبونى قد تركت محبتى ۞ فقلبى فى نجوى اليقين يدور
وإن أذّكر ذنبى وعظم بليتى ۞ وما ضاع من عمرى أكاد أمور
ومن لم يعظم ربه فى مسيره ۞ فليس له فى السالكين نصير
ومن لم يعلم روحه حب ربه ۞ فليس له بين القلوب مصير
فلا تجعلوا الدنيا مرادا ومطلبا ۞ فما كل من خاض الطريق يسير

وسارع للتقى

هى الدنيا يسيّرها القضاء ... وليس لأمرنا فيها اقتضاء
ولو أنّ الأمورَ كما أردنا ... وحقك أُسكنت منا السماء
إذا ما رمتَ للمولى تجرّدْ ... عن الدنيا يتمُّ لك الصفاء
ألا لا تدّعى ما لست تدرى ... فكم علمٍ يضيّعه ادّعاء
وسارع للتقى أبدا بجدّ ... فإنّ الجدّ يعقبه الرّخاء
فما الدنيا تدوم على محبّ ... ولا عيش يلازمه هناء
فكم فيها ترى رجلا ثريًّا ... وعند الموت ليس له ثراء
غذاء الجسم من ماء وخبز ... وأمّا النفس فالنور الغذاء
إذا حكم الإله بأىّ شىء ... جرَتْ أحكامه وله القضاء

طلب إليه أن يقول على البيت الآتى :

اللهَ قل وذر الوجودَ وما حوى ... إن كنت مرتاداً بلوغ كمال

اللهَ قُلْ وَذَرِ الْوُجُودَ وما حوَى ... مُتأدِّبًا فى ساحَةِ الإجْلَالِ
سلِّمْ لتَسْلَمَ مِنْ حَياتِكَ إنَّهُ ... مَنْ أَسْلم التَّقْوى سَمَا بِظِلَالِ
واجْعَلْ لنفسك من قضا الله الرضا ... حتى تكون مُوَفَّقَ الأعْمالِ
فَتَّشْتُ كلَّ الخَلْقِ عَنْ عِلمٍ فَلَمْ ... أرَ لى سوى رَبِّ السَّمَا مِنْ وَالِى
فَتَرَكْتُ كلَّ العالمين وجئته ... وَجَعَلْتُ ذكرى ذاته مِنْوَالى
حَسْبُ المحبِّ مِنَ المحبَّةِ أنَّهُ ... يُهْدَى بها للخالق الفعَّال
إنْ كُنْتَ تحْسَبُ أنَّ فى المال الغنى ... أنا قد جعَلْتُ رضا المهيمن مالى
أنا إنْ أكُنْ أجنى الذنوب فإنما ... رُوحى ارتمت فى بحره الغسَّال

مدُّ اليدينِ إليكَ أفضلُ شرعةً ولغيرِ وجهكَ لايصحُّ سؤالى
أنا عند ظنى فيك أنكَ مُكرمى معَ ذلّتى ولجاجتى وجدالى
فاجعلْ هُداكَ شريعتى وذريعتى واجعلْ شهودكَ لى مسرّةَ حالى
يارب قلبى قدْ غسلتُ من الورى إذ ليسَ غيرُكَ ما ذكرتُ ببالى
هيّجتنى بالحبّ ثمّ ملأتنى بالنور والتقوى وفيض كمال
رُوحُ الهدى روحى وريحان الرضا راحى وقلبى صادقُ التسآل
بالحبّ كنتُ ولا أزال فإن أمتْ لمْ تأتزرْ رُوحى بثوب زوال
إنْ مرّ بى عصف الزمان وقصفُهُ والله لستُ بما شهدتُ أبالى
أأحبّه وأخاف سطوةَ غيره هـذا وحقّكَ لاتعيه خصالى
روضُ المحبّةِ قد شهدتُ جلاله وجمـاله فثبتُّ فى أحوالى
والقول لايغنى بلا قلب فإن تنطق فكنْ بالناطق المفضال
يا نفسِ إنى لا أمالىءُ غيره قُومى إلى حوضِ الكريم تعالى
اللهُ قرّبنى إليـه بذاته لم يرضَ لِى فى الحبّ أىّ تعالى
إنّ الذى فهم المحبّةَ قلبُهُ فى القدْر من بين البرية عال
إنّ الذى فهم المحبّة قلبـه لم يتجهْ يوماً لآل زوال
سلم لربكَ أمرَه واتركْ له أقدارَهُ واحذَر من الأقوال
وذر العباد وشأنهم وفعالهم إن كنتَ مرتاداً بلوغَ كمال

إن الطريق هى الذكر الكثير

الناس إن تبعوا الدنيا بما عرفوا من غير تقوى تراهم فى الضلال عموا
وإن هم جعلوا الشرع الشريف لهم روحا تراهم بنور الشرع قد فهموا
لا تجعلوا غيكم فى نفسكم أربا فالنفس خصم ومن شيطانها حكمُ
إن الطريق هى الذكر الكثير فلذ بالذكر هذا هو التقوى هو القدم

وأنشد على قول الشاعر :

مررت على المروءة وهى تبكى ... فقلت علام تنتحب الفتاة
فقالت كيف لا أبكى وأهلى ... جميعا دون خلق الله ماتوا

مَرَرْتُ على المروءة وَهْى تبكى ... فقد قَلَّتْ من الدنيا الْهُدَاةُ
مدامعها على الدنيا حريق ... لَقَدْ دِيسَتْ وَأَهْمَلَهَا الرُّوَاةُ
وَحَىٌّ للمروءة ليس يبنى ... يُعَدّ من الأولى من قبل ماتوا
إذا فقد المروءَةَ أىُّ قوم ... فليس لهم من الدنيا حياة
وإنَّ مروءةً من غير دين ... ضلال لا تقول به الثقاتُ
وأى مروءة والنُّبْلُ يبكى ... لفقد الدين ليس له سِمَاتُ
تركنا حد مولانا وراء ... تنازعنا بذاك النازعات
وقلدنا سوانا عن ضلال ... وقد لعبت بأكثرنا الغواة
أنبنى الدورَ من أجل الملاهى ... وهاتيك المساجد خاربات
وكم يلقى الفسادُ بنا احتراما ... وأهل الحق فى الدنيا مَوات
إذا وعظ الورى الوعاظ يوما ... فتسخر بالكلام الناشئات
مجلات تثير لنا فسادا ... غوان فى الصحائف عاريات
يسر بها الشباب ويقتنيها ... ولا يُشْرَى الوضوء ولا الصلاة
إذا ما شاهدوا لكتاب دين ... بضاعتهم لديه كاسدات
وأوراق الملاهى فى انتشار ... بيوت بالملاهى عامرات
وكم رمضان نحييه بإثم ... لياليه بلهو ساهرات
نحج البيت روادا ولكن ... قلوب بعد ذاك مخربات
وكم ذا ندعى نعطى زكاة ... وليس لنا مع المولى زكاة
نبيع ونشترى لكن حراما ... وأبواب الحلال معطلات

وكم يفشو الربا فينا جهارا ... وتعجبنا الفتاوى الفاسدات
محاكمنا قد امتلأت نساء ... وهل ترضى بكثرتها القضاة
وأخلاق تمزقُ كلَّ يوم ... ثيابٌ بالضلال مرقَّعات
وكم داع إلى التقوى افتخارا ... وليس له من التقوى صلات
وقد كثر الكلام على البرايا ... وضل العقل إذ قل الثبات
طباع الناس أمست كالأفاعى ... فأضعفها ملامس لاذعات
وأهل الحق قد كبتوا وأوذوا ... وأهل الزيغ فى صلف دُعاة
لذاك أرى المروءة فى انتحاب ... (فقلت علام تنتحب الفتاة)
(فقالت كيف لا أبكى وأهلى ... عدمتهمو فكلهمو شتات
وأمسى حيهم ميتا ومهما ... أُجمِّعهم فهم قوم رفات
وإن أنصحهمو خلَّوا سبيلى ... أأنصح مَنْ تولَّتْهُ الوفاة
أقول لهم حدود الله فيكم ... يقال تأخَّرْ — قبحت صفات
وإن قلت احكموا بالدين يوما ... يُقَالُ ضللتمو أيْنَ القضاة
هُـوَاة الإثم فى بلدى رعاة ... وأهل الزيغ بالبلوى سعاة
وأهل المال فى جهل تساموا ... وأهل العلم ليس لهم حياة
إذا زمن فقدنا الدين فيه ... فأيام السعادة ذاهبات
أفتش لا أرى أهلى أمامى ... (جميعا دون خلق الله ماتوا)

اعتصم بالكتاب

أنا فى الحب لا أزال حييا ... مُسْتَمِدًّا للشرع ما دُمْتُ حَيا
أسأل الله وعده ولقاه ... إنه كان وَعْدُهُ مأتيا
كيف أنسى ذات الحبيب وقلبى ... يعبد الله بكرة وعشيا

نَفْسُ إنْ جئتِ حيّة فاستريحى　　لتنالى به المقام العليّا
واصبرى واحذرى وسيرى تقرّى　　واعشقى تدركى الأمان القويّا
أذكر الله ما استطعت سبيلا　　ذاكر الله عاد منه وليّا
واعتصم بالكتاب فى كلّ شىء　　قد وجدنا الكتاب حبلا قويّا
وتجرد عن كل شر سواه　　فإذا متّ بالمحبة تُحيّا

اقصد الله

يا مريدا للنفس معنى علاها　　احفظ النفس بالتقى من أذاها
واقصد الله وحده وتواضع　　إنّ فضل الإله لا يتناهى
وسل الله ما تشاء بعزم　　واجعل الله حيث كنت الجاها
أحزم الناس مَن إذا نال رزقا　　عاش بالذل وهْو لا يتباهى
قد صدقنا الرحمن سرّا وجهرا　　ونفينا الأمثال والأشباها
وادّخرنا رضاه يوم لقاه　　لم نُحرّك إلا بذاك الشفاها
وأتينا لداره بقلوب　　ذات سُقم نرجو بذاك شفاها
لا تلوموا على المحبة عبدا　　عاش بالقلب عاشقا أوّاها

عجزى عن الإدراك إدرا كى به

حبّ المهيمن باليقين زوانى　　وإلى الجلال شهوده أزجانى
أصبحتُ لا ألوى عنانى للورى　　ما دمتُ بالبارى رفعتُ بيانى
عجزى عن الإدراك إدرا كى به　　جلّ المقام فما يُبينُ لسانى
فبحبّه وبسرّه وبنوره　　روح اليقين أظلّنى وكسانى
يأيها القلب المهيأ بالرضا　　صُغْ من هواه أعذب الألحان

مِن بحره تجد الجواهر أطلقت قد وشّحتكَ بأجمل التيجان
مَن يطلب الرحمن جلّ جلاله لم يَخشَ بعدُ لعاذلٍ أو شانى
إن حدّثوا عنى فإنى مغرم متمسك بالواحد الديّان
أصبو بروحى فى حماه وأنتمى فالعشق تاجى واليقين بيانى
لم أخلط الأحكام بالأحوال فى طلب الوصول فشرعه أهدانى
إن كان حب الله ذنبى عندهم هذا لعمرك بالمقام كفانى

وادينا المحبة والذكر

لأهل التجلّى فى محبّتهم سرّ ومن نفثات القوم قد لمع البدر
لنا درجات المؤمنين وسَيْرُنا على سنّة المختار طاب بها الأجر
ولى قوّة العشاق لو أنْ سكبتُها على الصخر من عليائها نطق الصخر
ولو أنّ وجدى أدرك الطودُ بعضَه لأصبح من نور الهدى ترْبُه تبرْ
ولو أنّ وجدى أدرك الطيْرُ بعضَه لأفصح بالإعجاز فى شدوه الطير
أريقوا دمى فالحبّ ليس بهيّنٍ وإنى امرؤ فى الوجد ما أنا مضطر
أخذتُ الهوى محض اختيارى ورغبتى وإنّ اختيار الحب عندى هو الخير
وقفتُ على نجوى الإله جوانحى لذلك قلبى منزل كله ذكر
وأخليْتُ قلْبى من مناجاة غيره فأصبح طودا لا يزلزله الغير
جعلْتُ حياتى ذلّةً وتواضعا ومثلىَ فى أقواله كمَن الدُرّ
وإنى إذا حدّثتُ قومى فإنما أحدّثُهم علما يقال له شعر
ولم أكُ من أهل الخيال وإنما علوم الهدى من حكمتى فيضُها بحر
ونَستُ الذى فى كلّ وادٍ مُردّداً ولكنّ وادينا المحبّة والذكر
فما أنا بالمدّاح زيداً لماله ولا أنا بالهجّاء إن مُنِع البرُّ

ولكنّ لى فى حضرة الله نَشْوَةٌ يطوف بها قلبى إذا ارتفع السُّتْر
شرحتُ لهم شرح المحبّين عن هدى وعند أولى الألباب لم يُعْرَف الغيْر
أسارعُ مشتاقا وأسكت هائما وأنطق إجلالا وما عاقنى سير
ففى يقظتى شوق وفى غفوتى هوى وفى مشيتى علم وفى وقفتى سرّ
أسارع معتزّا بربى وذكره ومن يعتصم بالله لم يُبْله الضّر
ومن يعتصم بالله يَسْلَمْ من الورى ومن يتخلَّصْ من سواه له الخير
ومن يعتصم بالله يحفظ فؤاده ومن يتجه لله تمّ له الأمر
ذكاؤك محسوب عليك فخلّه لربك تلقاهُ إذا حاربَ الدهر

وأنشد على قول الشاعر :

كلّ شىء به ظهرت علينـا فاختفينا يا نور فى ظلماتك

كل شىء به ظهرتَ علينا فشربنا الكؤوس من آياتك
ورأينا من الجلال شهودا فغسلنا الفؤاد من لمحاتك
أنا قد أستر الغرام عن الغيـــر ولكنّ الدمع للستر هاتك
فتجملْ يا قَلْبُ بالحلم والحكـــمة واصبر تَقِيكَ من عثراتك
وإذا ما لجأتَ لله سرّا فاحذر البُطْء خشيةً من فواتك
إشونى يا غرام واحرق ضلوعى أنا صبٌّ أشتاقُ من جمراتك
قد تأدّبْتُ فى المحبّة والوَجْـــدِ فروحى واللهِ من لحظاتك
وإذا ما تم الشهود علينـا انغمسنا والله فى نفحاتك
وإذا ما أدْبَرْتَ كنا فناء فاختفينا يا نور فى ظلماتك

نحن فى عالم اليقين رجال

حكمتْ قوّةُ الغرام علينـا فَفَنِينا ومَنْ يَذُقْ فَهْوَ يَفْنى
ولزمنا من المحبّة علما قد شرحناه بيّناً فاسترحنا

إنما الحبّ رغبةٌ فاتباع ففناءٌ من البقا فيه مَعْنى
نحن فى عالم اليقين رجال قد غسلنا نفوسنا ثم غِبْنا
وشرابُ الرجال علم وحلم إنما نحن فوق ذاك شربْنا
فَتح البابَ ثمّ قال لِجُوه فوَلْجنا وبعدها قد وَصَلْنا
أجد الذلّ أقرب الباب إلى الاله لهذا عن العباد افترقنا
أيها المستجير بالله طهّر قلبك الغمر من سوى الله تغنى
إنّ قلبا يعيش بالذلّ للنا س يعيش الحياة منهم مُعَنّى

ومن بعض إنشاده :

كلّ شيء هَيّنٌ مطلبه فارج وجه الله واصدق فى السَّهَرْ
وتعلّق بستار الحبّ فى حيّه والزم حماه واصطبر
قُلْ إذا الليل صفا فى جنحه غنّ يا طيْرُ وطُلْ بى يا سَحَر
أنا من حبكمو فى لهفٍ إن سِحْر الوجد لى أهنا سمر
سكرت نفسى من صبْوتها لم أذقْ طول الصبا أىّ سَكَر
وشراب الحبّ لايُطْرِبُنى بين أنغام قِيَانٍ وقر
إنما الحبّ لروحى ذكره ففؤادى عِند ذكراه يُسَرّ
أنت مَحْياىَ وقلبى وَلِهٌ أنت روحى يوْم — كلاّ لاوزر
يا أُولى الوجد وعندى شَغَفٌ لم يُمتْنى لا ولا جسْمى قَبَرُ
بلْ إذا الرّمْسُ طَوَانى ساقنى صادحاً فى الكوْن أسرى كالقمر

اصدقوا تؤجروا

قيل لى خُذْ للقلب نِعْم الجاه قُلْتُ ربّى فى حبه أَجْاهُ[1]
قيل فاخر بأىّ أصل تراه قُلْتُ فخرى بأننى أهواه

(١) ألجأه بالهمز وتركه لضرورة الشعر .

حَسَبُ الناس فى الجدود ولكن حَسَبُ المؤمن المحب الله
إن من وجّه السريرة لله شفى الله فى الحقيقة داه(١)
من ينادى الكريم عجزا وذلا قد أجاب الكريم فضلا نداه(٢)
إن علمتم أن الإله كريم أتراه يردّ من ناداه
اصدقوا تؤجروا أثابكم الله إذ الصدق عزه ورضاه
لو بأعمالنا نكافأ ضعنا إنما عفوه وحسن عطاه
إن رجونا فالرجاء من العبد جميل إذا دعا مولاه
رَبِّ رفقا بمن أتاك ضعيفا حاملا ثقله كثيرا أذاه
إن ربى بما تقرر أولى لا يرد الضعيف إن ناجاه
أنا باك ولست يوما بشاك كيف أشكو والقلب حلّ حماه

وأنشد فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم :

ساجد تحت عرش ربك ترقى شأنك المجد والعلا والرقى
أنا إن قلت عاشق ومحب ففؤادى من النبى حبيى
ولسانى لا يستطيع مديحا وجنانى عنه المقام خفىّ
كم ذليلٍ رمقتَه بجلال عاد وهو القوى وهو الزكىّ
وفقير منحته بشهود رُدّ من بعد ذاك وهو غنىّ
وشقى دعاك دعوة صدق عاد بعد الشقاء وهو ولىّ

أفرغ دموعك

ياأيها المغرم السارى لسيده روح المحبين تحقيق وتجريد
ولا يليق سوى الذكرى ونشوتها ولا يجوز على العشاق تشديد

(١) أصلها داءه وحذفت الهمزة للشعر .
(٢) الأصل نداءه حذفت أيضا للشعر ومثلها رضاه وعطاه فى الأبيات بعده .

إن الذى أشرقت فى الله وجهته　　فإنه بعطاء الله مجدود
أفرغ دموعك حبا فى جلالته　　عسى ينالك باسم الله تأييد
سارع إلى الله معتزا برحمته　　فالكل عبد ورب الكل معبود
وكل شيء له معنى تمجده　　وليس لى غير معنى الذكر تمجيد
قالوا اتخذ لك جاها قلت واعجبى　　أغير رَبِّيَ إيمان وتوحيد
أطوف بالحى صبًا فى مكارمه　　يارُبَّ صَبٍّ رواه البر والجود
وإنما أنا فان فى محبته　　لكننى فى كتاب الحب موجود
أموت وحدى بقلبى وهو يُرْجِعُنى　　والرجع بعد الفنا علم وتوحيد
ما لذ لى غير شدوى فى مواهبه　　وإنما أنا مشهود وموعود

النوم والأحلام

النوم : هو حالة استرخاء القوى البدنية عند التعب للراحة ، لأن الجسد لا يستطيع العمل مع الروح عملا متواصلا إلا فى حالات شاذة ، أو لأفراد وهبهم الله قوة وأعصابا أقوى من أعصاب غيرهم يستطيعون بهـا العمل لأوقات تزيد عما يستطيعه سائر الناس ، ولـكن لابد لهم من غفوة تستريح فيها أعصابهم ولو لحظة ، وفى حالة النوم[1] تتعطل حواس الجسد ويتعطل معه الشعور الحسى فى هذا العالم تعطيلا وسطا ، لذلك تجد الروح نفسها مقيدة فى العالم الظاهر وتبقى بين عالم الغيب وعالم الشهادة لا تستقر على حال ، وقد تبقى محيطة بالجسد حرصا عليه لتعلقها الشديد به خصوصا أثناء المرض والخوف . أما إذا كانت روحا كاملة السموّ قوية بمـا اكتسبته من الأعمال الصالحة حتى صار لها إشعاع فى عالم الغيب وكان الجسد صحيحا معافى أمكنها إذا أذن لها الله سبحانه وتعالى أن تسبح فى عالم الجبروت متمكنة لها إرادة وإلا فلا .

والمهم فى موضوعنا هـــذا أن نبحث حالة الروح أثناء النوم وهل تستمد قوة الإرادة

---

(١) نقل الجلال السيوطى رضى الله عنه عن سيدنا ابن عباس فى قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها) الآية . قال : فى جوف الإنسان نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس فيتوفى الله النفس فى منامه ويدع الروح تتقلب وتعيش، فإن أراد الله أن يقبضه قبض الروح فمات، وإن أخره رد النفس إلى مكانها من جوفه ، وقال مقاتل: للإنسان حياة وروح ونفس فإذا نام خرجت نفسه التى يعقل بها الأشياء ولم تفارق الجسد بل تخرج كحبل ممتد له شعاع فيرى الرؤيا بالنفس التى خرجت منه وتبقى الحياة والروح فى الجسد فبهما يتقلب ويتنفس ، فإذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفة عين، فإذا أراد الله أن يميتها أخرج تلك النفس التى خرجت . وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : فى كل جسد روحان أحدهما روح اليقظة التى أجرى الله العادة أنها إذا كانت فى الجسد كان الإنسان متيقظا فإذا خرجت من الجسد نام الإنسان ورأت تلك الروح المنامات والأخرى روح الحياة التى أجرى الله العادة أنها إذا كانت فى الجسد كان حيا فإذا فارقته مات فإذا رجعت إليه حي ، وهاتان الروحان فى باطن الإنسان ولا يعرف مقرهما إلا من أطلعه الله على ذلك فهما كجنينين فى بطن امرأة واحدة ، ولعله فى هذا يخبر عن الروح الحيوانية فى صنوبر القلب التى تتصل بها الروح لمباشرة أحوال الجسد فيراجع باب الروح، ويسمى علماء اليوم حالة الروح عند النوم وميلانها بالطرح الروحى ويقولون (إن الإنسان إذا نام خرجت روحه التى يعقل بهـا الأشياء أو هجعت عن تدبيره ولها شعاع متصل به يعبر عنه بالسيال الـكهربائى فيرى الرؤيا بتلك الروح وتبقى الحياة وما يتبعها من الآلات والقوى ، وإذا مات فارقته النفس مفارقة كلية وتلاشت روحه الحيوانية) وعلى كل حال فـكلامهم لا يعول عليه لأنه كلام على غير بصيرة ولو مزجوه بما يشبه الحقيقة .

أم تسكن ؟ لأن على هذا يتوقف معرفة إمكانها السبح فى العوالم الأخرى و إلى أى مدى تسير ، ولكن قبل أن نخوض فى هذا نقف برهة عند الحكم التى نستلهمها من آية النوم .

قال الله سبحانه وتعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ» (١) وأحسب أنى أتفق مع كثير غيرى فى استلهام بعض هذه الحكم.

أولا : نرى الإنسان يخضع لقانون النوم قهرا عنه إذ لابد أن ينام ليريح جسده وأعصابه مدة من الزمن قررها الأطباء حسب السن ليستيقظ الجسد يقظا ليعاود عمله بنشاط فى هذا العالم المادى، وهذا هو العجز الذى يوجب عليه العمل طبقا لقانون الحياة، قال الله سبحانه وتعالى «وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا. وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا. وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا. وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا» (٢) .

ثانيا: يرى الإنسان نفسه مقهورا على النوم فإذا ما نام يسلم نفسه بالرغم منه لخالقه «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا» (٣) ولا يملك الصحو إلا إذا أعاده الله وأيقظه، كما أنه لا يستريح فى نومه إلا إذا وهبه الله الطمأنينة والراحة ، فيفهم أنه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا فى ظاهر الأمر و باطنه أثناء نومه فيرجع المخلوق بقلبه إلى خالقه اضطرارا فيسلم نفسه جثة لا تتحرك إلا بإذنه سواء أجرى الله هـذا الإذن إليه مباشرة أو بعثه على يد من يشاء من خلقه ؛ وفى هذا أكبر موعظة للانسان ليتذكر هجعة الموت وأنه لا يملك لنفسه حياة ولا موتا ولا نشورا فيحاسب نفسه قبل النوم فلا يسلم نفسه موزورا بلا استغفار ولا اعتذار عن ماضيه ، فإن كان عاقلا وجب عليه طلب العفو ممن سيكون فى حوزته وضيافته ؛ وعن أبى موسى رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » رواه مسلم .

ثالثا : أنه وهو نائم لا تسكن روحه فهى فى خيال مستمر ، وقد تسبح فى جهات لم يعلمها من قبل ولم ينو الذهاب إليها ومع قوم بعضهم لم يكن له بهم سابق معرفة مع أن الجسد فى مكانه وهذا يدله على أن الموت لا ينهى حياته فسينتهى الجسد كما نرى فى حالة الموت وتكون روحه فى حياة أخرى .

---

(١) آية ٢٣ الروم (٢) آية ٨ — ١١ النبأ (٣) آية ٤٢ الزمر .

رابعا : يرى الإنسان بعض المرائى فيستذكرها بمجرد تيقظه وأخرى لا يستذكرها إلا بعد وقت طويل عند وقوع حوادثها فتذكره الحوادث ما نسى . ومن هذا يستدل على أن روحه ربما كانت فى عالم آخر قبل هـذا العالم وفى حياة قبل هذه الحياة تعقل أمورا أخرى ثم تنساها أو تنسى فلا تستذكرها إلا فى ميعاد خاص ، ومن هذه الملاحظة يجب علينا أن نؤمن أن الله أخذ العهد على الأرواح يوم قال سبحانه وتعالى « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ » ؟ ولـكن بعض الأرواح نسيت لحكمة أرادها الله وستذكر ذلك جيدا فى يوم الوقت المعلوم ، ومن هذا الوضع استمد أهل العصر الحديث اسم العقل الباطن .

خامسا : يرى النائم سواء كان من الأبرار أو الفجار جاحدا بالله أو مؤمنا أحلاما تكاد فى بعض الأحيان تحاكى أحوال اليقظة فى استيعابها ثم تقع حوادثها بعـد حين كما رآها لا تتخلف بل تقع صورة طبق الأصل مما رأى ، فما الذى نستنتجه من ذلك؟ نرى أنه لابد من تدبير سابق لهذه الحوادث ونحكم بالضرورة أن لها مدبرا أرادها على هذه الصورة فلا بد من أن نولى وجوهنا إليه ، وما دامت صور الحوادث التى رأيناها وقعت محكمة كما رأيناها فهى تنبئنا بقدرة من أخرجها هـذا الإخراج الدقيق ، ونجد أنه ما دام قد دبر أمر هذه الحوادث التى اطلعنا عليها صدفة قبل وقوعها من أسرار الغيب فلا بد من أن تكون هناك أسرار أخرى أهم شأنا لم نطلع عليها ، وفطرة حب الاستطلاع تحدونا للـكشف عنها ، ثم نفهم من ذلك شيئا أهم وهو أن هـذا العالم لا يسير ارتجالا بل يسير طبق خطة مرسومة فمن هو واضعها ؟ فنعلم أنه هو الله العلى الحـكيم الذى بيده مقاليد كل شىء وهو على كل شىء وكيل « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ، وَاللهُ بِـكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ »[1] .

ومن هنا يذعن العالم للقضاء والقدر ويجد دليل الإيمان بالله واضحا وهذه حجة الله على خلقه أجمعين مهما جحدوا ، ومن هذه الأسرار التى يطالع الله بها النائم من حيث لايدرى نفهم أنه يجوز له أن يرسل رسلا أو يوحى لأحد من خلقه بما يشاء ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَـكَدْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ تَـكْذِبُ

---

(١) آية ١١ التغابن .

وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ » أخرجه البخارى ومسلم تيسير ٢٠٧

سادسا : يرى الأبرار فى حالة نومهم كلما زاد يقينهم بالله وغسلوا أرواحهم من أدران الحياة الدنيا أسراراً قدسية واتصالا بالعالم الآخر ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ومثابرة على أعمال الصلاح والفلاح بما يزفه الله إليهم من البشارات والإسعاد فى مرائيهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَمْ يَبْقَ بَعْدِى مِنَ النُّبُوَّةِ إِلاَّ الْمُبَشِّرَاتُ ، قَالُوا وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ ؟ قَالَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ » أخرجه البخارى متصلا ومالك عن عطاء مرسلا وزاد « يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ » تيسير ٢٠٧

سابعا : قد يجد النائم بعض الأحلام المزعجة فلا يقدر على الفكاك منها ، وقد يلاحقه كابوس من سوء الهضم أثناء النوم فلا يستطيع الخلاص منه إلا بفضل من الله ، فالحكيم يرى أن الروح سجنت فى هـذا العذاب من حيث لايعلم به من حواليه من أحبابه ، كما أنه لو استغاث بهم ما أغاثوه ، هذه الحالة تكفى المرء العاقل أن يرجع إلى الله و يلتفت إلى الدار الآخرة ، وتدلنا على تفسير لعذاب القبر أعاذنا الله منه ، إذ يحصل العذاب للميت من حيث لا يراه الأحياء .

ولا نستطيع أن نستقصى الحكم من حالة النوم والأحلام ففيها متسع فسيح للبحث والدرس « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ . أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ ، أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ » (١) .

أحوال الروح أثناء النوم : تقدم القول أن النوم هو حالة استرخاء لأعضاء البدن وأعصابه ليستريح من مجهود مضن حتى يعاوده النشاط مرة أخرى وهكذا يوما بعد يوم، ذلك لأن المخ الإنسانى الذى يقوم بالشعور فى هذا العالم لايستطيع مسايرة الروح فى أعمالها مع حاجتها الفائقة لأن يستمر عاملا معها فى هذا العالم ، وهذا هو شعور الإنسان الطبيعى ولايحبّ الإنسان أن ينام كثيرا إلا إذا كان خبيث النفس كسلان ، وحِرْص الإنسان على النوم

---

(١) آية ١٠٥ — ١٠٧ يوسف .

ما هو إلا حرص على هذه الحياة إذ يرى عافية البدن فى النوم ، والروح تدبر ذلك ليمكنها الظهور فى هذا العالم المادى لتنفيذ إرادتها بالعمل فيه ، لأنها تفيد شرفها فى العالم الآخر بالجهاد فى هذا العالم ؛ ولما كان كل رغبة الروح العمل فهى تقهَرْ أثناء نوم البدن وتحاول استعمال حواس الجسد مع حواسها، لـكن المخ يكون فى سبات عميق أو متوسط، والجسد إما فى تعب أو راحة يرشح من ماء الاسترخاء، والروح مقيدة به لاتنفك عن الحرص عليه مغلولة الإرادة أثناء النوم فى حالة غيبوبة بين الموت والحياة تتوسط بين عالم الغيب والشهادة وتبقى فى حيرة ، فإذا ما تنبهت إلى شىء من عالم المثال وأرادت أن تلقيه للمخ لايستطيع أن يعطيها دقات الاستقبال ، بل يضطرب غالبا ولا تبقى فيه إلا صور مهوشة خصوصا فى حالة النوم العميق أو فى حالة مرض الجسد ، ولايتلقى المخ دقات الروح إلا فى حالة الراحة التامة والنوم المتوسط (بين اليقظة والنوم)[1] وهى أحسن الحالات التى يمكن للروح أن تشرف أثناءها فى العالمين إشرافا خفيفاً ، لأنه فى هذه الحالة يمكن التقابل المنظم إلى حد ما بين الحواس الظاهرة والحواس الباطنة ، فإذا ما أفاق النائم أمكنه أن يعى شيئاً من مرائيه ، أما إذا أصيب الجسد بمرض أو حادث فإنه يشتد اضطراب الروح وتتعلق تعلقاً شديداً بمكانها منه وترسل دقات الخطر بما تلقيه للمخ من صور الحوادث التى تراها ، ولـكنه وهو فى استرخائه لايمكن أن يطاوعها ولا ينتبه وعيه إلا بمجهود شاق ولا تخرج حاسة التخيل فيه الصور المقابلة لما تلقيه الروح ، إنما قد تقع قريبة منها والعكس بالعكس ، إذ ينبه الجسد الروح فى حالة انشغالها عنه بما يحيط به من الخطر ، وفى هذه الحالات يقوم الإنسان من نومه فزعا وقد رأى حلما مزعجا ولـكنه كان من عدم تقابل حواس الروح بحواس الجسد أثناء العمل السريع المفاجئ للخطر الواقع على الجسد أكثر من أنه انزعاج للروح من إنذار علمته من العالم الآخر ولذلك

---

(١) قال العلامة هنرى برجسون فى كتاب الطاقة الروحية ص ٩١ بعد ماقدم آراءه عن الأحلام مانصه: تلك هى الملاحظات التى أردت أن أعرضها لـكم فى موضوع الأحلام وماهى بالملاحظات التامة وليست تشمل من الأحلام إلا التى نعرفها ونتذكرها وتتصل بالنوم الخفيف ، أما حين تنام نوما عميقا فلعلنا نحلم أحلاما من نوع آخر إلا أنه لايبقى منها شىء إذ نصحو) .

يتحتم على معبرى الأحلام أن يدرسوا حالة النائم وما يقع له أثناء نومه من حوادث المرض والخوف قبل تفسير الأحلام المنفرة .

ارادة الروح وقت النوم : مما تقدم نعلم أن الروح فى حالة النوم تكون فى شبه إغماء ، فلا هى تعمل عملها تاما فى عالم الحس الظاهر ، ولا هى قادرة على ترك الجسد وطرق العالم الآخر ـ عالم الغيب ـ كرجل ركب فى سيارة وقفت به فى الخلاء قريبا من بعض المدائن ومعه مريض لايعلم مرضه وقد نفذ منه الوقود فأرسل فى طلبه و بقى حيران قلبه مشغول لمرض صاحبه ويسير هنا وهناك لبضع خطوات ثم يَقفلُ راجعا خوفا على مريضه وسيارته يتطلع إلى القادمين من المدينة متخوفا من الطارق الذى لايعلمه مذهول النفس لايستطيع العمل، والروح فى هذه الحالة تفقد الاختيار وتتوقف إرادتها[1] فيما تريده من عمل أو استقراء ، لذلك لا يقع على النائم تكليف شرعى لفقدان الإرادة فى اكتساب العمل وقت النوم إلا فى الموهوبين من أهل الحضرة العلية من الأولياء والمقربين الذين حكَّمهم الله فى أجسامهم وعلموا من العالم الآخر ما جعلهم يحتقرون هذا العالم وما فيه ، وهم فى هذه الحالة لايحرصون على البقاء فى هذا العالم ، بل يتألمون للبقاء فيه لما يعتريهم من الهيام بعالمهم إذا كشف لهم عنه، و بعضهم يعطيه الله قدرة تمكنهم من الانتقال من مكان إلى أى مكان فى العالم بمجرد تصورهم هذا المكان فى المخيلة إلا إن برز الفرد منهم من عالم الخيال إلى عالم حقيقة المثال فيعلم ما يريد ويلقى فى روع الآخرين ما يريد وهو فى مكانه لم ينتقل منه إن كان فى يقظة أو فى منام ، والبعض يُعْطَى قوة العمل والمشافهة فوق قوة العلم والإلقاء فى الروع .

واختلف أهل الشريعة مع أهل الحقيقة فى تكليف النائم ، فأهل الشريعة على أنه لا إرادة للنائم فهو غير مسيطر على شعوره ولا على مرائيه ولا اكتساب له فيهما ، لذا جاء

---

(١) جاء فى كتاب الطاقة الروحية للعلامة هنرى برجسون ص ٨٨ (لأن اليقظة والارادة شىء واحد بعينه) وقال (إن الوظائف التى تشتغل بها اليقظة والحلم هى نفسها فى الحالين ، ولكنها متوترة فى اليقظة مرتخية فى الحلم ، إن الحياة النفسية كلها ماهى إلاجهد التثبت والتركيز فنحن حين ننام نظل ندرك ونظل نتذكر ونظل نحاكم ، وقد تكون الإدراكات والذكريات والمحاكمات غزيرة لدى النائم ، لأن الغزارة فى ميدان الفكر لاتعنى الجهد وإنما يكون الجهد حيث تكون المطابقة الدقيقة).

فى الأثر «رُفِـعَ التَّـكْلِيفُ عَن ثَلَاثٍ: النَّائِم حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَالصَّبِيِّ حَتَّى يَبْلُغَ، وَالمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ» وأما أهل الحقيقة فقالوا إنه قد تفيد روحه من الخير والشر وهو نائم إذ أن إرادته وقت النوم متعلقة بميولها التى اكتسبتها وقت الصحو، وقد تكتسب همة تتغلب بها على الجسد وقت النوم فتستوحى من عالم المَلَك أو عالم الشيطان شيئا يفيدها فى رغباتها ثم تقوم فتسمى فيه سعيا جديا يكسبها نيلا منه وقت اليقظة، أو تنام على عمل صالح ونية صالحة وطهارة وتوجه إلى علام الغيوب كل هذا من أعمال اليقظة التى تكسبها قوة أثناء النوم فتتلقى وعياً جديداً للخير فتنفذه فى اليقظة فتؤجر والعكس بالعكس .

الإيحاء الروحى وقت النوم (١) : ولـكن مع الحال التى قدمناها من أن الروح لاقوة لها وقت النوم على طروق عالمها أو اليقظة الشاملة التى تدفع إرادتها للعمل، فإنها لاتعدم طارقا يطلبها من عالم الغيب العلوى أو من العالم غير المنظور وقت اليقظة :

---

(١) قال العالم العامل والولى الـكامل سيدى عبد الغنى النابلسى قطب عصره فى كتابه الجليل [تعطير الأنام فى تفسير الأحلام] ما نصه (وقد قال بإبطال الرؤيا قوم من الملحدين يقولون إن النائم يرى فى منامه ما يغلب عليه من الطبائع الأربعة، فإن غلبت عليه السوداء رأى الأجداث والسواد والأهوال والأفزاع، وإن غلبت عليه الصفراء رأى النار والمصابيح والدم والمعصفرات، وإن غلب عليه البلغم رأى البياض والمياه والأنهار والأمواج، وإن غلب عليه الدم رأى الشراب والرياحين والمعازف والمزامير، وهذا الذى قالوه نوع من أنواع الرؤيا، وليست الرؤيا منحصرة فيه فإنا نعلم قطعا أن منها ما يكون من غالب الطبائع كما ذكروا، ومنها ما يكون من الشيطان ومنها ما يكون من حديث النفس وهذه أصح الأنواع الثلاثة وهى الأضغاث، وإنما سميت أضغاثا لاختلاطها فشبهت بأضغاث النبات وهى الحزمة مما يأخذ الإنسان من الأرض فيها الصغير وفيها الـكبير والأحمر والأخضر واليابس والرطب، ولذا قال الله تعالى « وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث» وقال بعضهم الرؤيا ثلاث : رؤيا بشرى من الله سبحانه وتعالى وهى الرؤيا الصالحة التى وردت فى الحديث، ورؤيا تحذير من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء به نفسه فرؤيا تحذير الشيطان هى العاطلة التى لا اعتبار لها، وفى الحديث الصحيح « أن النبى صلى الله عليه وسلم أتاه رجل فقال يارسول رأيت كأن رأسى قطع وأنا أتبعه فقال لاتتحدث بتلاعب الشيطان بك فى المنام» .

وأما الرؤيا التى من همة النفس فمثل أن يرى الإنسان نفسه مع من يحب قلبه أو يخاف من شىء فيراه او يكون جائعاً فيرى أنه يأكل أو ممتلئاً فيرى أنه يتقايأ أو ينام فى الشمس ويرى أنه فى نار يحترق أو فى أعضائه وجع ويرى أنه يعذب . والرؤيا الباطلة سبعة أقسام : الأول حديث

... ...

النفس والهم والتمنى والأضغاث . والثانى : الحلم الذى يوجب الغسل لا تفسير له . والثالث : تحذير من الشيطان وتخويف وتهويل ولا تضره . والرابع : ما يريه سحرة الجن والإنس فيتكلفون منها مثل ما يتكلفه الشيطان . والخامس : الباطلة التى يريها الشيطان ولا تعد من الرؤيا . والسادس : رؤيا تريها الطبائع إذا اختلفت وتكدرت . والسابع: الوجع وهو أن يرى الرؤيا صاحبها فى زمن هو فيه وقد مضت منه عشرون سنة ، وأصح الرؤيا البشرى ، وإذا كان السكون والدعة واللباس الفاخر والأغذية الشهية الشافية صحت الرؤيا وقلت الأضغاث . والرؤيا الحق خمسة أقسام: الأول الرؤيا الصادقة الظاهرة وهى جزء من النبوة لقوله تعالى « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين » وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سار إلى الحديبية رأى فى المنام أنه دخل هو وأصحابه رضى الله عنهم مكة آمنين غير خائفين يطوفون بالبيت وينحرون ويحلقون رءوسهم ويقصرون ، فبشر صلى الله عليه وسلم فى المنام بشارة من الله تعالى من غير صنع ملك الرؤيا ولا تفسير لها مثل رؤيا إبراهيم عليه السلام فى المنام فى ذبح ولده كما حكى الله تعالى عنه بقوله « يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك » وقال بعضهم : طوبى لمن رأى الرؤيا صريحاً لأن صريح الرؤيا لا يريه إلا البارى تعالى دون واسطة ملك الرؤيا . والثانى الرؤيا الصالحة بشرى من الله تعالى كما أن المكروهة زاجرة يزجرك الله بها ، قال صلى الله عليه وسلم « خير ما يرى أحدكم فى المنام أن يرى ربه او نبيه أو يرى أبويه المسلمين .قالوايارسول الله هل يرى أحد ربه ؟ قال السلطان والسلطان هو الله تعالى» . والثالث ما يريكه ملك الرؤيا واسمه صديقون على حسب ما علمه الله تعالى من نسخة أم الكتاب وألهمه من ضرب أمثال الحكمة لكل شىء من الأشياء مثلا معلوما . والرابع الرؤيا المرموزة وهى من الأرواح ، ومثالها أن إنسانا رأى فى منامه ملكا من الملائكة قال له إن امرأتك تريد أن تسقيك السم على يد صديقك فلان فعرض له من ذلك أن صديقه هذا زنى بامرأته وإنما دلت رؤياه على أن الزنا مستور كما أن السم مستور . والخامس الرؤيا التى تصح بالشاهد ويغلب الشاهد عليها فيجعل الشر خيرا والخير شرا ، كمن يرى أنه يضرب الطنبور فى المسجد فإنه يتوب إلى الله تعالى من الفحشاء والمنكر ويفشو ذكره ، وكمن رأى أنه يقرأ القرآن فى الحمام أو يرقص فإنه يشتهر فى أمر فاحش أويقود لأن الحمام موضع كشف العورات ولاتدخله الملائكة كما أن الشيطان لا يدخل المسجد، ورؤيا الحائض والجنب تصح لأن الكفار والمجوس لايرون الغسل وقد عبر يوسف عليه السلام رؤيا الملك وهو كافر،ورؤيا الصبيان تصح لأن يوسف عليه السلام كان ابن سبع سنين فرأى رؤيا فصحت، وقال دانيال عليه السلام اسم الملك الموكل بالرؤيا صديقون ومن شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام فهو الذى يضرب الأمثال للادميين فيريهم بضياء الله تعالى من علم غيبه فى اللوح المحفوظ ما هو كائن من خير أو شر ولا يشتبه عليه شىء

١ — وهو إما أن يكون رحمانيا ، فيرسل الله إليها ملكا يخبرها عن أمر أراد الله إطلاعها عليه فيصور لها من الحوادث المقبلة ما شاء الله ، إما بصورة رمزية أو بصورة من حقيقة ما يحدث لحكم جلت عن التعبير جل الله العلى الحكيم ، انظر إلى هذه الحكم فى هذه الآية « إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً، وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ، وَلَٰكِنَّ اللهَ سَلَّمَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ »(١) أو يكون الملك مرسلا ببشارة

من ذلك، ومثل هذا الملك كمثل الشمس إذا وقع نورها على شىء أبصرت ذلك الشىء به، كذلك يعرفك هذا الملك بضياء الله تعالى معرفة كل شىء ويهديك ويعلمك ما يصيبك فى دنياك وآخرتك من خير أو شر ويبشرك بخير قدمته أو تقدمه وينذرك بمعصية قد ارتكبتها أو تريد ارتكابها، فإذا أراك رؤيا منذرة فإنها تخرج فى وقت تراها لئلا تكون مغموما ، وإذا أراك رؤيا حسنة فإنها تخرج بعد ذلك بأيام لتكون فى نعمة وسرور، وأصدق الرؤيا ما كان بالأسحار، وأصدق الرؤيا رؤيا النهار . وقال جعفر الصادق رضى الله عنه : أصدق الرؤيا القيلولة ؛ وقال المعبرون من المسلمين الرؤيا يراها الإنسان بالروح ويفهمها بالعقل، ومستقر الروح نقطات دم فى وسط القلب ، ومستقر القلب فى رسوم الدماغ والروح معلق بالنفس ، فإذا نام الإنسان امتد روحه مثل السراج أو الشمس فيرى بنور الله تعالى وضيائه ما يريه ملك الرؤيا وذهابه ورجوعه إلى النفس مثل الشمس إذا غطاها السحاب وانكشف عنها فإذا عادت الحواس باستيقاظها إلى أفعالها ذكر الروح ما أراه ملك الرؤيا وخيل له . قال بعضهم : إن الحس الروحانى أشرف من الحس الجسمانى لأن الروحانى دال على ما هو كائن والجسمانى دال على ما هو موجود .

واعلم أن الإنسان قد يرى الشىء لنفسه ، وقد يراه لنفسه وهو لغيره من أهله وأقاربه أو شقيقه أو والده أو شبيهه وسميه أو صاحب صنعته أو بلدته أو زوجته أو مملوكه كأبى جهل ابن هشام رأى فى المنام أنه دخل فى دين الإسلام وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ذلك لابنه . وأن أم الفضل أتت النبى صلى الله عليه وسلم وقالت يارسول الله رأيت أمرا فظيعا فقال عليه السلام خيراً رأيت فقالت يارسول الله رأيت بضعة من جسدك قد قطعت ووضعت فى حجرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مبتسما ستلد فاطمة غلاما وتأخذيه فى حجرك فأتت فاطمة رضى الله عنها من ابن عمها بالحسن رضى الله عنهم وأخذته أم الفضل فى حجرها . ومن أراد أن تصدق رؤياه فليحدث الصدق ويحذر الكذب والغيبة والنميمة، فإن كان صاحب الرؤيا كذابا ويكره الكذب من غيره صدقت رؤياه ، وإن كذب ولم يكره الكذب من غيره لم تصدق رؤياه. ويستحب للرجل أن ينام على الوضوء لتكون رؤياه صالحة، والرجل إذا كان غير عفيف يرى الرؤيا ولا يذكر شيئا منها لضعف نيته وكثرة ذنوبه ومعاصيه وغيبته ونميمته .

---

(١) آية ٤٣ الأنفال .

أو إنذار فإذا ما أفاقت تصدق ذلك أو تكذبه حسب ميولها وهواها إلا أن يسطع مع الرؤيا نور من الحق يصرفها عن هواها وعلامته توفيق العبد لجانب الصلاح والخير فى مستقبل أيامه فور الرؤيا ، أو تزورها روحٌ خيرة من الإنس أو الجن الصالح سواء كانت الزيارة من أرواح الأحياء أو الأموات فيحصل ببركتها للروح علم ونفع ونور . أخرج أبو داود والترمذى رضى الله عنهما عن أبى رزين العقيلى رضى الله عنه «رُؤْيَا المُؤْمِنِ جزْءٌ مِنْ أَرْبَعِينَ جزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ وَهِيَ عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَالَمْ يَتَحَدَّثْ بِهَا. فَإِذَا تَحَدَّثَ بِهَا سَقَطَتْ» وعلامة الرؤيا الصادقة أن يقوم الرأى معافى من نومه يذكرها كما لوكان فى اليقظة .

وقد أخبرنى أحد الصالحين ممن أثق بهم أن من أراد أن ينام وروحه تقوى على جسدها فلا يجهدها وقت النوم وتترق حتى تدعى لزيارة عالم الروح العلوى وتحفظ من عالم الروح السفلى كالجن والشياطين ويحفظ الله جسدها معافى حتى تعود إليه لأنها تكون فى ضيافته بتخصيص الإكرام ، فعليه بذكر لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين فى سره ذكرا متواصلا حتى وهو بين الناس فى عمله وغدوه ورواحه حتى يغلب عليه منه حال وترتفع فى الملأ همته ، ويشترط ألايقصد به إلا وجه الله سبحانه وتعالى .

٢ — وإما أن يكون الطارق شيطانيا فتقابل الروح روحٌ من أرواح العالم السفلى غير المنظور فيلقى فى رُوعها الشيطان لعنه الله ليلعب بها أوليزيدها فسادا وغرورا أو ليثنيها عن فعل الخير ويصرفها عنه أو يطرقها طارق من أرواح الجن الفاسقة بأخبار تفيدها فى عمل المنكر والشر إذا خالط قلبها وعلم من ميولها ذلك ، أوليفزعها إن كانت هينة على الله ويستضعفها، أو ليحار بها إذا كانت من الأرواح القوية التى تعمل فى هدم المنكر فى عالم الإنس والجن، وفى هذه الحال يكون كيدهم ضعيفاً لأن الله يحفظها وينصر جنده فى الظاهر والباطن، قال الله سبحانه وتعالى «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ»[1]

وروى عن مالك رضى الله عنه أنه بلغه «أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي أُرَوَّعُ ، فَقَالَ : قُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ ،

---

(١) آية ٢٠١ الأعراف .

وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنْ يَحْضُرُونَ» وعن بريدة رضى الله عنه قال: «شَكَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْمَخْزُومِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَارَسُولَ الله مَا أَنَامُ اللَّيْلَ مِنَ الْأَرَقِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمٰوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظَلَّتْ، وَرَبَّ الْأَرَضِينَ وَمَا أَقَلَّتْ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضَلَّتْ، كُنْ لِي جَارًا مِنْ شَرِّ خَلْقِكَ كُلِّهِمْ جَمِيعًا أَنْ يَفْرُطَ عَلَيَّ أَحَدٌ أَوْ أَنْ يَبْغِيَ عَلَيَّ، عَزَّ جَارُكَ وَجَلَّ ثَنَاؤُكَ وَلَا إِلٰهَ غَيْرُكَ، لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ» أخرجه الترمذى.

وعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات نقولها عند النوم فنحفظ بها من طارق السوء تعبدا لله وتوكلا عليه فيما نرويه هنا كما جاء فى كتاب تيسير الوصول:

١ — عن البراء رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَقُلِ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَامَلْجَأَ وَلَامَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ خَيْرًا» أخرجه الخمسة إلا النسائى ولم يذكر أبو داود «إِنْ أَصْبَحْتَ».

٢ — وعن عائشة رضى الله عنها قالت: «كَانَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ قال: لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَسْتَغْفِرُكَ لِذَنْبِي وَأَسْأَلُكَ رَحْمَتَكَ، اللَّهُمَّ زِدْنِي عِلْمًا وَلَا تُزِغْ قَلْبِي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِي وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ».

٣ — وعن على رضى الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ عِنْدَ مَضْجَعِهِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَبِكَلِمَاتِكَ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، اللَّهُمَّ أَنْتَ تَكْشِفُ الْمَغْرَمَ وَالْمَأْثَمَ، اللَّهُمَّ لَا يُهْزَمُ جُنْدُكَ، وَلَا يُخْلَفُ وَعْدُكَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ» أخرجهما أبو داود.

٤ — وعن أنس رضى الله عنه قال «كَانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا أوى

إلى فِرَاشِهِ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوَانَا ، فَكَمْ مَنْ لَا كَافِىَ لَهُ وَلَا مُؤْوِىَ » أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى .

تعبير الأحلام : لما كانت الرؤيا المنامية تقع على غير إرادة الحالم كما قدمنا ، وقد تكون واضحة أوغير واضحة، وقدتكون من خيالات الجسد، كما قد تكون من خيالات الروح أو خليط مهوش منهما ، أو تكون من حديث النفس وأمانيها ، أو تكون من الباب الرحمانى الملكى مرموزة أو واضحة، أو من عالم الروح العلوى ، أو من عالم الروح السفلى الذى لانشاهده فى اليقظة وهو حوالينا وقد نشاهده فى حالة النوم ، أو من الباب الشيطانى من الشيطان وأرواح الخبث الشريرة ، فإن تعبيرها يحتاج إلى دراسة وحكمة وروية ، كما أنه من العسير على معظم الناس تفسيرها تفسيرا صادقا إلا لمن تفرغ لدراسته من أفذاذ العلماء ؛ وهو علم يتعلق بعالم الجبروت عالم الغيب لذا لايصح تعليمه لكل الراغبين فيه إذ لاينفع فى تعلمه إلا كل من آتاه الله روحا صادقة الإلهام قوية الفراسة صافية الباطن ، وكان على جانب كبير من الصلاح والتقوى وحب الخير مجانبا للهوى عالما بأحوال الناس والاجتماع خبيرا بالنفوس حكيما صادقا لايخشى فى الله لومة لائم ، يخاف الله فى الناس ويستر عوراتهم ويحفظ أسرارهم وأسرار نفوسهم ، وهذا العلم من أشرف العلوم إذ علمه الله لأنبيائه ورسله ومنّ عليهم به . قال الله سبحانه وتعالى ليوسف عليه الصلاة والسلام « وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »(١) وقال الله سبحانه وتعالى على لسان يوسف عليه الصلاة والسلام « رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّى فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ »(٢) وثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يعبر الرؤيا للصحابة رضى الله عنهم وكان يطلب منهم أن يقصوها عليه ، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال :

---

(١) آية ٦ يوسف (٢) آية ١٠١ يوسف .

« كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا رَأَى رُؤْيَا قَصَّهَا عَلَيْهِ وَكُنْتُ غُلَامًا شَابًّا عَزَبًا أَنَامُ فِي الْمَسْجِدِ ، فَرَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِي وَأَتَيَابِي إِلَى النَّارِ فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ الْبِئْرِ وَإِذَا لَهَا قَرْنَانِ كَقَرْنَيِ الْبِئْرِ ، فَإِذَا فِيهَا أُنَاسٌ قَدْ عَرَفْتُهُمْ فَجَعَلْتُ أَقُولُ أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ النَّارِ ثَلَاثًا ، فَلَقِيَهُمَا مَلَكٌ آخَرُ فَقَالَ لِي لَمْ تُرَعْ فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ فَقَصَّتْهَا حَفْصَةُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ قَالَ سَالِمٌ : فَكَانَ عَبْدُ اللهِ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا » أخرجه البخارى ومسلم رضى الله عنهما .

ولذا اعتُبر هذا العلم من العلوم الشرعية وتخصص له قوم كثيرون ذكرهم الشيخ خليل الظاهرى فى كتابه ، ومن أعلامهم كما فى التفسير محمد بن سيرين وسيدى جعفر الصادق رضى الله عنهما وجمع زبدة الكتب كلها وفاض عليها بفتحه سيدى عبد الغنى النابلسى رضى الله عنه ، فى كتابه [تعطير الأنام وتفسير الأحلام] . وهو كتاب واسع الانتشار فى جميع الأقطار العربية جليل مبارك عظيم الفائدة .

ولكنى مع الاستعانة بكلام هؤلاء المعبرين رضى الله عنهم لا أجد ذلك كافيا فى تعبير الرؤيا ، لأن هذا العلم خص الله به رجالا فى كل عصر ، ذلك لأن لكل زمان أحواله ومدنيته وصوره وتخيلاته طبقا لأحوال أهل العصر وتقدمهم فى العلوم والمعارف والفنون واختلاف مداركهم وأهوائهم من عصر إلى عصر فلا بد للرؤيا من معبر . وقد رأيت والدى رحمه الله رحمة واسعة ورضى عنه يعبر الرؤيا فتقع كما عبرها تماما ، وكان يعبرها لقوم بغير مايعبر مثلها لآخرين ؛ لأن الرؤيا تختلف فى التعبير بالنسبة لاختلاف المدارك واختلاف المهن واختلاف الأرواح فى الاستقامة وضدها وكيفيات المعيشة وتغاير النيات إلى غير ذلك ، وقد علمنى رحمه الله شيئا من علم التعبير وهو علم ذوقى له اعتبارات شتى وليس من موضوع هذا الكتاب . ومن أراد التعبير فليرجع إلى الكتب التى سبق بيانها فانها إن لم تدل تمام الدلالة فانها تقرب التعبير . وأما فى حالة رؤيا الإنذار والزجر فلا يجوز للرائى أن يخالف قلبه فهو دليله الذى لايخطئ فى هذا السبيل جنبنا الله كل ما يكره وكل ما نكره بمنه وفضله وكرمه .

العوالم غير المنظورة

نرى فى أحلامنا أطيافا كثيرة تحمل صورا شتى : من إنسان وحيوان وجماد ، وأخرى مما لا نعرف له مثيلا فى عالمنا هـذا ، وفى صحونا نرى أحيانا خيالا يمر علينا سريعا ، فاذا تابعناه بأبصارنا لانكاد نرى شيئا وقد مرّ أسرع من البرق الخاطف ، وقد نجد حينا آخر اهتزازاً وصل إلى بعض أعضاء الجسم فحركها ، وقد تكون فى بعض الأحيان قوية لايمكن معها اتهام الحس فنلتفت لمعرفة مصدرها فلا نجد أحدا حوالينا ، ثم نجد على حين غرة هاتفا يهتف فى صدورنا فتضيق أو تتسع من غير مبرر حقيقى ، ثم نجد من حوادث المستقبل ما يبرر لنا هذه الهواتف وأنها كانت تحمل إلينا بشارة أو نذارة ، ثم نجد فى بعض الليالى الحالكة نورا يلمع سريعا ثم يختفى ، وفى ساعات أخرى إذا اشتد الضوء نجد ألواناً من النور الأخضر أو الأصفر أو أدخنة تلمع أسرع من سيال الكهرباء ثم تختفى ، وكثيرا ما يحدث أننا إذا طرقنا مكاناً ما نجد قشعريرة سرت فى أجسادنا أو ثقلا فى أقدامنا وأجسادنا ، وقد يزيد إلى أن يحصل لبعض الناس منه إغماء ، وكثيرا ما نجد أن تفكيرنا انتقل فجأة من التفكير العادى وتحول إلى تفكير جديد ومرّ بخواطرنا أفراد من الناس لم يخطروا على البال منذ زمن بعيد أو توقعنا حوادث سارة أو مفزعة ودقّت هواتفها فى صدورنا دقات تحرك القلوب ولا نستطيع ردها ونقف أمامها مشدوهين كما يباغتنا فى عالم الحس حادث مفاجئ يغير مجرى حياتنا وإرادتنا ، وإذا ربطنا السبب بالمسببات لا نجد لهذا التحول أساسا من الماضى ، ولا نكاد نرى إنساناً إلا ويحدثنا عن هذه الظواهر التى لانجد لها تعليلا ، ومعظم الناس لايعيرها اهتماما ويتهمون أنفسهم عندها بضعف الأعصاب أوخداع البصر مهما كانوا فى منتهى الصحة وقوة الإبصار وسلامة الإدراك ، مع أننا إذا تتبعنا شعور أنفسنا وأخذنا كل إحساس على حدة وقيدنا مرائينا وملاحظاتنا ودرسنا هذه الأحاسيس ومسبباتها لوجدنا كثيرا منها خارجا عن إرادتنا بل ومن صنع عالم آخر غير هذا العالم المرئى لأبصارنا والواقع تحت أسماعنا ، وإن الذين يفكرون بعمق ويلاحظون هذه الظواهر ملاحظة دقيقة لايمكنهم

أن يقولوا إن هذا من خبل العقل أو من ذات النفس أو من خداع البصر ، بل لابد أن يكون من أفراد آخرين غير الذين نشاهدهم فى هذا العالم .

وفى الحقيقة أن ما غاب عنا من العوالم أكثر مما نعلم ، لأننا واقفون عند حدود حسنا الذى تكيفه لنا أبصارنا وأسماعنا ، وقد خلقها الله ذات طاقة محدودة تتناسب مع تكليفنا فى حدوده المرسومة ، ولو كان لنا سمع أكبر يطيق سماع ما فى الكون من أصوات مستترة وواضحة لسمعنا أكثر ، ولو كانت لنا أبصار أشد لرأينا فى الكون مايبهر عقولنا ؛ يقسم الله سبحانه وتعالى فيقول : « فَلَاۤ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لَا تُبْصِرُونَ »[١] ويعدنا برؤية ما غاب عنا بقوة يعطيها للبصر فيقول جل شأنه : « فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ »[٢] وهذه أسماعنا لهاطاقة محدودة ، ولو أن لها فى طبلة الأذن ما فى أداة الراديو من قوة على استقبال الأصوات المارة بالموجات الأثيرية لسمعت من أقاصى المعمور ، ولكننا لو سمعنا ما فى العوالم من أصوات فى هذا التكليف المحدود لجننا واختلطت الأصوات علينا ولم تحتمل ذلك طبيعة نفوسنا ، ولو استطعنا تجهيز أبصارنا بأداة إبصار أكبر لبانت لنا العوالم الأخرى فى موجات ضوئية غير ما اعتدنا عليه ولفزعنا وتغيرت أمورنا وسكرت عقولنا فغبنا عن الصواب ، لذلك كان من حكمة الله أنه رتب لكل عالم ما يناسبه « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا »[٣] .

لذلك لا أرى حجة عقلية تمنع وجود العوالم غير المنظورة ، كما أننا نسمع من بدء الخليقة أن قوما من المكلفين هم الجن يعيشون معنا فى هـذا العالم ويخالطوننا من حيث لا نراهم ، كما نسمع سماعا متواترا من أنهم يظهرون لبعض الناس ويتكلمون على لسان بعض الذين يمسونهم من الذين يجدون فى عقولهم خفة وفى نفوسهم طاعة وقلة إرادة ، وتحدثت جميع الأمم على مر التاريخ عن أخبارهم وفى أمة العرب الغابرة كثير من أخبارهم .

والاعتقاد بالعوالم غير المنظورة أمر مسلم به عند عقلاء الخليقة وإن اختلف أهل الأديان فى ذاته وصفاته سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا فإنهم لم يختلفوا

(١) آية ٣٨ ، ٣٩ الحاقة . (٢) آية ٢٢ ق . (٣) آية ٨٥ الاسراء .

فيما أخبر به الرسل من السمعيات عن عالم الملائكة والجن والشياطين التى لايستطيع الناس معرفتها بالعقل وحده ، لأن الإيمان الذى يباشره العقل هو الاعتراف بوجود الله كما سبق فى أدلة هذا الكتاب وأنه يجوز لله أن يرسل رسولا أو ينزل كتابا ، ويتبع ذلك إيمان غير مباشر يتعلق الإيمان به على الإيمان الأول وهو التصديق بالتبليغ وما جاء فى الكتاب المنزل على الرسول ، لأن العقل يستطيع أن يبحث أدلة الإيمان الأول لأنه من مقوماته ، ولكن التصديق بالسمعيات لاحيلة للعقل فى الاعتقاد بها إلا ربطها بالإيمان بالله وكل ما عليه النظر فيها فيما هو جائز أو مستحيل ، فإذا آمن مؤمن بالله وبرسوله وجب عليه التصديق بالسمعيات جميعها فيما ثبت نقله ، ولا يجوز إنكار شىء منها لأن إنكار البعض نفى للإيمان كله وطعن فى صدق التبليغ ، لأن الصدق لايحتمل الكذب وقدسية الرسول تمنع تصديقه فى قواعد الإيمان والإنكار عليه فى الأخبار التى يبلغها للناس لذلك نجعل كل اعتمادنا فى الكلام عن السمعيات على النقل والآثار الصحيحة .

قال العالم المحقق الولى الربانى قطب عصره سيدى عمر جعفر الشبراوى فى الكلام عن العوالم غير المنظورة : عَالَمٌ هو ماسوى الله تعالى، وهناك عوالم ظاهرة ، وعوالم باطنة ؛ فالملك هو العالم الظاهر وهو عالم الشهادة ، والملكوت هو العالم الباطن وهو عالم الغيب المختص بالأرواح والنفوس ، ويقال عالم الأرواح القدسية والأسرار الإنسية .

ثم اعلم أن الله تعالى جعل العوالم أربعة: عالم الملك ، وهو ماشأنه أن يدرك بالحس والوهم؛ وعالم الملكوت ، وهو ما شأنه أن يدرك بالعقل والفهم ؛ وعالم الجبروت ، وهو ما شأنه أن يدرك بالحس وما معه وبالعقل وما معه ، ولكن لا فى أول حال بل فى ثانى حال كتعلق الجسم بالروح وهى به ، وقد يقال الإنسان روح ثم نفس ثم جسم ، فالروح عالم الجبروت والنفس عالم الملكوت ، والجسم عالم الملك ؛ فالروح الجبروتى مظهر الذات ، والنفس الملكوتى مظهر الصفات ، والجسم الملكى مظهر الأفعال . ويقال أيضا: الملك ماظهر، والملكوت مابطن، والجبروت جامع لهما، كما أن الإنسان ظاهره ملك وباطنه ملكوت . وحيث جمع بينهما

كان جبروتا فيدرك بالبصر والبصيرة ؛ والعالم الرابع عالم العزة ، وهو ما امتنع إدراكه من كل وجه فلم يظهره لأحد من خلقه كتعلق إيمانه وصفاته من حيث تعلقها به .

وقال رضى الله عنه ونفعنا بعلمه عن عالم الجبروت : هو العالم المتوسط أعنى عالم البرزخ ، والحشر مأخوذ من الجبر والقهر لأن فيهما يظهر حكم القهر الإلٰهى ؛ ومنه عالم الخيال المسمى بعالم المثال ، وقيل هو عالم العقول والنفوس المجردة مأخوذ من الإجبار بمعنى الاستعلاء لاستعلاء ذلك العالم عن تركبه من العناصر ، وعند أبى طالب المكى هو عالم العظمة كعالم الأسماء والصفات الإلٰهية ، وكعالم الآخرة من جبرت الفقير أغنيته ؛ لأنه موطن الغنى الأبدى وفى الحديث « الْجَبَرُوتُ فِي الْقَلْبِ » أى الغنى ، وكعالم أرض السمسمة[1] المخلوقة من بقية طينة آدم عليه السلام المسماة بأرض الحقيقة ، لأن الأشياء تظهر فيها على حقائقها فكل من عالم الآخرة ؛ والسمسمة من عالم العظمة لظهور عظمة الله سبحانه وتعالى فيها أكثر من ظهورها فى غيرها ، والأرض المذكورة مسرح عيون العارفين وفيها يجولون ولا يدخلونها إلا بأرواحهم وربما دخلها بعضهم وهو لايشعر . وقال رضى الله عنه عن عالم اللاهوت « هو عالم السر الغيبى الذى لو انكشف للعامة لعميت عليهم الأمور والبصائر لعدم استطاعتها عن شهود ذلك السر الذى على أهله مقصور » .

وسنتكلم عن عالم غير المنظور فى العوالم التى أخبرنا بها القرآن الكريم وسيد المرسلين عليه صلوات الله وسلامه ، خصوصا وأن هذه العوالم مشتبكة معنا فى أحوالنا وأحاسيسنا وتخالطنا فى دورنا وأمكنة أعمالنا بل وفى غدونا ورواحنا بل لاتفارقنا ، ومنها ما يقرأ كلام أنفسنا وهو يعتمل فى أفئدتنا ، ومنها ما له القدرة على مخاطبة أرواحنا والإيحاء إلينا بدون أن نشعر فى الظاهر بشىء فهى لاتحتاج إلى الأذن الظاهرة فى التوصيل ولا إلى اللسان فى استقراء الإجابة ، وأكثر هذه العوالم مخالطة لنا كعالم الملائكة .

عالم الملائكة : هم عباد خلقهم الله من نور يتشكلون فى أجسام من نور خيرون

---

(١) تكلم جدنا العلامة المحقق الشيخ أحمد الحلوانى فى مواكب ربيع عن أرض السمسمة كلاما واضحا وذكر أقوال العلماء واستوفى البحث فيها ، فمن أراد زيادة المعرفة فليراجع كتابه .

لايعملون الشر قط «لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» (١) غير مكلفين بتكليف يجرهم إلى فتنة إلا ما حصل لهاروت وماروت استشهادا لبيان شرف المكلفين إذ حملا الأمانة وخلقت لهما أجسام وركبت فيها طبائع الشهوات فزلا وانغمسا فى تيار الشهوات الأرضى فتنة للضالين .

والملائكة لايتوالدون ، سماهم الله عباداً وهم من أشرف العباد ، لايتصفون بالذكورة ولا بالأنوثة لأنها ليست من طبائعهم وهم عقل محض موحدون ، طعامهم التسبيح والتمجيد يتلذذون به وهو مادة حياتهم لذلك عاب الله من وصفهم بالأنوثة وسلب عنهم الايمان ؛ قال تعالى : «إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى . وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا» (٢) وقال الله سبحانه وتعالى : «أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ . فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ . فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ . إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ . وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ» (٣) وسماهم الله عباداً وشرفهم بالإضافة إلى اسمه الرحمن، قال سبحانه وتعالى «وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ، سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ» (٤) وخلق الله للملائكة قوة روحانية كبرى وخلقهم خلقاً لاتعيه العقول فى هذا العالم، قال الله سبحانه وتعالى : «الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ

---

(١) آية ٦ التحريم — (٢) آية ٢٧ ، ٢٨ النجم

(٣) آية ١٥٠ — ١٦٦ الصافات — (٤) آية ١٩ الزخرف

شَيْءٍ قَدِيرٌ »[١] وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا جبريل عليه السلام فى حلة خضراء قد ملأ ما بين السماء والأرض له ستمائة جناح كما ورد فى صحيح مسلم وغيره .

وللملائكة قوة على التشكل والسير بين الناس كهيأة الآدميين كل ذلك بأمر الله وإذنه . وقد كان سيدنا جبريل عليه السلام ينزل أحياناً بين يدى رسول الله على هيئة سيدنا دحية الكلبى رضى الله عنه . وكما جاء فى قصة الأقرع والأبرص والأعمى فى بنى إسرائيل من أن الله بعث ملكا على صورتهم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ : أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى ، أَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا ، فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَذَّرَنِي النَّاسُ ، فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا ، فَقَالَ أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ الْإِبِلُ فَأَعْطَاهُ نَاقَةً عُشَرَاءَ ، فَقَالَ بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا ، ثُمَّ أَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : شَعْرٌ حَسَنٌ ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَدْ قَذَّرَنِي النَّاسُ ، فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا ، قَالَ : فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ الْبَقَرُ فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا ، وَقَالَ بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا . ثُمَّ أَتَى الْأَعْمَى ، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ أَنْ يَرُدَّ اللهُ عَلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ ، فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِ بَصَرَهُ ، قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ الْغَنَمُ فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا ، فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا . فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ . ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ، فَقَالَ : رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي ، فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي ، فَقَالَ الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ ، فَقَالَ لَهُ كَأَنِّي أَعْرِفُكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ ، فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللهُ ، فَقَالَ إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ ، فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى

---

(١) آية ١ فاطر

مَا كُنْتَ ، وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ ؛ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَى الأَوَّلِ فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ ، ثُمَّ أَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ لَهُ : رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ وَتَقَطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَاغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي فَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ عَلَيَّ بَصَرِي ، وَفَقِيرًا فَقَدْ أَغْنَانِي فَخُذْ مَاشِئْتَ وَدَعْ مَاشِئْتَ ، فَوَاللهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ لِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلهِ ، فَقَالَ أَمْسِكْ مَالَكَ : فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ ، فَقَدْ رُضِيَ عَنْكَ ، وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ » أخرجه البخارى ومسلم .

ومن آيات تشكلهم قول الله سبحانه وتعالى : « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ »[1] .

ولما وصلوا قرية لوط على بعد أربعة فراسخ من سكن سيدنا إبراهيم وقتئذ تشكلوا فى صورة غلمان حسان مرد ودخلوا على لوط فضاق بهم ذرعاً لعلمه بسوء أخلاق قومه إقرأ قول الله سبحانه وتعالى : « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ . وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ . قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ . قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ . قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ »[2] .

ولقد ظهر الملائكة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورآهم كثير من الصحابة يوم بدر لتثبيت القلوب وتوكيد الإيمان فى إبانه ، قال الله سبحانه وتعالى : « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ

---

(١) آية ٢٤ ، ٢٥ الذاريات (٢) آية ٧٧ – ٨١ هود

رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ . إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ » (١) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر : « هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِرَأْسِ فَرَسِهِ عَلَيْهِ أَدَاةُ الْحَرْبِ » أخرجه البخارى ، ولا يزال الملائكة يتشكلون وينزلون إلى الأرض بأمر الله نزلا صعدا (٢) يخالطون الخلق مخالطة خاصة على ما أراد الله « وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا » (٣) . وقليل من الخلق الذين يعرفونهم أثناء التشكل ممن أطلعهم الله على الحقائق من أهل الكشف الغيبى من الأولياء ، وهؤلاء قلما يبوحون بشىء عن ذلك للخلق لأنهم يحاسبون .

درجات الملائكة : للملائكة درجات متفاوتة ؛ فمنهم المقربون والكروبيون وحملة العرش والكرام الكاتبون ، ومنهم المهيمون فى حب الله صفوفا صفوفا راكعون وساجدون غارقون فى التسبيح والتحميد والتمجيد والتهليل وهم خلق كثير لايحصيه إلا الله فى نظام رائع ونور ساطع يظهرون فى يوم الدين ؛ قال الله سبحانه وتعالى : « وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » (٤) وقال سبحانه وتعالى : « وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ . يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ » (٥) .

---

(١) آية ٩ — ١٢ الأنفال .

(٢) وعن أسيد بن حضير رضى الله عنه قال « بينما هو يقرأ القرآن من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكنت فقرأ فجالت فسكت فسكنت ، ثم قرأ فجالت وكان ابنه يحيى قريبا منها فانصرف فأخره ثم رفع رأسه إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح . فلما أصبح حدث النبى صلى الله عليه وسلم فقال وتدرى ما ذاك ؟ قال لا ، قال تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت لأصبحت ينظر إليها الناس لا تتوارى منهم » أخرجه البخارى ومسلم بمعناه .

(٣) آية ٦٤ مريم . (٤) آية ٢٢ الفجر . (٥) آية ١٧ ، ١٨ الحاقة .

ومن أسمائهم اللامعة إسرافيل عليه السلام وميكال عليه السلام وعزرائيل عليه السلام وجبريل عليه السلام ورضوان ومالك، كل له جند وأمم لايعلمهم إلا الله، وقد فرض الله محبتهم وعادى من عاداهم قال الله سبحانه وتعالى: « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ »(١).

وجبريل عليه الصلاة والسلام هو ملك الوحى الذى ينزل على قلب الرسل، ومن أسمائه التى شرفه الله بها لعلوّ قدره روح القدس وروح الحق والروح الأمين والرسول الكريم وذو مرة وذو قوة إلى غير ذلك من ألقاب التشريف والتكريم، قال الله سبحانه وتعالى فى حقه: « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ. وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ. وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ. وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ »(٢) وقال سبحانه وتعالى « وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ »(٣) وهو حبيب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبيب أمته، ذلك أنه ورد أن الله سبحانه وتعالى لما أرسل سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين عمت هذه الرحمة الملائكة وزادهم الله بها قدرا، ولما نزل الوحى على سيدنا جبريل لتبليغه إلى رسول الله جاءته آيات البشارة والتشريف فوعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاء له أن يكون عوناً للأمة المحمدية عند جوازها على الصراط، وذكر سيدى عبد العزيز الدباغ أنه يوالى بروحانيته أولياء الأمة المحمدية عند ما يفتح الله عليهم ويهبهم نور الولاية لتطمئن قلوبهم وما من مؤمن صادق الإيمان إلا ويحبه حبا جما، أمدنا الله بروحه وأيد الأمة المحمدية بروح منه لتفوز على جميع الأمم.

١ — ومن أمم الملائكة حملة العرش والمسبحون والمستغفرون حول العرش، قال الله سبحانه وتعالى: « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ. رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ

---

(١) آية ٩٨ البقرة. (٢) آية ١٩ — ٢٤ التكوير. (٣) آية ٨٧ البقرة.

مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »(١) .

٢ — ومن أقوام الملائكة قوم يطوفون فى الأرض يحيون أهل الإيمان فإذا رأوا مخلصا لله فى عمل آزروه وأمدوه بالنصيحة وملأوا قلبه نورا يهديه إلى الرشد ؛ قال الله سبحانه وتعالى « هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ »(٢) فإذا كان طالب علم فرشوا له أجنحتهم أى ملأوا صدره عطرا ذكيا من شذى أرواحهم ليتلذذ من نور العلم ويشرح له صدره ويثابر على طلبه ، وإذا رأوا ذاكرا أو أهل ذكر نزلوا ساحتهم وذكروا معهم فزال الشيطان عن مكانهم على قدر الصدق فى الذكر ، فإن هام الهائمون هاموا معهم وامتزجوا بهم امتزاج حب ، وانجذب الصادق منهم إلى الله والتذ بذكره ونسى حظه من الشهوات المهلكة ونأى عنها حتى يصير رحمانيا مخالطا للملائكة يتواجد بتواجدهم ويتلقى فى عالم الروح من أسرارهم ، وهؤلاء هم أهل الروح الصادقة المهيمون فى حب الله ترى الملائكة فى ناديهم لايخرجون من عندهم إلا ساعة الغفلات ولا يتركونهم إلا إذا عادوا لسماع الشيطان ، وبعض الملائكة يعانق المحب لله الذاكر معانقة حنان حتى يفيض الدمع من عينيه فيغسل بذلك جميع ذنوبه . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِى الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْماً يَذْكُرُونَ اللهَ تَعَالَى تَنَادَوْا : هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا ؛ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ : مَا يَقُولُ عِبَادِى ؟ فَيَقُولُونَ : يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ ، قَالَ فَيَقُولُ هَلْ رَأَوْنِى ؟ فَيَقُولُونَ : لَا ، فَيَقُولُ : كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِى ؟ فَيَقُولُونَ لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيداً وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحاً . قَالَ فَيَقُولُ : فَمَا يَسْأَلُونِى ؟ فَيَقُولُونَ : يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ فَيَقُولُ : هَلْ رَأَوْهَا ؟ فَيَقُولُونَ : لَا يَارَبِّ فَيَقُولُ : كَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا ؟ فَيَقُولُونَ :

---

(١) آية ٧ — ٩ غافر . (٢) آية ٤٣ الأحزاب .

لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً : قَالَ فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ فَيَقُولُونَ : يَتَعَوَّذُونَ مِنَ النَّارِ . فَيَقُولُ : هَلْ رَأَوْهَا ؟ فَيَقُولُونَ : لَا يَا رَبِّ . فَيَقُولُ كَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا ؟ فَيَقُولُونَ : لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً . قَالَ فَيَقُولُ أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ . قَالَ فَيَقُولُ مَلَكٌ مِنْهُمْ : فِيهِمْ فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ لَيْسَ مِنْهُمْ ، إِنَّمَا مَرَّ لِحَاجَةٍ فَجَلَسَ ، فَيَقُولُ : وَلَهُ قَدْ غَفَرْتُ ، هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ » أخرجه البخارى ومسلم والترمذى . وعن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًى لِطَالِبِ الْعِلْمِ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَلٰكِنْ وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ » أخرجه أبو داود وهذا لفظه والترمذى . وعلى العموم فإن الملائكة تحب المستقيم وتصاحبه وتطرد عنه الشيطان وتعاونه فى جهاده ضد نفسه وضد الشيطان ، فإذا ابتلى ابتلاءا عاونته على احتماله بثبات وصبر وقوة إيمان ، فإذا ما حضره الموت تنزلت عليه بالبشرى فازداد شوقا إلى لقاء الله وثبت إيمانه فى آخر معركة الحياة حتى تخرج روحه مؤمنة مطمئنة راضية ، قال الله سبحانه وتعالى : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ »(١) ويوم القيامة وفى الجنة يحيونهم أحسن تحية ويظهرون لهم . قال الله سبحانه وتعالى : « وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ »(٢) وقال جل شأنه : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ »(٣) .

---

(١) آية ٣٠ فصلت (٢) آية ٧٣ الزمر (٣) آية ٢٣ ، ٢٤ الرعد .

٣— ومن أقوام الملائكة الحفظة والرقباء والكاتبون لايتركون إنسانا فى غدو أو رواح أو نوم أو صحو ، يعدّون عليه أنفاسه وألفاظه ، ويكتبون صحائفه ، ويا ويل المسرفين منهم ، وإنه لمن الخسر والدناءة والقبح عمل الفواحش فى حضرة هؤلاء ، وأعلى المروءة أن تحافظ على الأدب والكمال مراقبة لله سبحانه وتعالى وإكراما لهذه الصحبة فى مرافقة هؤلاء الملائكة ، قال الله سبحانه وتعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ . وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ . وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ . وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ . لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ »(١) .

٤—ومن الملائكة الحفظة ورسل الموت تحت راية عزرائيل عليه السلام؛ قال الله سبحانه وتعالى : « وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ »(٢) وقال سبحانه وتعالى : « قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ »(٣) .

ويعامل هؤلاء الملائكة أهلَ الإيمان بالتكريم والرفق يطيبون أرواحهم بالروح والريحان ؛ قال الله سبحانه وتعالى « فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ »(٤) وأما أهل الكفر والفسق فإن الملائكة تنزل عليهم باللعنة والازدراء والتحقير البالغ حتى إنهم ليضربون الواحد منهم على أليتيه وعلى وجهه مبالغة فى التحقير ليعلم أنه كان

---

(١) آية ١٦ — ٢٢ ق (٢) آية ٦٠، ٦١ الأنعام (٣) آية ١١ السجدة

(٤) آية ٨٨ ، ٨٩ الواقعة .

مغرورا بما أوتى ، وأن العظمة الكاذبة مآلها الهوان ؛ قال الله سبحانه وتعالى « فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ »(١) ويساقون إلى جهنم فى ذلة وحقارة « وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ؟ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ »(٢) « وَقَالَ الَّذِينَ فِى النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ . قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ؟ قَالُوا بَلَى ، قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ »(٣) .

وموضوع الملائكة يحتاج إلى كتاب مستقل ، ونكتفى بهذا القدر وهو يكفى فى بيان عقيدة أهل التوحيد لأن الإيمان بهم ركن من أركان الإيمان ؛ قال الله سبحانه وتعالى : « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ »(٤) .

عالم الشيطان : الشيطان نوع من الجن خلق من مارج من نار ، قال الله تعالى : « وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ »(٥) والمارج هو أصفى النار ، ذلك اللهب الأصفر أو الأخضر الذى يصفو من النار و يعلوها ، تلك قدرة الله العلى الحكيم . واختلف العلماء فى أنه كان من الملائكة ثم ارتد إلى الجن عقوبة له لما عصى ربه ، أو أنه كان من الجن ثم ارتقى إلى صفوف الملائكة بطاعته وعمله فلما اغتر — أعاذنا الله من الغرور المهلك — رجع إلى أصله، وظاهر الآيات كلها يرجح هذا وأن الشيطان وقبيله طائفة من الجن يرأسها إبليس أشد خفاء وقوة من الجن ، ولما كان أتباعه على شاكلته كانوا فى حكم ذريته لأنه أب لهم

---

(١) آية ٢٧، ٢٨ محمد . (٢) آية ٧١ الزمر . (٣) آية ٤٩ ، ٥٠ غافر .
(٤) آية ٢٨٤ البقرة . (٥) آية ٢٧ الحجر .

فى المعصية والتجانس فى المبدإ . قال الله سبحانه وتعالى : « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا . مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا »(١) .

وكان اسم إبليس قبل معصيته عزازيل فلما عصى سمى شيطاناً وفعله شطن بمعنى شاط أو بعد ، وشاط أى هلك وطرد من رحمة الله ؛ وإبليس من أبلس أى يئس من رحمة الله وخلد فى العذاب المهين ، ومبلسون أى معذبون وهالكون ، وروى ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال « إِنَّمَا سُمِّيَ إِبْلِيسَ لِأَنَّ اللهَ أَبْلَسَهُ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ » أى آيسه منه ، والشيطان وقبيله من العوالم غير المنظورة لأنه خنيس يخنس ويختفى ويوسوس للإنسان فى صدره « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلٰهِ النَّاسِ . مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ »(٢) وقد أعطى قوة كبرى(٣) يستطيع معها أن يخاطب جميع الناس فى وقت واحد هو وقبيله من حيث لايراه الناس ، وحذرنا الله منه لاختفائه على هذه الصورة مع شدة عداوته لآدم وبنيه بقوله تعالى: « يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ »(٤) .

---

(١) آية ٥١ الكهف . (٢) سورة الناس .

(٣) للشيطان اللعين قوة كبرى فى إغراء الخلائق وهو رئيس لقبيله وجنده وهم كثرة يفوقون عدد الجن والإنس ، ولا حرج فى ذلك فإن ملك الموت موكل بقبض الأرواح وله قدرة على قبض جميع من جاء أجلهم فى وقت واحد سواء كانوا فى الشرق أو فى الغرب ، وقد يقوم إبليس بمهمته بنفسه وبوساطة أعوانه وجنده من الشياطين والأبالسة يمدهم بعلمه وتفننه فى غواية الناس وتجاريبه على مر الأحيان ، ولكل من بنى الانسان قرين من الشياطين يزين له فعل السوء ويمكر به ويجره إن استطاع إلى الكفر ليبوء معه بعذاب النار قال الله سبحانه وتعالى (فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) وقال تعالى (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا) ولم يؤمن من الشياطين أحد إلا قرين رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزة وتكريما حتى لا يرافقه كافر .

(٤) آية ٢٧ الأعراف .

وخفاء الشيطان ينكر وجوده كثير من الذين لايؤمنون لأن حياته كلها فتنة ؛ وقال بعض الذين لايعلمون إنه رمز للشر وتخويف منه بلا وجود لذاته وهؤلاء يكذبون صريح القرآن ومن أنكر وجوده وظن هذا الظن بغير علم ولا بينة فليحذر غضب الله « إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً »(١) وذلك أيضا من فتنة اللعين حتى يصل بهم إلى الكفر بالله وآياته .

ولقد بدت عداوة إبليس لآدم عند ماخلقه الله وشرفه بالعلم واختاره خليفة فى الأرض وأمر الملائكة بالسجود له تشريفا له وإذعانا وعبودية لأمر الله سبحانه وتعالى فلم يذعن إبليس لأمر الله وذلك تقدير العزيز العليم ؛ قال الله سبحانه وتعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ . قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ . قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ . وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ . فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ . قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا

---

(١) آية ٢٨ النجم

وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ . يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ »(١) .

وقد بين الله سبب عداوة إبليس لآدم وبنيه بأنها كانت حسداً وحقداً . لأن الله شرفه وعلمه علما لم تعلمه الملائكة مع كثرة علومهم وشرف جنسهم ولطافة خلقهم وعظيم قدرتهم التى أمدهم الله بها فى حقيقة خلقتهم فى قوله سبحانه وتعالى : « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »(٢)(٣) .

---

(١) آية ١١ — ٢٦ الأعراف . (٢) من آية ٣١ - ٣٧ البقرة

(٣) ولما كان جدنا العالم الربانى الجامع لمعانى الشريعة والحقيقة الشيخ أحمد الحلوانى المتوفى سنة ١٣٠٨ هجرية قد استوفى البحث فى موضوع هذه الآية فى الفصل الثالث من كتابه [مواكب ربيع فى مولد الشفيع] المطبوع فى المطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٤ هجرية أردنا أن تثبت هنا الباب كله بنصه لزيادة الفائدة قال فى صحيفة ٥٨ : وعلم آدم الأسماء كلها بعد طواف الملائكة به فى السموات كما اقتضاه كلام الثعلبى وذلك بطريق الالهام أو سماع الكلام الأقدس أو على لسان ملك لم يكلفه الإنباء وهو جبريل كما قاله القرطبى . قيل : أسماء ذريته . وقيل : أسماء الملائكة . وقيل : أسماء النجوم فأل عهدية على هذه الأقوال . وقيل : أسماء كل شىء من رفيع أو وضيع فأل استغراقية وهذا قول ابن عباس ومجاهد وهو الراجح المتبادر من لفظ الأسماء كلها ، ثم المراد

... ...

بالأسماء قبل النعوت والصفات والخواص إذ الاسم العلامة وهذه علامات دالة على الماهيات فما زال يعبر عنها بالأسماء، ورد بأنه لم يعهد إطلاق الاسم على مثله حتى يفسر به النظم ولكن تعورف إطلاقه على اللفظ الموضوع لمعنى مفرداً كان أو مركبا أو اسما اصطلاحيا أو فعلا أو حرفا كذلك جوهرا كان معناه أو معنى لأن اللفظ علامة معناه ودليله الذى يسميه من حضيض الجهل إلى ذروة التعقل؛ فالأسماء هى الألفاظ الموضوعة للمعانى مطلقا وهذا يستلزم الأول إذ العلم بالألفاظ من حيث الدلالة متوقف على العلم بالمعانى فلا التفات إلى ما قيل إنه إنما علم الألفاظ دونها وإن وافقه ظاهر قول البوصيرى :

لك ذات العلوم من عالم الغيـ ب ومنها لآدم الأسماء

إذ المراد بذات العلوم التى هى مرجع الضمير فى ومنها نفس ما علمه صلى الله عليه وسلم من الأسماء ومدلولاتها كما فى حديث « عرضت على أمتى البارحة لدى هذه الحجرة أولها وآخرها ، فقيل: يارسول الله عرض عليك من خلق فكيف من لم يخلق ؟ فقال صوروا لى فى الطين حتى إنى لأعرف بالانسان منهم من أحدكم بصاحبه» رواه الطبرانى والضياء المقدسى، وفى خبر« مثلت لى أمتى فى الماء والطين وعلمت الأسماء كلها كما علم آدم الأسماء كلها » رواه الديلمى والحاكم . وذكر الفخر وغيره أن آدم عليه السلام علمها بجميع اللغات المختلفة من العربية والسريانية والعبرانية والفارسية والزنجية وغيرها ، وأن ولد آدم كانوا يتكلمون بها فلما مات آدم وتفرقوا فى نواحى العالم تكلمت كل طائفة بلغة معينة فلما طالت المدة نسيت ما عداها . وأخرج ابن أشتة عن كعب الأحبار أن أول من كتب الكتاب العربى والسريانى والكتب كلها آدم عليه السلام قبل موته بثلثمائة سنة كتبها فى طين وطبخه فلما أصاب الأرض الغرق وجد كل قوم كتابا فكتبوه فأصاب إسماعيل الكتاب العربى . وفى رواية أن آدم عليه السلام كان يرسم الخطوط بالبنان وكان أولاده تتلقاها بوصية منه وبعضهم بالقوة القدسية القابلية . وذكر عبد الملك بن حبيب أن اللسان الأول الذى نزل به آدم من الجنة كان عربيا فلما طال العهد حرف وصار سريانيا .
قلت : نسبة إلى أرض سوريانة أو سورى كطوبى موضع بالعراق وهو أرض الجزيرة التى كان بها نوح وقومه قبل الغرق ، وقيل نسبة إلى السر لأن الله لما علمها له أسرها عن الملائكة ، قال ابن حبيب وكان السريانى يشاكل العربى إلا أنه محرف ، قال وكان لسان جميع من فى سفينة نوح إلا رجلا واحدا يقال له جرهم فكان لسانه العربية فلما خرجوا من السفينة تزوج إرم بن سام بعض بناته فصارت العربية فى ولده وبقيت السريانية فى ولد أرفخشذ بن سام إلى ان تعلموا العربية من بنى إسماعيل هذا كلامه هرولة، وقال ابن عباس : كانت لغة آدم فى الجنة العربية فلما أكل من الشجرة سلبها الله منه فتكلم بالسريانية فلما تاب رد الله عليه العربية، أخرجه ابن عساكر ويؤخذ هذا من خبر «أحبوا العرب لثلاث لأنى عربى والقرآن عربى وكلام أهل الجنة عربى» رواه

... ...

الطبرانى والبيهق وغيرهما لكنه ضعيف وقيل موضوع ، حتى ذكر الغوث الدباغ من طريق كشفه أنه لم يرد وأن لسان أهل الجنة هو السريانية وأن آدم كان يتكلم بها فيها وبعد هبوطه . قلت : لكن الذى أشعر به صنيع السيوطى ضعف الحديث لا وضعه ، ولاينافيه قول الغوث إنه لم يرد فانه باعتبار الواقع ، وحكم أهل الحديث بالضعف أو غيره باعتبار رجال السند فربما حكموا بضعف الحديث مثلا والواقع خلافه وعكسه، على أنه إن كان موضوعا عند أهل الحديث أيضا فلم يصلح للتأييد. بقى ماهو عن ابن عباس سالما من الحكم بوضعه ولا يتدافع معه ماذكره الغوث أيضا فى خصوص آدم عليه السلام لإمكان الجمع بأن السريانية كانت غالبة على آدم فى الدنيا والعربية كانت غالبة عليه فى الجنة فلامنافاة والله اعلم بحقيقة ذلك. ثم الضمير المستتر فى (ثم عرضهم على الملائكة) لله تعالى والبارز للمسميات المدلول عليها بالأسماء ضمنا وفيه تغليب العقلاء كما فى : والله خلق كل دابة من ماء فمنهم وقرئ عرضهن وعرضها على الأصل وفى الحديث أنه تعالى عرضها أمثال الذر وظاهره استواء الأعيان. والمعانى كالفرح والترح فى ذلك. ولابعد فيه فقد قرر بعض المحققين : أن المعانى فى عالم الملكوت متشكلة بحيث ترى وسيأتى فى عالم المثال أن فيه لكل مخلوق ولو معنى من المعانى مثالا فسقط قول بعضهم هذا ظاهر فى المسميات التى هى أعيان؛ وأما التى هى معان فألهمهم إياها حتى فهموها دون أسمائها، وقول بعضهم بهذا فى الأعيان أيضا كما سقط استظهار الشهاب متخلصا من ذلك أن معنى عرضها عليهم إخبارهم بما سيوجده من قولك عرضت أمرى على فلان إذا أخبرته به إلى آخر ما أطال به ، ومن هنا تعرف كيف علم آدم حقائق المسميات ثم كأنه تعالى علمه منها وعرض على الملائكة كذلك أنموذجا يعرف به الباقى وإلا فالتفصيل لا يحيط به إلا الله تعالى ؛ ثم قال تعالى تعجيزا لهم : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين أى فى زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة وأنى لا أخلق خلقا إلا أنتم أعلم منه وأفضل فقد روى ابن جرير عن ابن عباس وغيره أنهم قالوا لن يخلق الله خلقا أكرم عليه منا ولا أعلم فاعترفوا بالعجز و (قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم) فجعل يدعو كل شىء باسمه وهو يمر بين يديه يقول هذه ناقة جمل بقرة نعجة شاة إلى آخرها ويقول وهو من خلق ربى فكل شىء سمى آدم فهو اسمه إلى يوم القيامة (فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون) أى من قولكم أتجعل فيها من يفسد فيها الخ (وما كنتم تكتمون) أى من استبطانكم أنكم أحقاء بالخلافة وقولكم لن يخلق الله الخ . أو ما تبدون ما أظهرت الملائكة من الطاعة وما كنتم تكتمون ما أسر إبليس من المعصية كما مر . فان قلت : إذا لم تعرف الملائكة الأسماء فكيف عرفوا أنه أصاب فيما ذكره من أن هذه أسماء هذه ؟ قلت : يجوز أنهم عرفوا إصابته من قرينة أمره تعالى له بالإنباء فى مقام إظهار فضله . أجاب الفخر بأنه ربما كان لكل صنف منهم لغة وكان كل صنف جاهلا بلغة غيره ثم حضروا جميعا وعد عليهم اللغات

... ...

بأسرها فعرف كل صنف إصابته فى لغته خاصة وهم بأسرهم عاجزون عن معرفة اللغات بأسرها [الفصل الرابع] وأمر تعالى الملائكة المقول لهم (إنى جاعل فى الأرض خليفة) وقدمر الخلاف فيهم بالسجود لآدم وذلك بعد إنبائه بالأسماء لآية (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) إذ سياقها بعد ذكر الإنباء يشعر بذلك مع ان الأمر فيها منجز والفاء تعقيبية وذلك يقتضى ما ذكر أيضا . وقيل عقب خلقه بدليل (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) إذ الأمر غير تنجيزى والفاء تعقيبية ، ورد بأنها جوابية لا تقتضى التعقيب كما فى (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا) فانه لا يجب السعى عقبه ، وقيل وقع الأمر بالسجود مرتين مرة عقب خلقه ومرة بعد إنبائه ، ورده النقاش بأنه لم يقل به أحد وادعى آخرون أنه مشهور (فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر) وأول من سجد منهم قال جعفر الصادق رضى الله عنه جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم عزرائيل ثم الملائكة المقربون أى ثم سائر الملائكة ، ونحوه قول وهب بن منبه: أول من سجد لآدم جبريل فأكرمه الله بانزال الوحى على النبيين خصوصا على سيد المرسلين ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم عزرائيل ثم سائر الملائكة ، وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أول من سجد إسرافيل، قال النقاش ولذا جوزى بتوليه اللوح المحفوظ أى بأن ينقل منه للملائكة مثلا. وقيل رفع رأسه وقد ظهر القرآن كله مكتوبا على جبهته كرامة له ، وجمع الشبراملسى بأن أول من سجد بالامتثال جبريل وبالفعل إسرافيل قال الزرقانى وفيه وقفة . قلت : لاوقفة فهو إحتمال يكفى فى الجمع وامتثال الأمر قد يكون قبل الفعل فلا يبعد هنا لا سيما إذا قلنا إن الأمر وقع مرتين.

واختلف هل كان السجود قبل دخوله الجنة أو بعده وهل كان فى الأرض أو السماء؟ ومقتضى الظاهر من أن الساجد جميع الملائكة أنه كان من ملائكة الأرض فيها ومن ملائكة السموات فيها والله أعلم . وكان يوم الجمعة من وقت الزوال إلى العصر كما قاله ابن عباس وكأنه غير يوم الجمعة الذى خلق فيه، فقد روى أنه خلق آخر ساعة منه وأنه كان مقدار ألف سنة . وفى المشكاة أنهم مكثوا ساجدين مائة سنة وقيل خمسمائة سنة وكان كسجود الصلاة كما قاله الجمهور لأنه المتبادر من عرف الشرع ولآية (فقعوا له ساجدين) إذ الوقوع السقوط، فما قيل إنهم تذللوا وانحنوا فقط كما يفعل للعظماء حملا للسجود على معناه اللغوى فيه نظر وكان لله تعالى وآدم قبله فمعنى اسجدوا لآدم اسجدوا إليه كما يقال صلى للقبلة ، أى إليها هذا ما حكى القرطبى الاتفاق عليه وبحث فيه بأنه لو كان لله لما امتنع إبليس إذ لا فرق بين كون آدم قبلة وغيره وبأن كونه قبلة لا يدل على تفضيله عليهم بدليل أن الكعبة ليست أفضل من نحو الأنبياء الساجدين إليها مع أن قول إبليس (أرأيتك هذا الذى كرمت على) يدل على التفضيل وأن المسجود إليه أعظم حالا من الساجد، ولك أن تقول الذى اقتضى تفضيله تخصيصه بجعله قبلة دونهم لمناقبه ككمله وكونه أبا الأنبياء لا كونه قبلة فقط (وقال) الحسن الأصح أنه كان تحية وتكرمة له على الخصوص كسلامهم عليه وكذا كان سجود إخوة يوسف له وقد كانت الأمم تفعل ذلك كما يحى المسلمين بعضهم بالسلام ولذا أراد الجاثليق

... ...

أى رئيس النصارى حين دخل على علىّ كرم الله وجهه أن يسجد له، فقال اسجد لله ولا تسجد لى (قلت) وهذا ليس بغريب منه بالنسبة لمنعه أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم الصحابية رضى الله عنها وهو فى بطنها من السجود للصنم كما أرادت أن تسجد له فلذا قيل له كرم الله وجهه فإنه كرم وجهها أن يسجد لغير وجه الله الكريم، وقيل بل لأنه لم يسجد للصنم قط، وقيل بل لأنه لم ير عورة أحد قط، وكان كرم الله وجهه يقول لأن أنشر بمنشار أحب إلىّ من أن أرى عورة أحد أو أن يرى أحد عورتى. وبالجملة فسجود التحية إنما منع فى شرعنا كما فى حديث «لو أمرت أحدا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها» . (واختلف) فى علة السجود لآدم : (فقيل) كان لكون النور المحمدى فى جبينه وهذا ماعلمه المحققون وقد استفاض جدا حتى قال سيدى على وفا رضى الله عنه :

لو أبصر الشيطان طلعة نوره	فى وجه آدم كان أول من سجد
أو لو رأى النمروذ نور جماله	عبد الجليل مع الخليل وما عند
لكن جمال الله جل فلا يرى	إلا بتخصيص من الله الصمد

وقال بعضهم

يا بنى الزهراء لا لقيتم	أبد الآباد سوءا من أحد
سركم لاح بمعنى آدم	فلذا كل إليه قد سجد

(وقيل) كان لكونه كان فى أحسن تقويم (وقيل) كان اختياراً لهم وامتحانا (وقيل) كان اعتذارا عن نحو قولهم أتجعل فيها إلى آخره (وقيل) كان لظهور فضله عليهم بالعلم وقضاء لحق التعليم، ولا يرد أنه لو كان ظهر فضله بالعلم والتعليم لما أبى إبليس ولا استكبر لأن لك أن تقول إنه فعل ذلك جهلا أو عنادا وهذان قولان لأهل السنة فى كفره ومن قال كفر جهلا قال سلب العلم حين كفر ومن قال كفر عنادا قال كفر ومعه علمه وليس ببعيد مع الخذلان نعوذ بالله منه (وزبدة) القول فيه أنه كان اجتهد فى العبادة حتى لم يترك من السموات والأرضين موضع شبر إلا سجد فيه حتى سمى طاوس الملائكة فقال إلهى هل بقى موضع لم أسجد فيه؟ فأمره أن يسجد لآدم فقال أتفضله علىّ وأنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين والنار خير من الطين وأنور، وجهل أن فى جوهر النار الطيش والتعالى وفى جوهر الطين الوقار والتواضع فقال تعالى أنا أفعل ما أشاء فرأى لنفسه شرفا فولى آدم ظهره أنفة وكبرا وانتصب قائما إلى أن سجدت الملائكة المدة المارة فلما رفعوا رؤوسهم ورأوه لم يسجد وهم قد وفقوا للسجود سجدوا ثانيا شكرا وهو قائم يرى معرضا عنهم غير عازم على الاتباع ولا نادم على الامتناع وهذا شأنه بعد، فقد جاء أنه قيل له من قبل الحق على لسان موسى اسجد لقبر آدم أقبل توبتك وأغفر معصيتك فقال بعد ما أظهر الغضب ماسجدت لقالبه وجثته فكيف أسجد لقبره وميتته؟

(وجاء) أن الله تعالى يخرجه على رأس مائة ألف سنة من النار ويخرج آدم من الجنة ويأمره بالسجود

... ...

لآدم فيأبى ثم يرده إلى النار (ولما) أبى مسخه الله تعالى من الصورة البهية فنكسه كالخنزير وجعل رأسه كرأس البعير وصدره كسنام الجمل الكبير ووجهه بينهما كوجه القردة وعينيه مشقوقتين فى طول وجهه ومنخريه مفتوحتين ككوز الحجام وشفتيه كشفتى الثور وأنيابه كأنياب الخنزير فى لحيته سبع شعرات فما أقبح تلك اللحية التى فيها السبعة وطرده من الجنة بل من السماء بل من الأرض إلى الجزائر فلا يدخل الأرض إلا خفية ولعنه إلى يوم الدين لأنه صار من الكافرين لا لمجرد ترك السجود إذ مجرد المعصية بلا مكفر لا يوجب الكفر « فلا نكفر مؤمنا بالوزر » بل لتعاظمه على أمره تعالى واستقباحه إياه بنسبته إلى الجور ومخالفة الحكمة إذ يسجده لمن هو دونه فى زعمه هذا إلى ما ارتكبه من تحقيره آدم وحقده عليه وحسده له وترك السجود له ودعوى الخيرية التى أشار الحق تعالى إلى أن كل من تبعه فيها طرده من رحمته نعوذ بالله من ذلك ، وبعد فقد قضى عليه من لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه أزلا أن يكون من المخذولين بل إمامهم فأين المفر ؟ (وانظر) كان بهى الصورة رباعى الأجنحة كثير العلم كثير العبادة طاوس الملائكة واعظهم سيد الكروبيين سيد الروحانيين خازن الجنة إلى غير ذلك فلم يغن ذلك عنه شيئا إن فى ذلك لذكرى (وفى الأثر) لما مكر بإبليس بكى جبريل وميكائيل فقال الله لهما وما يبكيكما ؟ قالا ربنا ما أمنا من مكرك فقال تعالى هكذا كونا لاتأمنا مكرى . (قيل) كان إبليس يجد فى كل موضع سجدة مكتوبا : طرد إبليس لعن إبليس خزى إبليس فيتعجب ويقول من هذا إبليس المطرود ولم يدر أن الشقاء سابق عليه ، نعوذ بالله تعالى من ذلك (وروى) أنه رأى على حلقة باب الجنة مكتوبا إن لى عبداً من جملة المقربين آمره فلم يمتثل أمرى بل يقصر ويعصى فأطرده عن بابى وألعنه وأجعل طاعته وعبادته هباء منثوراً ، فقال إبليس يارب أئذن لى أن ألعنه فأذن له فلعنه ألف سنة وهو لا يعرف أنه الملعون (وفى رواية) أن إسرافيل عليه السلام نظر فى اللوح المحفوظ فرأى مثل ذلك فبكى حتى رحمته الملائكة . فاجتمعوا وسألوه عن بكائه فقال اطلعت على سر من أسرار ربى وقص عليهم القصة فبكت الملائكة بأجمعهم وصاحوا لا تدبير لنا سوى أن نذهب إلى عزازيل فإنه مجاب الدعوة ومن جملة المقربين فنسأله أن يدعو الله تعالى فيستجيب دعاءه ، فجاءوا إليه فأخبروه فرفع يديه وقال يارب آمنهم من القطيعة فدعا لهم ونسى نفسه فاستجاب دعاءه فى حقهم ورقمه برقة الشقاء (وقال كعب الأحبار) كان اسمه فى سماء الدنيا العابد . وفى الثانية الزاهد . وفى الثالثة العارف . وفى الرابعة الولى . وفى الخامسة التقى . وفى السادسة الخازن . وفى السابعة عزازيل . وفى اللوح المحفوظ إبليس وهو غافل عن عاقبة أمره (ولفظ إبليس) أعجمى على الصحيح لا عربى من الابلاس أى الابعاد، وأما اسمه العربى فقيل الحكم وقيل قترة والمشهور أنه الحارث وهو معنى اسمه عزازيل وهو عبرانى ، وقيل سريانى ويكنى أبا كردوس كعصفور وأبا قترة وأبامرة بابنه الذى

... ...

يزين اللواطة للناس، وأبا العمر لطول عمره فإنه لما لعن استمهل إلى يوم البعث وهو وقت النفخة الثانية التى يحيا عندها كل ميت وغرضه بذلك أن يجد فسحة فى إغواء الآدميين ليفسدهم كما فسد بسببهم وأن لا يموت لانقطاع الموت بالنفخة الأولى التى يموت عندها كل من يموت فأمهل لكن لا إلى البعث وقت النفخة الثانية بل إلى الوقت المعلوم وقت النفخة الأولى وبينها وبين الثانيـة أربعون سنة فهى مدة موته (وعن) وهب ان الوقت المعلوم هو يوم بدر قتلته الملائكة فيه (وفى) رواية أنه بعد نزول عيسى وفراغه من صلاته فيقتله ويرى المسلمين دمه فى حربته (وقيل) إنه وقت خروج الدابة فإذا خرجت وطئته فقتلته والمشهور الأول، ولم يكن إمهاله كرامة له بل زيادة فى شقاوته وعذابه (إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين) وابتلاء للخلق به (لايسئل عما يفعل) (وفى) الملل والنحل للشهرستانى أن إبليس قال للملائكة إنى أسلم أن لى إلها هو خالق وخالق الخلق لكن لى على حكمته أسئلة سبعة (الأول) ما الحكمة فى الخلق لا سيما كان عالما بأن الكافر لايستوجب عند خلقه إلا الآلام؟ (الثانى) ثم ما الفائدة فى التكليف مع أنه لا يعود اليه منه ضر ولا نفع وكل ما يعود على المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسـطة التكليف؟ (الثالث) هب أنه كلفنى بمعرفته وطاعته فلماذا كلفنى بالسجود لآدم؟ (الرابع) ثم لما عصيته فى ترك السجود لآدم فلم لعننى وأوجب عقابى مع أنه لا فائدة له ولا لغيره فيه ولى فيه أعظم الضرر؟ (الخامس) ثم لما فعل ذلك فلم مكننى من الدخول إلى الجنة ووسوست له؟ (السادس) ثم لما فعلت ذلك فلم سلطنى على أولاده ومكننى من إغوائهم وإضلالهم؟ (السابع) ثم لما استمهلته المدة الطويلة فلم أمهلنى — ومعلوم أن العالم لو كان خاليا من الشر لكان ذلك خيرا؟ (فأوحى) الله تعالى إليه من سرادقات الجلال والكبرياء يا إبليس إنك ما عرفتنى ولو عرفتنى لعلمت أنه لا اعتراض على فى شىء من أفعالى فإنى لا أسئل عما أفعل (قال) الفخر لو اجتمع الأولون والآخرون من الخلائق وحكموا بتحسين العقل وتقبيحه لم يجدوا من هذه الشبهات مخلصا وكان الكل لازما ما لم نجب بجوابه تعالى انتهى (وروى) أن إبليس سأل الشافعى رضى الله عنه ما قولك فيمن خلقنى كما اختار واستعملنى فيما اختار وبعد ذلك إن شاء أدخلنى الجنة وإن شاء أدخلنى النار أعدل فى ذلك أم جار؟ فنظر فى كلامه ثم قال يا هذا إن كان خلقك لما تريد أنت فقد ظلمك وإن كان خلقك لما يريد هو فلا يسئل عما يفعل وهم يسئلون، فاضمحل إلى أن صار لا شىء ثم قال والله ياشافعى لقد أخرجت بمسئلتى هذه سبعين ألف عابد من ديوان العبودية إلى ديوان الزندقة (وعن) مجد الدين بن سعد الكوفى رضى الله عنه أن إبليس لقى موسى عليـه السلام على جبل الطور أواخر عمره، فقال له موسى بئس ما صنعت بنفسك بامتناعك من السجود لآدم عليه السلام فلم فعلت ذلك؟ فقال لأنى كنت ادعيت محبته تعالى فلما توجه السجود لغيره امتنعت ورأيت العقوبة فى الدنيا والآخرة أحب إلى من كذبى فى دعواى بالسجود والخضوع لغير من ادعيت محبته وكذلك أنت يا موسى لما ادعيت محبته

....

تعالى امتحنك وقال انظر إلى الجبل فلما نظرت اليه ناقشك فى دعواك المحبة له إذ المحب لايلتفت لغير محبوبه ولو أنك كنت غمضت عينيك عن النظر إلى الجبل وعلمت أن ذلك مكيدة لكنت رأيت ربك فإنه حقيق أن لايراه إلا من عمى عمن سواه انتهى (قال) العلامة الأمير وقد كذب أولا فإنه ما امتنع من السجود إلا كبراً وثانياً بعد أن قيل لموسى لن ترانى كيف يصح فهمه وثالثا فإن موسى لا يخالف ربه انتهى. (واختلف) هل كان من الملائكة ؟ (قال الجمهور) نعم وصححه الغورى بأنه لم ينقل أمر غيرهم بالسجود مع أن الأصل فى الاستثناء الاتصال، والفخر بأنه لولم يتناوله قوله (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) لاستحال أن يكون تركه السجود إباء وعصيانا لا يقال يجوز أن يكون عصيانه لكونه خالف أمرا آخر غير اسجدوا لم يحك فى القرآن بدليل ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك، لأنا نقول إنه لما ذكر أنه أبى عقب قوله (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا) أشعر بأن هذا الإباء إنما حصل بسبب مخالفة هـــذا الأمر لا بسبب مخالفة أمر آخر (فإن قلت) فما تصنع فى آية (إلا إبليس كان من الجن)؟ (قلت) يجوز كما قيل أن يكون من الجن فعلا ومن الملائكة نوعا أومن الملائكة الذين يسمون الجن لأنهم كانوا خزنة الجنة كما مر وهؤلاء قال ابن عباس إنهم يتوالدون ، وقال ابن مسعود إنهم خلقوا من مارج نار السموم الذى يقال له لسان النار وهو يعلو منها إذا التهبت بلا دخان فلا يرد أن إبليس له ذرية كما فى آية (أفتتخذونه وذريته) والملائكة لا ذرية لهم ولا أنه مخلوق من النار والملائكة مخلوقون من غيرهـا كالنور والريح والماء والثلج (فإن قلت) قوله كان من الجن يشعر بتعليل تركه السجود بكونه جنيا ولا يمكن تعليل ذلك بكونه خازنا للجنة (قلت) يجوز أن يكون محل التعليل قوله ففسق الخ وأما قوله كان من الجن أى من الملائكة خزان الجنة فإنما هو موطىء له أشير به إلى أنه لاينبغى الركون إلى حسن البداية فإن الأعمال بالخواتيم (فإن قلت) الملائكة معصومون من المعصية (قلت) الاتفاق إنما وقع على عصمة الرسل منهم وفى غيرهم خلاف فذهب ابن عباس فى طائفة إلى عدم عصمة هذه الطائفة التى منها إبليس وإن كان الغالب فيهم العصمة على ان عصمة الملائكة مشروطة بدوامهم على صفة الملكية أما بعـــد سلبها فيمكن أن يخالفوا كهاروت وماروت (وذهبت) المعتزلة فى طائفة إلى أنه ما كان من الملائكة طرفة عين وإنما هو من الجن (قيل) سبته الملائكة منهم إلى السماء لما حاربوهم وهذا يأباه ما مر من أن إبليس كان رئيس أولئك الملائكة الذين حاربوا الجن وهؤلاء قد استدلوا بظاهر الآية ثم ذكروا فى الاستثناء وجوها (الأول) أنه كان مخالطا للملائكة مغمورا بالألوف منهم فغلبوا عليـه فالاستثناء متصل بهذا الاعتبار (ورده) الفخر بأن المخالطة لا توجب تكليفه بما كلفوا به حتى يكون عاصيا بالمخالفة ولذا قالوا فى أصول الفقه إن خطاب الذكور لا يتناول الاناث وبالعكس مع شدة المخالطة بينهما وأيضا شدة المخالطة بينه وبينهم لم تمنع اقتصار اللعن عليه فكيف تمنع اقتصار ذلك التكليف عليهم ، على أن

... ...

التغليب خلاف الأصل وإنما يصار إليه عند الضرورة على أنه إنما يجوز إجراء حكم الكثير على القليل إذا كان ذلك القليل ساقط العبرة غير ملتفت إليه فى الكلام أما إذا كان معظم الحديث لا يكون إلا فيه لم يجز إجراء حكم غيره عليه (الثانى) أن المأمور بالسجود الملائكة والجن معا كما ذكره البيضاوى احتمالا أو جميع العالم الموجودين إذ ذاك كما حكاه ابن عقيل فى تفسيره قولا، وخص الملائكة بالخطاب لشرفهم فاستغنى بذكرهم عن ذكر غيرهم لأنه إذا علم أن الأكابر مأمورون بالتذلل لأحد فالأصاغر أولى فكأنه قيل فسجد المأمورون كلهم إلا إبليس فالاستثناء متصل أيضا بهذا الاعتبار والفرق بين التغليب فى هذا وبينه فى الوجه السابق أنه فى هذا على الجن أو العالم الشامل لإبليس وفى السابق على إبليس فقط وفيه مامر (الثالث) أن الاستثناء منقطع مثله فى (لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما) (ورده الفخر) بأن تخصيص العموم فى القرآن أكثر من حمل الاستثناء على المنقطع قال فكان قولنا أولى انتهى (لكن) رجح السيوطى الثانى بأنه الذى دلت عليه الآثار، ومن الغريب ما قيل إنه خلق منفردا من النار لا من الملائكة ولا من الجن فالأقوال ثلاثة (ثم) المشهور الذى ذهب إليه الأكثرون أنه أبو الجن وقيل هو أبو الشياطين وليسوا من الجن فالغالب على الجن عنصر الهواء وعلى الشياطين عنصر النار لكن التحقيق أنهم عصاة الجن وفى الحديث «لما أراد الله أن يخلق لإبليس نسلا وزوجة ألقى عليه الغضب فطارت منه شظية (بمعجمة فمثالة بزنة عطية) فخلق منها امرأته» قيل واسمها طرطبة بضم الطاءين وسكون الراء وتشديد الموحدة وظاهره أن ذريته منها (وقال) النقاش بل هى حاضنتهم ومقتضاه أن ذريته من غيرها (وفى) رواية أنه خلق له فى فخذه اليمنى ذكرا وفى فخذه اليسرى فرجا فهو ينكح هذا بهذا فيخرج له كل يوم عشر بيضات يخرج من كل بيضة سبعون شيطانا وشيطانة فهذه الرواية تؤيد ذلك (لكن) فى عقد المرجان أنها رواية شاذة قال وكذا رواية أنه يدخل ذكره فى دبره فيخرج منه الولد وفى هذه الرواية أنه أول من لاط لما هبط من الجنة فردا لا زوجة له فلاط بنفسه (وقال) محمد بن إسحاق بلغنى أن إبليس تزوج الحية التى دخل فى فمها حين كان آدم بعد ما أخرج من الجنة قال فمنها ذريته (وقيل) ليس إبليس أبا الجن لأنهم كانوا قبله وإنما هو أول من عصى وصححه الشعرانى فى اليواقيت وتبعه الشرقاوى فى شرح الورد وعلى هذا فقيل أبوهم يسمى الجان وقيل يسمى شوميا (فعن) ابن عباس لما خلق الله شوميا أبا الجن وهو الذى خلق من مارج من نار قال تبارك وتعالى تمن . قال أتمنى أن نرى ولا نرى وأن نغيب فى الثرى وأن يصير كهلنا شابا قال فأعطى ذلك فهم يرون ولا يرون وإذا ماتوا غيبوا فى الثرى ولا يموت كهلهم حتى يعود شابا (قال) فى عقد المرجان وعلى هذا يمكن حمل قول من يقول بأن إبليس أبو الجن على أبوة الرياسة فإن إبليس كان رئيس خزنة الجنة المسمين بالجن المخلوقين من نار السموم المخلوق منها شوميا أبو الجن انتهى (لكن) قال مجاهد قال إبليس

وقد أكد الله للإنسان عداوة الشيطان بقوله تعالى : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ »[١] وقوله تعالى : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا »[٢] وحذر الله من اتباعه بقوله : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »[٣] وقال تعالى : « وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا »[٤] وقال تعالى : « وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا »[٥] ولا يزال الشيطان وجنده بما جبلوا عليه من العداوة لآدم وبنيه يزينون لهم الفحشاء والمنكر والكفر والفسوق والعصيان ليبوءوا بعذاب النار كما باء بغضب الله وعنادا لربه ، أى انظر هذا الذى فضلت علىّ وذريته لا يستحقون هذه النعمة التى أوليتهم إياها ومقتنى من أجلهم « وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ »[٦] . فلعنة الله على إبليس وقبحه كم زين للناس المنكر وأمرهم بالفحشاء وأثقل صدورهم بالهموم وكلفهم ما لا يعنيهم ، وقد قال أبو نواس فى كبر إبليس وقبحه :

جعل لنا أربع نرى ولا نرى ونخرج من الثرى ويعود شيوخنا شبابا فهذا مع ذاك يفيد أن شوميا هو إبليس فلا يكون بين القول بأن أباهم شوميا والقول بأنه إبليس تغاير وما أولاه لعنة الله بالشؤم المشئوم من هذا اللفظ وصريح كونهم إذا ماتوا غيبوا فى الثرى أن التغييب هو الدفن فيه لا الغوص والنفوذ مع أن كلام مجاهد كالصريح فى هذا وهو الذى على ألسنة العامة (وقد) أذكرنى عود شيخهم شابا ما ذكره السحيمى على عبد السلام فى صفة الخضر عليه السلام من أنه يصير شابا بعد كل مائة وعشرين سنة هذا مع أنه من الإنس على الصحيح لا من الملائكة كما قيل بل فى السحيمى أيضا أن الصحيح أنه ابن آدم لصلبه وهو مروى عن ابن عباس لكنه ضعيف منقطع كما قاله الحافظ والأصح أنه ابن ملكان بفتح الميم وسكون اللام ابن فالغ بن شالخ بن أرخشذ بن سام بن نوح ؛ والخضر لقبه ويكنى أبا العباس وأما اسمه العلم فالأصح أنه بليا بفتح الموحدة ، وسكون اللام فتحتية فألف ومعناه بالعربيـة أحمد ، وقد ذكر بعض العارفين أن من عرف اسمه ولقبه وكنيته واسم أبيه مات على الإيمان والله أعلم .

(١) آية ٥ يوسف .　(٢) آية ٦ فاطر .　(٣) آية ٢١ النور .
(٤) آية ٨٣ النساء .　(٥) آية ٣٨ النساء　(٦) آية ١٧ الأعراف .

عجبتُ مِن إبليسَ فى كِبرِه　　وخُبثِ ما أضمرَ فى نِيّتِه
تاهَ عَلَى آدمٍ فى سَجدةٍ　　وصارَ قوّادًا لِذُرِّيّتِه

وقال زين الدين عمر بن الوردى فى تزيين إبليس وفحشه :

نمت وإبليس أتى　　بحيلة منتدبه　　فقال ما قولك فى　　حشيشة منتخبه
فقلت لا قال ولا　　خمرة كرم مذهبه　　فقلت لا قال ولا　　مليحة مطيبه
فقلت لا قال ولا　　أغيد بالبدر اشتبه　　فقلت لا قال ولا　　آلة لهو مطربه
فقلت لا قال فنم　　ما أنت إلا حطبه

ولقد أمعن إبليس اللعين فى غواية الناس وهو يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى الجسد لايقف عند حد ، وقد مرن على ذلك من أول الخليقة وعلم كيف يغوى ، واسع الحيلة فى عمله لم يترك عالما ولا ذكيا لبيبا ، ولا وليا ولا نبيا ولا مرسلا إلا تخابث له ، وهو يظهر ويتشكل إذا أعجزه ابن آدم بكثرة الذكر ومراقبة الله سبحانه وتعالى فى السر والعلن ، لأنه عند ذلك لايستطيع الوسوسة فى صدره فيتشكل لأن ذلك أدعى للالتباس والحيلة ؛ ولم يتورع أن يظهر للأنبياء والرسل ، وسُلِّطَ عليهم ليبين الله للملأ فضلهم وقوة رشدهم وأن لاسلطان له عليهم ولا على الذين يؤمنون بالله « إنَّ عِبادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ »(١) .

روى مسلم فى صحيحه : « قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ يُصَلِّى فَسَمِعَهُ صَحْبُهُ يَقُولُ : أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ . ثُمَّ قَالَ : أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ وَبَسطَ يدَهُ ثَلاثًا كأَنَّهُ يَتَناوَلُ شيئًا . فَلمَّا فرَغَ مِنَ الصَّلاةِ ؛ قَالَ صَحْبُهُ لَهُ : يَارَسُولَ اللهِ قَدْ سَمِعْنَاكَ تقولُ فِى الصَّلاةِ شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْكَ تَقولُهُ مِنْ قَبلُ ورَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ . قَالَ إنَّ عَدُوَّ اللهِ إبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِى وجْهِى فَقُلْتُ : أَعُوذُ بِاللهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ قُلْتُ أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ التَّامَّةِ فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ ، وَوَاللهِ لَوْلاَ دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ المَدِينَةِ » .

---

(١) آية ٤٢ الحجر .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ صلىَّ اللهُ عليه وسلم بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فَقَالَ إِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ ، قَالَ نَخَلَّيْتُ عَنْهُ ، فَأَصْبَحْتُ ، فَقَالَ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالاً فَرَحِمْتُهُ نَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ ، قَالَ أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ لَا أَعُودُ فَرَحِمْتُهُ نَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ ؟ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ شَكَا حَاجَةً وَعِيَالاً فَرَحِمْتُهُ نَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ ، قَالَ أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ ، فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ إِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّكَ لَا تَعُودُ فَقَالَ دَعْنِي فَإِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ تَعَالَى بِهَا ، قُلْتُ مَا هِيَ؟ قَالَ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ : « اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ فَإِنَّهُ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ تَعَالَى حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ ؟ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ تَعَالَى بِهَا فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ . فَقَالَ مَا هِيَ ؟ قُلْتُ قَالَ لِي : إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ « اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » وَقَالَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ حَافِظٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى حَتَّى تُصْبِحَ وَلَنْ يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ . فَقَالَ النَّبِي صلى الله عليه وسلم أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؟ قُلْتُ لَا . قَالَ ذَا شَيْطَانٌ » أخرجه البخارى .

ولما ركب نوح عليه السلام السفينة رأى فيها شيخا لم يعرفه ، فقال له ما أدخلك ؟ قال دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معى وأبدانهم معك ، قال نوح اخرج يا عدو الله ، فقال له خمس أهلك بها الناس وسأحدثك منها بثلاث ولا أحدثك بالثنتين ، فأوحى الله إلى نوح : لا حاجة بك إلى الثلاث مره يحدثك بالثنتين فإن بهما أهلك الناس هما الحسد وبالحسد لعن وجعل شيطانا رجيما . والحرص ، أبيح لآدم الجنة كلها فحرص على الشجرة فأصاب منه حاجته .

ولقى إبليس موسى عليه السلام فقال: يا موسى أنت الذى اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليما ، وأنا من خلق الله أذنبت وأريد التوبة فاشفع لى عند ربك عز وجل أن يتوب علىّ فدعا موسى ربه، فقيل يا موسى قد قضيت حاجتك ، فلقى موسى عليه السلام إبليس فقال قد أمرت أن تسجد لقبر آدم ويتاب عليك ، فاستكبر وغضب وقال لم أسجد له حيا أأسجد له ميتا ، ثم قال إبليس يا موسى إن لك حقا بما شفعت إلى ربك فاذكرنى عند ثلاث : اذكرنى حين تغضب فإن وحيي فى قلبك وعينى فى عينيك وأجرى منك مجرى الدم ، واذكرنى حين تلقى الزحف ، فإنى آتى ابن آدم حين يلقى الزحف فأذكره ولده وزوجته وأهله حتى يولى؛ وإياك أن تجالس امرأة ليست بذات محرم فإنى رسولها إليك ورسولك إليها.
وكان موسى عليه السلام جالسا فى بعض مجالسه ، فأقبل إبليس عليه برنس له يتلون فيه ألوانا؛ فلما دنا منه خلع البرنس ووضعه ثم أتاه فقال : السلام عليك يا موسى ، قال له موسى من أنت ؟ قال إبليس : قال فلا حياك الله ماجاء بك ؟ قال جئت لأسلم عليك لمنزلتك عند الله ومكانتك منه ، قال ماذا الذى رأيت عليك ؟ قال به أختطف قلوب بنى آدم ، قال فماذا إذا صنعه الإنسان استحوزت عليه ؟ قال إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه ، قال إبليس وأحذرك ثلاثا : لاتخل بامرأة لا تحل لك فإنه ماخلا رجل بامرأة لاتحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أفتنه بها ، ولا تعاهد الله عهدا إلا وفيتَ به فإنه ما عاهد الله أحد عهدا إلا وكنت صاحبه حتى أحول بينه وبين الوفاء به ؛ ولا تخرجنّ صدقة إلا أمضيتها فإنه ماأخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت دون أصحابى حتى أحول بينه وبين الوفاء بها ،

ثم ولى إبليس بعد ذلك وهو يقول : يا ويلاه ! يا ويلاه ! قد علم موسى ما يحذر به بنى آدم .

وقد تبدى إبليس ليحيى بن زكريا عليه السلام فقال : إنى أريد أن أنصحك ، قال كذبت أنت لا تنصحنى ولكن صف لى بنى آدم ، قال هم عندنا على ثلاثة أصناف : الصنف الأول هم أشد الأصناف علينا نقبل عليه حتى نفتنه ونتمكن منه ثم يتفرغ للاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شىء أدركناه منه ، ثم نعود إليه فيعود فلا نحن نيأس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا فنحن من ذلك الصنف فى عناء . والصنف الثانى فى أيدينا بمنزلة الكرة فى أيدى صبيانكم نلتقفهم كيف شئنا وقد كفونا أنفسهم . والصنف الثالث معصومون مثلك لا نقدر منهم على شىء ، فقال يحيى عليه السلام : هل قدرت منى على شىء ؟ قال لا إلا مرة واحدة فإنك قدمت على طعام فلم أزل أشهيه إليك حتى أكلت منه أكثر مما تريد ، فنمت تلك الليلة ولم تقم إلى الصلاة كما كنت تقوم إليها ، فقال يحيى لا جرم لا شبعتُ من طعام أبدا ، قال الشيطان لا جرم لا نصحت آدميا بعدك . وقال شريح عن أبى عثمان كان عيسى عليه السلام يصلى على رأس جبل ، فأتاه إبليس فقال إنك الذى تزعم أن كل شىء بقضاء وقدر ؟ قال نعم ، قال الق بنفسك من الجبل وقل قدر علىّ ، قال : يا لعين الله يختبر العباد وليس للعباد أن يختبروا الله عز وجل . ومما روته الأناجيل : أن الشيطان قابل عيسى عليه السلام وطلب منه أن يسجد له مدعيا أنه يملكه خزائن الأرض ، فقال له اذهب عنى يالعين ، فانه مكتوب لله وحده تسجد وإياه وحده تعبد . ولا أدرى كيف تكتب الأناجيل تجربة الشيطان مع عيسى عليه السلام مع أنهم يؤلهونه ؟ فهل يجوز للإله أن يقبل هذه التجربة من مخلوق ؟ وإذا كانت التجربة مع الناسوت فلابد أن يكون الناسوت منفصلا عن اللاهوت ساعة التجربة على الأقل، وهنا لا يصح أن تكون الثلاثة أقانيم حقيقة واحدة وإله واحد «سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (١) وهذا إضلال الشيطان للخلق على مدى العصور . حفظنا الله منه ونجانا من حيله وشباكه

(١) آية ٨٠ ـ ٨٢ الصافات .

التى ينصبها للايقاع بالخلق « وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونَ »[١].

عالم الجن : عالم الجن خلقٌ كثير، وأمم متباينة، تتفاوت فى لطافة أجسامها وخفتها وقدرتها، أصل عنصرها النار، قال الله سبحانه وتعالى : « وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ »[٢] وسمى جانا لتواريه عن الأعين، فالجن يستر نفسه عن أعين بنى آدم. وقال أبو عبيدة : السموم الريح الحارة النافذة فى المسام تكون بالنهار وقد تكون بالليل . والجن كالريح بل أدق وألطف، ولذلك يقول العامة فلان (مِسْتَرْيَحْ) أى دخل جسده ريح من الجن .

وكان العرب ينزلون الجن فى مراتب ، فإذا ذكروا الجنى سالما قالوا جنى ، فاذا أرادوا من سكن مع الناس قالوا عامر والجمع عمار، وإن كان ممن يعرض للصبيان فهم أرواح، فان خبث أحدهم وتعرم فهو شيطان ، فإذا زاد على ذلك فهو مارد، فإن زاد على ذلك فى القوة فهو عفريت والجمع عفاريت . قال الله تعالى « قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ »[٣] وهم فى الجملة جن وخوافى قال الشاعر :

* ولا يحس سوى الخافى بها أثر *

وكل متجنٍّ فهو جنى وجان وجنين ، وكذلك الولد قيل له جنين لكونه فى البطن واستجنانه (أى استخفاؤه) وقالوا للميت الذى فى القبر جنين قال عمرو بن كلثوم :

ولا شمطاء لم تدع المنايا   لها من تسعة إلا جنينا

وخلق الجن قبل خلق آدم وذريته ؛ منهم من يتوالدون ، ومنهم طوائف لاتتوالد، وإبليس وجنده طائفة من طوائف الجن ألطف أجساما وأسرع مسيرا وطيرانا ، وكفرت بالله طائفة إبليس وفريق من أممهم ، والجن مكلفون لا خلاف فى ذلك وركبت فى طبائعهم الشهوات قادرون على فعل الخير وفعل الشر مجزيون بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر. ولقد بين ذلك الكتاب العزيز، قال الله سبحانه وتعالى : « والسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ .

---

(١) آية ٩٧ ، ٩٨ المؤمنون   (٢) آية ٢٧ الحجر   (٣) آية ٣٩ النمل

أَلاَّ تَطْغَوْا فِي المِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا المِيزَانَ . وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ . فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ . وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَايَبْغِيَانِ : فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ » (١)

والخطاب هنا للجن والإنس . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه السورة على الجن كما قرأها على الإنس تبليغا للمكلفين على خلاف فى أن المصطفى رآهم ساعة القراءة أو لم يرهم إلا أن سماعهم أمر مؤكد « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ » (٢)

---

(١) آية ٧ ـ ٤٦ الرحمن .   (٢) آية ٢٩ الأحقاف .

وكما جاء فى قوله سبحانه وتعالى: « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا . وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا . وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا . وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا . وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا . وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا . وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا . وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا . وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا . وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا . وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا . وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا . وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا . وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا . لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا . وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا . وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا . قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا »(١) .

وقال بعض المفسرين فى تفسير قوله تعالى : « وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا »(٢) يدعوه أى يدعو الله ويعبده ، وذلك ببطن نخلة حين قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ويتلو القرآن « كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا » أى متراكمين من ازدحامهم عليه لسماع القرآن منه . قال الزجاج ومعنى لبدا يركب بعضهم بعضا ، وقال الحسن وقتادة وابن زيد : لما قام عبد الله محمد بالدعوة ، تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله إلا أن ينصره ويتم نوره . . ولا شك أن الجن مدعوون للايمان مكلفون ، قال الله سبحانه وتعالى : « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا

(١) آية ١ — ٢٠ الجن .   (٢) آية ١٩ الجن .

حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ . يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »(١) .

ولم يرسل الله للجن رسلا من أنفسهم وعلى هذا القول معظم العلماء وأن رسل الجن هم رسل الإنس لأنهم يستمعون إليهم و بذلك يحصل البلاغ ، ومتى حصل البلاغ لاتقوم لهم حجة ، كما أنهم يخالطون الإنس من حيث لايرونهم، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بُعِثْتُ إِلَى الْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ » أخرجه البخارى ومسلم رضى الله عنهما عن أبى هريرة — والمراد بالأسود فى الحديث : الجن ، ويقوم من الجن قوم للوعظ والتبليغ نيابة عن الرسل ، وهم علماؤهم ورثة الأنبياء ، وكثير من الجن يحضرون مجالس العلم ويسمعون من الإنس إما فى حالة مستترة ، أو فى حالة تشكل . وأذكر هنا حادثة وقعت أيام جدى الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه على مرأى جمهرة من الناس والطلبة وهى أنه كان يقرأ درسا فى أيام الصيف تحت شجرة على الترعة أمام زاوية الشيخ راجح ببلده رأس الخليج و بينما هو يقرأ فى كتاب الزواجر للعلامة ابن حجر إذ وجد الطلبة ثعبانا بالقرب منهم فقام أحدهم ليقتله فالتفت له الأستاذ وقال له اتركه فإن الجن تحضر مجالس العلم لاستماعه فتركوه و بعد ذلك وجدوا ثعبانا آخر جاء وثالثا ورابعا، فأمر الأستاذ الطلبة بعدم التعرض لهم واستمر فى القراءة وعند ماختم الدرس تفرقت الثعابين وغابوا عن الأبصار .

وكان يحضر دروس الإمام الغزالى قوم من الجن وتعرفوا إليه وكانوا يستفتونه فى كثير من المسائل الشرعية ، ويتطوعون بإخباره الأخبار العجيبة مما يحدث فى أقصى البلاد ، فأخبروه بتصنيف الزمخشرى كتابه الكشاف ، وكان الزمخشرى ينكرهم ، فأمرهم الغزالى رضى الله عنه بإحضاره ، فأتوه به شيئا شيئا من حيث لايشعر الزمخشرى حتى كتب منه جملة

(١) آية ٢٩ — ٣٢ الأحقاف .

ثم أراها للزمخشرى فبهر لأنه لم يمكن أحدا من الاطلاع عليه ولا يمكن أن تتوارد الخواطر على مثل هذا القدر ، فقال له الغزالى إنه وصل إلينا من أيدى الجن فهل تعود إلى إنكارهم ؟ فرجع عن ذلك . وأما ائتمام الجن بالإنس فى الصلوات ، وهل تجوز صلاتهم وراء الإنس ؟ فلم أطلع لها على سند ، وأما قضاتهم فمنهم وأحكامهم بميزان الشريعة واجتهادهم فى استنباط الأحكام بما يوافق طبائعهم و بيئاتهم، وصلاتهم وتعبدهم كصلاتنا وتعبدنا « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا »[1] وهم يحضرون مجالس الذكر ، وأهل الصلاح منهم يحيون أهل الصلاح من الإنس و يتواجدون من الذكر معهم خصوصا إذا حضرته الملائكة ولأن الذكر يرقيهم و يخفف من كثافة أرواحهم .

وأما تكليف الإنس فأشرف من تكليفهم لأنهم يرونهم من حيث لايراهم الإنس وهم أخف أجساما وأقوى وأقدر ، والإنس أثقل أجساما وأضعف وأعجز ، وهم أقدر على معرفة الشيطان فى خفائه وتفهم أحابيله وحيله من بنى آدم ، ولأن الإنس مبتلون بفتنتهم و بما يزين كفار الجن وفسقتهم لأبناء آدم من أسباب الغواية من حيث لايشعرون إلى غير ذلك وهذا يستدعى جهادا شاقا ، كما أن من بنى آدم الرسل ولهم قدم صدق عند ربهم وهو الحبيب الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

مخالطة الجن للإنس : لاشك بعد الذى قدمنا من معرفة أن الجن وهم من سكان الأرض يخالطوننا من حيث لانشعر ، إذ يَسْتَخْفُونَ و يكلموننا فى أنفسنا و يعلمون منا نوايانا وأخبارنا ، وكل ذلك نحمله على أنه من حديث النفس ولو كانت النفس غير راغبة فى هذه الأحاديث ، وقد يتشكلون على صور شتى من الحيوان . عن أبى السائب قال : « دَخَلْتُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ فَوَجَدْتُهُ يُصَلِّى فَجَلَسْتُ أَنْتَظِرُهُ ، فَسَمِعْتُ تَحْرِيكًا فِي عَرَاجِينَ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ فَالْتَفَتُّ فَإِذَا حَيَّةٌ فَوَثَبْتُ لِأَقْتُلَهَا فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنِ اجْلِسْ فَجَلَسْتُ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَشَارَ إِلَى بَيْتٍ فِي الدَّارِ . فَقَالَ أَتَرَى هَذَا الْبَيْتَ ؟ فَقُلْتُ نَعَمْ . فَقَالَ : كَانَ فِيهِ فَتًى مِنَّا قَرِيبُ عَهْدٍ بِعُرْسٍ . فَخَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم إِلَى الْخَنْدَقِ ،

---

(١) آية ١٨ الجن .

فَكَانَ الْفَتَى يَسْتَأْذِنُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِأَنْصَافِ النَّهَارِ لِيَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ فَاسْتَأْذَنَهُ يَوْماً ، فَقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : خُذْ عَلَيْكَ سِلَاحَكَ فَإِنِّى أَخْشَى عَلَيْكَ قُرَيْظَةَ ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ سِلَاحَهُ فَأَتَى أَهْلَهُ ، فَإِذَا امْرَأَتُهُ بَيْنَ الْبَابِ قَائِمَةٌ ، فَأَهْوَى إِلَيْهَا بِالرُّمْحِ لِيَطْعُنَهَا بِهِ وَأَصَابَتْهُ غَيْرَةٌ . فَقَالَتْ لَهُ : اُكْفُفْ عَلَيْكَ مِسْحَكَ وَادْخُلِ الْبَيْتَ حَتَّى تَنْظُرَ مَا الَّذِى أَخْرَجَنِى . فَدَخَلَ الْبَيْتَ فَإِذَا حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ مُنْطَوِيَةٌ عَلَى الْفِرَاشِ ، فَأَهْوَى إِلَيْهَا بِالرُّمْحِ فَانْتَظَمَهَا بِهِ. ثُمَّ خَرَجَ فَرَكَزَهُ فِى الدَّارِ فَاضْطَرَبَتْ عَلَيْهِ ، فَمَا نَدْرِى أَيُّهُمَا كَانَ أَسْرَعَ مَوْتاً الْحَيَّةُ أَوْ الْفَتَى ، قَالَ فَجِئْنَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَذَكَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ، وَقُلْنَا ادْعُ اللهَ أَنْ يُحْيِيَهُ . فَقَالَ اسْتَغْفِرُوا لِصَاحِبِكُمْ . ثُمَّ قَالَ إِنَّ بِالْمَدِينَةِ جِنّاً قَدْ أَسْلَمُوا . فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُمْ شَيْئاً فَآذِنُوهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنْ بَدَا لَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَاقْتُلُوهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ » أخرجه مسلم ومالك وأبو داود والترمذى .

وعن ابن أبى ليلى عن أبيه : قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حيات البيوت فقال : « إِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُنَّ شَيْئاً فِى مَسَاكِنِكُمْ فَقُولُوا لَهُ نَنْشُدُ عَلَيْكَ الْعَهْدَ الَّذِى أَخَذَ عَلَيْكُمْ نُوحٌ ، وَنَنْشُدُكَ الْعَهْدَ الَّذِى أَخَذَ عَلَيْكُمْ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ لَا تُؤْذُونَا وَلَا تَتَرَاءَوْا لَنَا ، فَإِنْ عُدْنَ فَاقْتُلُوهُنَّ » أخرجه أبو داود والترمذى .

والغالب أن هذا الحكم نسخ حتى لا يتراءى الجن و يدخل فسقتهم و كفارهم فى هذا التراثى فيحصل الالتباس على الناس ، ولذا ورد عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقْتُلُوا الْحَيَّاتِ كُلَّهُنَّ فَمَنْ خَافَ ثَأْرَهُنَّ فَلَيْسَ مِنِّى » أخرجه أبو داود والترمذى . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ تَرَكَ الْحَيَّاتِ مَخَافَةَ طَلَبِهِنَّ فَلَيْسَ مِنَّا مَا سَالَمْنَاهُنَّ مُنْذُ حَارَبْنَاهُنَّ » أخرجه أبو داود . لذلك لا يظهر الجن ولا يتراءى خوف أن يضيع دمه هدراً ، فمن فعل ذلك منهم فإنه يفعله جرأة واستخفافا بنفسه أو إذا وثق بمعرفة أهل بصيرة يستفيد منه ، وقد منع الله الجن من التراثى رحمة ببنى آدم ، فمن تراءى من الجن وقتل وقع ذنبه على نفسه ولا دية له ،

ومن طلب من أبناء آدم هذا التراثى وتسلط على الجن بالتعاويذ ووقع له سوء فهو المسئول عن نفسه ، ولا تضر الجن إلا خفيف العقل ضعيف الأعصاب فقد يلعب به فسقة الجن وكفارهم ، أما رابط الجأش فلا يضرونه بشىء وهو أقوى منهم بآيات القرآن الكريم والتسمية كلما دخل مكانا من الأمكنة ، إنما الأفضل أن لا يسير الإنسان ليلا فى الموحش من الأمكنة إلا لضرورة ومع من يطمئن فى السير معه . عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِذَا اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ أَوْ كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ . فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَخَلُّوهُمْ ، وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ ، وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ ، وَأَوْكِ سِقَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ ، وَخَمِّرْ إِنَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ وَلَوْ أَنْ تَعْرِضَ عَلَيْهِ شَيْئًا ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ بَابًا مُغْلَقًا ، وَأَطْفِئُوا الْمَصَابِيحَ فَإِنَّ الْفُوَيْسِقَةَ رُبَّمَا جَرَّتِ الْفَتِيلَةَ فَأَحْرَقَتْ أَهْلَ الْبَيْتِ » أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما .

وعن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَقِلُّوا الْخُرُوجَ بَعْدَ هَدَأَةِ الرِّجْلِ فَإِنَّ لِلهِ دَوَابَّ يَبُثُّهُنَّ فِى الْأَرْضِ فِى تِلْكَ السَّاعَةِ » أخرجه أبو داود . والحقيقة أنه لا داعى للخروج ليلا فى الأمكنة المظلمة والقفار لغير حاجة فإنه مما يعرض للهلكة ، وكان العرب يخوفون من الشياطين ويسمونهم شيطان الحماطة وغول القفرة وجان العشرة كما قال الشاعر :

فانسلطت لى مثل سعلاة العُشَر   تروحُ بالويل وتغدو بالغِيَر

وقال غيره :

يأيهـــا الضاغب بالغملول   إنك غول ولدتك غول

وفى جميع أمم الأرض نوازع الخير ونوازع الشر سواء من الجن والإنس ؛ ومن نوازع الشر عند عصاة الجن حب معاكسة الإنس والتسلط عليهم ، ولا يتسلطون إلا على الجبناء وقليلى الإرادة وضعفاء العقول والمرضى بأعصابهم وخصوصا فى سن المراهقة ، وفى غالب

الأحيان لايتم تسلطهم إلا على النساء لضعف إرادتهن ، وفى أيام الطمث وعند تغير طبيعة الدم من أثر العادة ومن مباشرة العادة السرية ، لذلك يحسن أن لاينام أمثال هؤلاء من الرجال والشباب والنساء وحدهم ولا يصح تركهم للخوف والفزع لأن جبنهم يعرضهم للمس مع مراقبتهم مراقبة دقيقة ، وأحسن دواء هو تقوية الروح المعنوية فيهم وتمية إرادتهم لأن أقوى الجن يرتاع من شجاع القلب ويختفى من طريقه ، والأمة الإسلامية محفوظة منهم بعناية الله و بما أكرم الله به رسوله وأمته و بما أنزله على رسوله فى الكتاب الكريم وخصوصا آية الكرسى والمعوذتين .

ولقد أغرم الجن بالإنس والإنس بالجن من غابر الأزمان، ذلك لأن الجن تحب السيطرة على الإنس و يتلذذون بذلك وهو من أسباب متعتهم وتسليتهم استخفافا بعقول البلهاء منهم، ويغرم الإنس بذلك استقراء لعالم يغيب عن أبصارهم وللاستعانة بهم فى الأمور التى لايقدرون عليها إلا بهم من فعل الأعاجيب ومعرفة الأخبار الغريبة والإتيان بها من الأمكنة البعيدة ليختالوا على الناس غرورا وليسلبوهم أموالهم ، واتخذوا من هذه البضاعة الفاسدة حرفة لهم ، ونتج من ذلك للناس فتن كبرى طغت على النفوس والعقول ، وشاعت من أسبابها أعمال السحر والكهانة والعرافة والرقى والتطبيب ، وما من أمة إلا فشا فيها هذا النوع من الاتصال وكثرت فيها الخرافات والنصب والدجل خصوصا فى الأجيال الغابرة . ولقد جاءت رسالة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بأقوى المعجزات للقضاء على السحر والشعوذة فزالت بها كثير من البلايا ، ولكن الشيطان لم ينفك عن غوايته لعالمى الإنس والجن للقيام بهذا الاتصال غير المشروع لما ينتجه من الضلال البعيد . وجاء زمن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام فكان يعالج الصرعى والممسوسين ويخرج من أجساد الآدميين الأرواح الخبيثة التى حلت بها ، وكم حذر عليه صلاة الله وسلامه من هذا الاتصال ، ولكن ظل فريق كبير من الناس فى شغف بهذا الاتصال وكثر وشاع قبل مبعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان للعرب فى ذلك أخبار[1] كما كان هذا النوع متسلطا على عقول الأمم الأخرى

---

(١) كان العرب يزعمون أن لهم خداما من الجن فيقولون فلان مخدوم يذهبون إلى أنه إذا عزم على الشياطين والأرواح والعمار أجابوه وأطاعوه ، فمنهم عبد الله بن هلال الحميرى الذى

... ...

كان يقال له صديق إبليس ، ومنهم كرباش الهندى ، وصالح المديبرى وكانوا يشرطون للاجابة عزيمة ، وكان عبيد مج يقول إن العامر حريص على إجابة العزيمة ، ولكن البدن إذا لم يصلح أن يكون له هيكلا لم يستطع دخوله ، والحيلة فى ذلك أن يتبخر باللبان الذكر ويراعى سير المشترى ويغتسل بالماء القراح ، ويدع الجماع وأكل الزهومات (وهى ريح اللحم السمين المنتن) ويتوحش فى الفيافى ويكثر من دخول الخرابات ، حتى يرق ويلطف ويصير فيه مشابه من الجن فإن عزم بعد ذلك فلم يجب فلا يعودن لمثلها فإنه ممن لايصح لأن يكون بدنه هيكلا لها ، ومتى عاد خبط فربما جن ومات .

وكان العرب يزعمون أيضا أنهم يخرجون إليهم فيرونهم فى الظلام، وكان بعض هذه المزاعم حقا وبعضها مما يصطنعه الناس لتضليل القوم ، وكانوا يؤمنون بالهاتف وكان لبعضهم هتاف ورئى من الجن يهتفون لهم بالأخبار الصحيحة قبل أن تصل إليهم من أمكنتها البعيدة وبها علم الناس بوفاة الملوك والأمور المهمة ، وكانوا يقولون إذا ألف الجنى إنسانا وتعطف عليه وخبره ببعض الأخبار ووجد حسه ورأى خياله مع فلان رئى من الجن وممن يقولون ذلك فيه عمرو بن لحى بن قمعة . والمأمون الحارثى ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وكثير من ذوى الأقدار من بين فارس رئيس وسيد مطاع ، وإذا اشتدت العرافة وارتقت كان صاحبها كاهنا مثل الأبلق الأسدى والأجلح الزهرى وعروة بن زيد الأسدى وعراف اليمامة رباح بن كحلة وهو صاحب بنت المستنير البلتعى وقد قال الشاعر :

فقلت لعراف اليمامة داونى ... فإنك إن أبرأتنى لطبيب

وقال جبهاء الأشجعى :

أقام هوى صفية فى فؤادى ... وقد صيرت كل هوى حبيب
لك الخيرات كيف منحت ودى ... وما أنا من هواك بذى نصيب
أقول وعروة الأسدى يرقى ... أتاك برقية الملق الكذوب
لعمرك ما التثاؤب يابن زيد ... بشاف من رقاك ولا مجيب
تسير الناعجات أظن أشفى ... لمابى من طبيب بنى الذهوب

وليس الباب الذى يدعيه هؤلاء من جنس العيافة والزجر والخطوط والنظر فى أسرار الكف وفى الخيلان فى الجسد وفى النظر فى الأكتاف والقضاء بالنجوم والعلاج بالفكر .

وقد كان مسيلمة يدعى أن معه رئيا فى أول زمانه ولذلك قال الشاعر حين وصف مخاريقه وخدعه :

تسلطا شديدا [1] ، وأكثر الناس احترافا فى هـذا الشأن من اليهود ، وأكثر العزائم التى تستعمل مردّها إلى وضعهم وهم أعلم الناس بأسماء الجن وأكثرهم استمتاعا بالجن فأضلوهم عن سواء السبيل .

بيضـة قارور وراية شادن ... وخلة جنى وتوصيل طائر

وذكروا أن الجن استهوت كثيرا من الأعراب وبعد أن زادوهم رهقا قتلوهم ، منهم مرداس بن أبى عامر والغريض قتلوه خنقا بعد أن غنى بالغناء الذى نهوه عنه ، وسنان بن حارثة وعمرو بن عدى اللخمى الملك ، وعمارة بن الوليد بن المغيرة ونفخوا فى إحليله فسار مع الوحش؛ وذكروا أن سعيد بن خالد بن عبد الله بن أسيد كانت تصيبه مؤتة نصف سنة ونصف يصح فيحبو ويعطى ويكسو ويحمل فأراد أهله أن يعالجوه فتكلمت امرأة على لسانه فقالت : أنا رقية بنت ملحان والله أن لو علمت مكان رجل أشرف منه لعلقته ، والله لئن عالجتموه لأقتلنه .

وتكلم العرب عن زواجهم بالجن وممن زعم ذلك شمر بن الحارث الضبى إذ قال :

أتوا نارى فقلت منون أنتم ... قالوا سراة الجن قلت عموا ظلاما

فقلت إلى الطعام فقال منهم ... زعيم نحسد الإنس الطعاما

ويزعمون أيضا أنه يحصل من هذا الزواج نتاج مشترك وخلق مركب منهم بنو السعلاة من بنى عمرو بن يربوع وبلقيس ملـكة سبأ . وعلى ذكر هذا أذكر أنى رأيت مرة فى منامى أن شيخا من الجن أتى إلى ومعه بنت ترى فى التاسعة من عمرها فلما رأيتها وجدت فيها جمالا فاتنا فقال لى هذه بنت من الجن تزوجها قلت هذه صغيرة قال لا ولـكنها تتشكل لك فى الصورة التى تحبها . قلت له: إنى سائلك فاصدقنى هل تتأثر حالتى من زواجها ؟ قال نعم لاختلاف الطبيعتين قلت له وهل إذا اختلفنا تستطيع أن تضرنى من حيث لا أعلم قال نعم قلت له لا رغبة لى فى هذا الزواج فانصرف . ومرة رأيت أخرى من الجن فدافعتها ودافعتنى فقرأت فى منامى قوله تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) فانتبهت وتيقظت . واختلف الأئمة فى صحة زواج الإنس بالجن فبعضهم أجازه ، والمعظم لم يبحه ولم يحكم بصحته .

(١) ومما ذكره الجاحظ عن افتتان بعض النصارى بمصابيح كنيسة قمامة ؛ قال: وقد تعرف ما فى عجائز النصارى وأغمارهم من الافتتان بمصابيح كنيسة قمامة ، فأما علماؤهم وعقلاؤهم فليسوا بمتحاشين من الـكذب الصرف ، والجراءة على البهتان البحت ، وقد تعودوا المـكابرة حتى دربوا بها الدرب الذى لا يفطن له إلا ذو الفراسة الثابتة ، والمعرفة الثاقبة .

ولما أراد الله بالخلق رحمة ، وأرسل سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ؛ مكن له فى العالمين ، وخفف فتنة الجن ، و بين أمرهم ، وأعطاه حرزا له ولأمته من كيدهم ، فأنزل آية الكرسى والمعوذتين ، من قرأها لم يصبه شىء ، ومنع الله حفيف الجن بأمته فردوا إلى معاطنهم لا يروضون إلا هؤلاء الذين ينأون عن هدى الرسول ويحبون الزيف من العمل وزخرف القول غرورا ، فمن وقع فى كيدهم أو طلب استحضارهم وأوذى أو فتن فلا يلومن إلا نفسه ، لأن الشريعة نهت عن ذلك .

وقد جاءنى خطاب هذا نصه :

حضرة صاحب العزة عبد المنعم بك الحلوانى .

السلام عليكم ورحمة الله و بعد ، فأرجو إفتائى فى السؤال الآتى : هل يجوز لأحد من بنى الإنسان أن يستعين بالجن فى شأن من الشئون ويعمل لتحضير أرواح الجن شرعا . وتفضلوا بقبول احترامى والسلام .

١٩٤٧/٣/٩

رضوان على القاضى
بشبرامنت مركز الجيزة

فأجبته :

الاستعانة بالجن لا تكون إلا فى طلب الأخبار المغيبة أو الأعمال التى يعجز الآدمى عن عملها فإن كانت من المباح فهى غير ضرورية بل لا يجيزها حدود التكليف لأن للجن تكليفا على مدى قدرتهم وللإنس تكليفا فى حدود طاقتهم ، فالاستعانة بهم تخرج الناس عن حدود التكليف وتجعل للبعض قدرة تفوق قدرة غيرهم . وهذا خروج عن سنة الله التى سنها لعباده فيكون عمل هؤلاء غير مشروع ، لأن الله لا يميز الناس عن الناس بهذه الوسائل وليست مما جاء عنها نص فى كتاب الله إلا قوله تعالى فى قصة سليمان : « قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ . قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ »(١) وهذه خصوصية

(١) آية ٣٩ — ٤٠ النمل

لسيدنا سليمان عليه السلام إذ كان من معجزاته تسخير الجن وقد دعا ربه : « قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ »[١] .

وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أنه لم يمسك بتلابيب الشيطان الذى تعرض له لدعوة سيدنا سليمان هذه[٢] . وفى هذا دليل على أن تسخير الجن والشياطين والطير كان خصوصية له . ثم إننا لا نجد من الاستعانة بهم فائدة حقيقية تعود على طالبها منهم فضلا عن عدم الخضوع لخروجها عن السنن التى كلفنا الله فى حدودها وفى طاقتها ، والاستعانة بهم كاستعانة الأمم فى الحروب أمام خصومها بالوسائل غير المشروعة كاستعمال الغازات السامة ، ثم إنها تؤدى إلى فتنة وتؤدى إلى فساد لأنه من المشاهد أن كل من استعان بهم مات على فقر وعاش شقيا وقلما نجا من الكفر والفسوق لأن الله لا يهدى كيد الخائنين ، ويفضحهم فى آخر أيامهم وهو يدخل تحت باب التمتع والاستلاذة بالجن ، وقد حذرنا الله منه كما سيأتى . وكثير من الجن فسقة فجرة أو كفرة ملحدة فلا يستعان بهم إلا بقبول الفسق والإلحاد والتغرير بالعقول وعبادة غير الله وتلاوة أسماء شياطينهم والاستهزاء بالله ورسله وآياته سبحان الله عما يصفون ، ثم يصلون بعد ذلك إلى تعليم هؤلاء المستعينين بهم السحر والنفث والرقى[٣] وهو محرم شرعا لسد الذرائع

---

(١) آية ٣٥ ص .   (٢) راجع الحديث بتمامه فيما سبق .

(٣) السحر : أنبأنا الله سبحانه وتعالى عن السحر فى قوله جل وعلا (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) ١٠٢ البقرة ، وفى تفسير الآية قال محمد بن إسحق : لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم سليمان فى المرسلين قال بعض أحبارهم : يزعم محمد أن ابن داود كان نبيا : والله ما كان إلا ساحرا ، فأنزل الله (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) أى ألقت إلى بنى آدم أن مافعله سليمان من ركوب البحر واستسخار الطير والشياطين كان سحرا . وقال الامام القرطبي فى قوله تعالى (وما أنزل على الملكين) . « ما » نفى والواو للعطف على قوله (وما كفر سليمان) وذلك أن اليهود قالوا : إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر ، فنفى

... ...

الله ذلك؛ وفى الكلام تقديم وتأخير ، التقدير وما كفر سليمان ، وما أنزل على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، فهاروت وماروت بدل من الشياطين فى قوله (ولكن الشياطين كفروا) هذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل ، وأصح ما قيل فيها ولا يلتفت إلى ما سواه ، فالسحر من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم ودقة أفهامهم ، وأكثر ما يتعاطاه من الانس النساء وخاصة فى حال طمثهن ، وقال فى قوله تعالى (وما يعلمان من أحد) من زائدة للتوكيد والتقدير وما يعلمان أحدا ، ونقل عن السدى : كانا يقولان لمن جاءهما : إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فإن أبى أن يرجع قالا له : ائت هذا الرماد فبل فيه ، فإذا بال فيه خرج منه نور يسطع إلى السماء ، وهو الإيمان ، ثم يخرج منه دخان أسود فيدخل فى أذنيه وهو الكفر ، فإذا أخبرهما عما رآه من ذلك علماه مايفرقون به بين المرء وزوجه انتهى . وهذا على جواز أن هاروت وماروت فتنا لما نزلا الأرض واحتملا القوى الشهوانية لبيان فضل آدم وبنيه من الصالحين ثم يتوب الله عليهما بعد العقوبة وإن الله أراد فتنة الضالين على حد قوله تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) ولحكمة عليا جلت عن الأفهام . وقال تعالى (وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) أى أنه لا يقع فى ملكه إلا مايريد ، ولا يغيب عن علمه شىء ، فالمؤمن المتوكل الموحد لا يقع تحت طائلة سحرهم بل يرد السحر على أهله ، وما حصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو لبيانه ولإظهار كرامة الله له ، وتعليم أمته ما يتقون به السحر ، ولذلك لا ينال المسلم الصادق منه أذى إلا إذا خار إيمانه ، ورجع إلى السحرة فى فك سحره ، فانه يوشك أن يتعرض له بين فينة وأخرى ؛ وكفى بتلاوة آيات الله والمعوذتين حصنا من كيد السحرة وكفى بالله وكيلا ، والسحر من عمل الشيطان بواسطة كفرة الجن والانس يهزأون بآيات الله ويضللون الخلق بتلاوتها للتأثير بهافيكفر قارئها فى أمكنة القذارة ويرتفع من أحرفها النور لكفر القارىء فتستحوذ على قلبه الشياطين ؛ أو بقراءة أسماء الجن والشياطين ومعظمها ألفاظ عبرية وفى مبانيها خلط وإلحاد فى أسماء الله الحسنى ، ومن الغريب أن يتعبد بعض المسلمين بالأسماء العبرية جهلا وحسن نية كأنهم تنسكوا فلم تكفهم عبادة رسولهم أشرف الرسل ، ولم يرد بذلك نص من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بل ورد النهى ؛ قال الله سبحانه وتعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بهاوذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون . وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون. والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) ومأهو سندهم إذا وقعوا فى إلحاد الملحدين وغواية الضالين ؟ وهلا يكون من الأسلم ترك المشتبه فيه إلى ما لا شبهة فيه وترك ما لم يؤجروا به إلى ما جاءنا به الكتاب

... ...

الكريم وسنة سيد المرسلين حتى لا يقعون فى إلحاد الملحدين وأعمال السحرة وعبادة الشياطين من حيث لا يشعرون جزاء المخالفة ، وقد قال الله سبحانه وتعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) .

ونقل القرطبى عن الغزنوى الحنفى فى عيون المعانى له : أن السحر عند المعتزلة خدع لا أصل لها ، وعند الشافعى وسوسة وأمراض ، قال وعندنا أصله طلسم يبنى على تأثير خصائص الكواكب كتأثير الشمس فى زئبق عصى فرعون ، أو تعظيم الشياطين ليسهلوا ما عسر . وقال القرطبى رضى الله عنه بعد ذلك : وعندنا أنه حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما شاء على ما يأتى . ثم من السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة . والشعوذى البريد لخفة سيره ، قال ابن فارس فى المجمل : الشعوذة ليست من كلام أهل البادية ، وهى خفة فى اليدين وأخذة كالسحر ؛ ومنه ما يكون كلاما يحفظ ؛ ورقى من أسماء الله تعالى ، وقد يكون من عهود الشياطين ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك .

وقال رضى الله عنه : من السحر ما يكون كفرا من فاعله مثل مايدعون من تغيير صور الناس وإخراجهم فى هيئة بهيمة وقطع مسافة شهر فى ليلة والطيران فى الهواء ، فكل من فعل هذا ليوهم الناس أنه محق فذلك كفر منه . قال أبو نصر عبد الرحمن القشيرى قال أبو عمرو : من زعم أن الساحر يقلب الحيوان من صورته إلى صورة ما فيجعل الانسان حمارا أو نحوه ، ويقدر على نقل الأجساد وهلاكها وتبديلها ، فهذا يرى قتل الساحر لأنه كافر بالأنبياء ويدعى مثل آياتهم ومعجزاتهم ، ولا يتهيأ مع هذا علم صحة النبوة إذ قد يحصل مثلها بالحيلة . وأما من زعم أن السحر خدع ومخاريق وتمويهات وتخييلات فلم يجب على أصله قتل الساحر إلا أن يقتل بفعله أحدا فيقتل به .

وقال رضى الله عنه : واختلف الفقهاء فى حكم الساحر المسلم والذمى ، فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كافرا يقتل ولا يستتاب ولا تقبل توبته ، لأنه أمر يستسر به كالزنديق والزانى ، ولأن الله تعالى سمى الساحر كافرا بقوله (ومايعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر) وهو قول أحمد بن حنبل وأبى ثور واسحق والشافعى وأبى حنيفة . وروى قتل الساحر عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبى موسى وقيس بن سعد وعن سبعة من التابعين ، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم : حد الساحر ضربة بالسيف ، أخرجه الترمذى وليس بالقوى ، انفرد به إسماعيل بن مسلم وهو ضعيف عندهم ، رواه ابن عيينة عن

... ...

إسماعيل بن مسلم عن الحسن مرسلا ؛ ومنهم من جعله عن الحسن عن جندب قال ابن المنذر: وقد روينا عن عائشة أنها باعت ساحرة كانت سحرتها وجعلت ثمنها فى الرقاب ، قال ابن المنذر وإذا أقر الرجل أنه سحر بكلام يكون كافرا وجب قتله ان لم يتب ، وكذلك لو ثبتت به عليه بينة ووصفت البينة كلاما يكون كافرا ، وان كان الكلام الذى ذكر أنه سحر به ليس بكفر لم يجز قتله ، فإن كان أحدث فى المسحور جناية توجب القصاص اقتص منه إن كان عمد ذلك ، وإن كان مما لاقصاص فيه ففيه دية ذلك، قال ابن المنذر: وإذا اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجب اتباع أشبههم بالكتاب والسنة ، وقد يجوز أن يكون السحر الذى أمر من أمر منهم بقتل الساحر سحرا يكون كفرا ، فيكون ذلك موافقا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن تكون عائشة رضى الله عنها أمرت ببيع ساحرة لم يكن سحرها كفرا ، فإن احتج محتج بحديث جندب عن النبى صلى الله عليه وسلم « حد الساحر ضربة بالسيف» فلو صح لاحتمل أن يكون أمر بقتل الساحر الذى يكون سحره كفرا ، فيكون ذلك موافقا للأخبار التى جاءت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث » قلت وهذا صحيح ، ودماء المسلمين محظورة لا تستباح إلا بيقين ولا يقين مع الاختلاف ، والله تعالى أعلم وقال بعض العلماء : ان قال أهل الصناعة لايتم السحر إلا مع الكفر والاستكبار وتعظيم الشيطان فالسحر إذن دل على الكفر على هذا التقدير ، والله تعالى أعلم .

وروى عن الشافعى رضى الله عنه : لايقتل الساحر إلا أن يقتل بسحره ويقول تعمدت القتل ، وإن قال لم أتعمد لم يقتل ، وكانت فيه الدية كقتل الخطأ ، وإن أضرّ به أدب على قدر الضرر ، قال ابن العربى: وهذا باطل من وجهين : أحدهما أنه لم يعلم السحر، وحقيقته أنه كلام مؤلف يعظم به غير الله تعالى وتنسب إليه المقادير والكائنات . الثانى أن الله سبحانه وتعالى قد صرح فى كتابه بأنه كفر فقال : وما كفر سليمان بقول السحر، ولكن الشياطين كفروا به وبتعليمه وهاروت وماروت يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر، وهذا تأكيد للبيان احتج أصحاب مالك بأنه لا تقبل توبته ، لأن السحر باطن لا يظهره صاحبه فلا تعرف توبته كالزنديق وإنما يستتاب من أظهر الكفر مرتدا ، قال مالك فإن جاء الساحر أو الزنديق تائبا قبل أن يشهد عليهما قبلت توبتهما والحجة لذلك قوله تعالى (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) فدل على أنه كان ينفعهم إيمانهم قبل نزول العذاب ، فكذلك هذان .

وأما ساحر الذمة فقيل يقتل ، وقال مالك رضى الله عنه لا يقتل إلا أن يقتل بسحره ويضمن ماجنى ويقتل إن جاء منه مالم يعاهد عليه والبعض قال باستتابته وقال مرة : يقتل

... ...

ولا يستتاب كالمسلم . وقال مالك أيضا فى الذمى إذا سحر يعاقب ، إلا أن يكون قتل بسحره ، أو أحدث حدثا فيؤخذ منه بقدره ، وقال غيره يقتل ، لأنه قد نقض العهد ، ولا يرث الساحر ورثته لأنه كافر إلا أن يكون سحره لا يسمى كفرا . وقال مالك فى المرأة تعقد زوجها عن نفسها أو عن غيرها تنكل ولا تقتل .

واختلفوا : هل يسأل الساحر حل السحر عن المسحور ، فأجازه سعيد بن المسيب على ما ذكره البخارى ، وإليه مال المزنى وكرهه الحسن البصرى ، وقال الشافعى رضى الله عنه لا بأس بالنشرة وهى ضرب من الرقية والعلاج يعالج به من كان يظن أن به مسا من الجن لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء أى يكشف ويزال ، قال ابن بطال : وفى كتاب وهب بن منبه أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ عليه آية الكرسى ثم يحسو منه ثلاث حسوات ويغتسل فإنه يذهب عنه كل ما به إن شاء الله تعالى ، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله انتهى .

والنفث فى العقد : عمل من أعمال السحر وهو أن يعقد الساحر عقدة ثم ينفث من نفسه وريقه عليها ثم يتلو العزيمة ويطلب السوء فتستلذ منه الشياطين ومردة الجن ويستشعرون من النفس ريح الآدمى الطالب وأنه مذعن لهم مستعين بهم مغاضب لربه والعقد تأكيد لذلك والأثر الذى ينفثون عليه يدل على ريح المطلوب فيخيلونه بالأخيلة التى تؤثر فيه ولا تؤثر فى المؤمن الذاكر الملتجىء إلى ربه أثرا يذكر . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ، ومن تعلق شيئا وكل إليه » أخرجه النسائى ، ويبطل عمل النفث تلاوة المعوذتين وقراءة (أعوذ بكلمات الله التامة التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من كل شيطان وهامة ، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون . أعوذ بكلمات الله التامة التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها ومن شر ما ذرأ فى الأرض وما يخرج منها ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن) .

الرقى : هو ما يقرأ من العزائم وما يعلق من التمائم التى لا أصل لها من الشريعة الغراء والتى خلط المدلسون أقوالها من الآيات للتمويه وفيها التعزيم على الجن والشياطين وتلاوة أسمائهم وتعظيم شأنهم . وقد يدخلها الإلحاد وهو الغالب عليها ويوهمون بها

... ...

العامة أن فيها الشفاء وأن الأرواح تداوى بواسطتها المرضى فيقع المرضى تحت إرهاصاتهم وأخيلتهم ، وتارة يتوهمون الشفاء من تخييل هؤلاء وتزيينهم ثم لا يلبث المرض أن يشتد عليهم فيعاودون الكرة مرة بعد مرة ، وطورا آخر يسلمون فى أنفسهم لعبث هؤلاء فيجعلون منهم الوسطاء الذين يستعينون بهم فى الاستحواذ على الآخرين ، والله جلت قدرته لايهدى كيد هؤلاء من دجالى الطب الروحانى فيفضح أمرهم وتتسلط الأوجاع على من يعتقد فيهم فلا يبرأ ، ومتى وقع المريض تحت براثن هؤلاء المدجلين لا ينفك الشيطان يحذره وخيم العاقبة إذا لم يعاود زيارتهم فقلما يتوب حتى يموت إلا إذا أدركه الله بلطفه ونزع إلى الإيمان بالله بقوة ورباطة جأش راضيا بما كتبه الله عليه، فإن صدق جاءه الشفاء، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك كله ، عن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب ، قيل من هم يا رسول الله ؟ قال الذين لا يكتوون ، ولايسترقون ، ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ، فقام عكاشة رضى الله عنه فقال : ادع الله تعالى أن يجعلنى منهم قال أنت منهم ، فقام آخر فقال يا نبى الله ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال سبقك بها عكاشة » أخرجه مسلم. وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن فى الرقى والتمائم والتولة شركا » فقالت امرأة لا تقولوا هذا لقد كانت عينى تقذف فكنت أختلف إلى فلان اليهودى فيرقينى فتسكن . قال عبد الله رضى الله عنه : إنما ذلك عمل الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فإذا رقاك كف عنها ، إنما كان يكفيك أن تقولى كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أذهب الباس رب الناس اشف أنت الشافى لا شفاء إلاشفاؤك شفاء لا يغادر سقما » أخرجه أبو داود . وعن جابر رضى الله عنه قال : «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النشرة فقال هو من عمل الشيطان » أخرجه أبو داود . وعن عيسى بن حمزة قال : دخلت على عبد الله بن عكيم رضى الله عنه وبه حمرة ، فقلت : ألا تعلق تميمة ؟ فقال نعوذ بالله من ذلك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تعلق شيئا وكل إليه » أخرجه أبو داود .

والتطبيب بالزار مرض وبيل أصاب الأمة الإسلامية الموحدة فزادت منه البلايا والفتن وهو فى الأصل استمتاع من الجن لضعفاء الإنس وجبنائهم ممن يقعون تحت سيطرتهم ويفقدون الإرادة وهو مما يكثر عند فساد عالم الجن وعالم الإنس، لأن صلاح أحدهما يؤثر فى الآخر وفساد أحدهما يزيد فى فساد الآخر (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) وذلك إذا كثر الفسق وتجرءوا على جبار السموات تشتد عليهم الفتن ، والتطبيب بالزار فسق من الجن والإنس، اذ يستمتع فساق

... ...

الجن برقص الإنس وطبولهم وبخورهم واختلاطهم فيدلسون عليهم ويمسون عقولهم ويحببونهم فى المحرمات ويزينون لهم الدناءات ويعدى بعضهم بمرض غيرهم، ومن التدليس أن يفيق المريض من ضرب الجن ومس الشياطين مدة من الزمن للتغرير ثم يعاودون الكرة لتحصل الفضيحة والإثم بالتكرار، وياللعار أصبح الناس ينفقون على الزار بلااستحياء ماينفقونه على الأفراح ويتباهون بذلك من غواية الشيطان ، وفسقة النساء يدعين أن الأسـياد جاءتهن وتقوم بتمثيل أدوار الخبل والمس أمام أزواجهن ويجبرنهم على عمل الزار فيطيعون من ضعف الإيمان والعقول وهم لا يعلمون ماخبأهن لهم أزواجهن من خيانة الأعراض ، وقد علم مما مر أن إتيان هذه الأعمال والاستمتاع بها محرم شرعا ومما يدخل تحت حكم الشرك .

وقد امتد الفساد الى طبقات المتعلمين والأسر الراقية ، إذ تمدن الجن بما علموه من أحوال الانس فأصبح جن أفرنجى واخترعوا له الطب الروحانى يدعون أن الأطباء من الموتى السابقين خرجوا من البرازخ لمعالجة المرضى وحينئذ ما على الأطباء الأحياء إلا أن يتواروا عن الأعين فقد بار طبهم وبطل عملهم لأن من هم أقدر منهم فى عالم الروح قد تهيأوا للعمل فاجتمع الدجالون من الوسطاء ومنهم النساء والرجال لمس المريض ومنهم من يجلسون فى حجر منازلهم ويظلمونها ساعة خاصة يحددها أهل الدجل لزيارة الأرواح وهذا كله من عمل الجن فى الصورة الحـديثة من تهييئهم وتزيينهم ، فياليت الحكومة تضرب على أيدى هؤلاء جميعاوتعمل تشريعا يحرم هذا الدجل الوبيل العواقب، وشريعة الاسلام الغراء تحرم ذلك بل حكم معظم أجلة العلماء على متعاطيه اعتقادا بالكفر والشرك والعقوبة على خلاف القتل وأقلها الطرد أو النفى .

ولا يدخل فى هـذا العلاج النفسانى، فالعلاج النفسانى مشروع وهو علاج المريض بالتأثير الذاتى لتقوى ارادة المريض فيتحمل المرض حتى يعالج منه أو يزول منه الوهم الذى يمرضه ولئلا تتأثر حالته المعنوية فتحصل المضاعفات لأن قوة الروح المعنوية تساعد فى الشفاء .

ومن المنكرات الشائعة عمـل الطلاسم والتلاوات المحرمة للحب وكثير من الأسر الآن يكتبون للحب ويذهبون للسحرة فى سبيل الحب أو لتوثيق عرى المحبة بين الزوج وزوجته والخطيب وخطيبته وهومن السحر وتزيين الشيطان ، ويحصل منه التهييج فى الأرواح ولـكنه لا يدوم إلا قليلا وينتهى بالعداوة وأوخم العواقب لأن الله سبحانه وتعالى يفضح هذه الأعمال التى حذرنا منها، والقائم بهذه الأعمال معتقدا بها كافر بالإجماع لأن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ومتعلمه اعتقادا به مشارك لهم فى الـكفر، ومن ذهب إليهم فى طلبه فاسق يقع تحت طائلة

ونهانا الله عنه كما يتضمن حكمه هذه الآيات « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ، قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ »(١) . وقال جل شأنه تحذيرا من مصيرهم : « قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ، قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ . وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ . إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ »(٢) . وقال القرطبي رضى الله عنه : فاستمتاع الجن من الإنس أنهم تلذذوا بطاعة الإنس إياهم وتلذذ الإنس بقبولهم من الجن حتى زنوا وشربوا الخمور بإغواء الجن إياهم ، وقيل كان الرجل إذا مر بواد فى سفره وخاف على نفسه قال أعوذ برب هذا الوادى من جميع ما أحضر ؛ وفى التنزيل : « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا »(٣) فهذا استمتاع الإنس بالجن .

وأما استمتاع الجن بالإنس فيما كانوا يلقون إليهم من الأراجيف والكهانة والسحر

العقوبة والفتنة ، ومن الغريب أن كثيرا من هؤلاء الذين يقومون بعمليات السحر يدعون الصلاح والإسلام ولا صلاح فيهم والإسلام براء منهم ، فليحذر الذين يريدون وجه ربهم ويرجون من الله الموت على الإيمان من المسلمين هذا النوع من التعلم والاستعانة بهؤلاء والاعتقاد فيهم فيكونون معهم شركاء ، ولقد فشت طلاسم السحر والكتابة فى المغرب من اختلاط بعض اليهود بالمسلمين ومن التلبيس الذى أدخلوه بكتابة بعض أدعية الصالحين وأسماء الله وإدخالها بين العزائم والأوفاق وقد نسبوها إلى أسماء من أسماء عظماء الصالحين بهتانا وزورا ، فليحذر أهل الاسلام هذه المؤلفات وهذه الخدع والترهات .

(١) آية ١٢٨ الأنعام . (٢) آية ٣٨ - ٤٠ الأعراف . (٣) آية ٦ الجن .

وقيل : استمتاع الجن بالإنس أنهم يعترفون أن الجن قادرون على أن يدفعوا عنهم مايحذرون ، ومعنى الآية تقريع الضالين والمضلين وتوبيخهم فى الآخرة على أعين العالمين .

ومن الاستمتاع أيضا إقامة مجالس تحضير الجن وما يحصل فيها من استخفاف العقول والتلبيس والتمثل بأرواح السابقين والإتيان بالأخبار المغيبة ، ومن هؤلاء الذين ينالهم العذاب الوسطاء الذين يسلمون أنفسهم ويغيبون عن الصواب لتتكلم الجن على ألسنتهم؛ ومن العجيب أن ذلك شاع أخيرا فى الأمة الإسلامية وهو حرام ، وسنتكلم عن ذلك فيما بعد .

وكثير من الجن والشياطين مغرمون بحضور مجالس الإنس والاستمتاع بذلك التغرير ولا يفتأون يطلبونه من الإنس بوسائل شتى ؛ والفسقة منهم يتضررون من طاعة الإنس فيتسلطون على المطيعين حتى لايحرقونهم بأنوار الذكر فيلجأون للتلبيس عليهم وفتنتهم وإخراجهم من حظيرة الطاعة إذا ابتغوا بها وجه الله ، فيعبدون قصد عمل الخارق من الأمور والظهور وحينئذ يخرجون من حفظ الله فيقدر الجن على إضلالهم . وقد أخبرنى كثير من الصالحين عن أمثال هذا التلبيس ، والبعض وقع فى فتنتهم ، والبعض من الذين أخلصوا بانت لهم حيلهم ؛ وقد أخبرنى أخى فى الله فضيلة الشيخ على عقل حفظنا الله و إياه ، أنهم جاهدوا معه للتغرير به كما يفعلون مع غيره قال : رأيت فى نومى وأنا إلى اليقظة أميل أن رجلا جاءنى فسألته من أنت؟ فقال أنا الخضر ، فقلت له وقد فهمت أنه جنى : مالى وللخضر وأنا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يرعانى كتابه وسنته فلا حاجة لى بالخضر ، فقل لى من أنت تحاول إقناعى أنه الخضر فلم أصدقه ، فقال أما وقد فهمت فأنا جنى أسكن منزلك وقد أتيت لأضلك وأعينك قطبا ولـكنك لم تنخدع ، فقلت له وما اسمك؟ قال : وما تعمل باسمى وأنت لا تصدقنى فقلت له إنما اسمك لايضر ولاينفع فقال اسمى زمعال ، فقلت وما زمعال هذا ؟ فقال ألم أقل لك إنك لا تصدقنى فقلت وماعلينا يازمعال أتضلون الناس هكذا ؟ قال نعم واستيقظت ، ثم عاد مرة يأمرنى باغلاق النافذة التى يسكنها وأنا نائم فقمت وأغلقتها وقلت له أمر بمعروف لا أخالف فيه وعاد إلىّ بعد ثلاثة معه زيارة فى النوم أيضا ، فسألتهم عن أول العزيمة البرهتية ، فقلت لهم برهتيه برهتيه تتليهن تتليهن ما هذا؟ فقالواهى تتميهن قلت لهم تتميهن أو تتويهن على أى شكل ماهذا

الكلام ؟ ؛ فقال بعضهم لبعض دعوه إنه لا يؤمن إلا بدليل وتركونى وانصرفوا ، ورأيت قبل ذلك قوما من الجن وأظهروا لى أنهم الجن وقالوا اختر لك كرامة نظهرك بها نحن الذين نداوى الصرعى فى مقام فلان ونعمل الزهور فى مقام فلان ، فقلت لهم تنحوا عنى إنما أختار الله الذى لا إله غيره ولا حاجة لى بكرامتكم وانصرفوا وانصرفت) .

وأذكر أنى كنت نائما فأيقظنى وأنا فى شدة النوم اثنان من الجن فجلست على سريرى وأنا أحسبنى يقظان تماما – ولو قيل إنى كنت فى منامى – ثم قالا لى نحن نحبك لأنك تكثر من ذكر الصمدية ونحب أن نخدمك فيما تأمرنا به فقلت لهما إنما أذكر حبا فى ربى ولست محتاجا لخدمة من قومكم مطلقا فقالا لابد أن نخدمك رضيت أو لم ترض فقلت لهما اذهبا عنى فإنى متعب والنوم يغلبنى فلا ترهقونى ثم نمت .

ومن الغريب أنه لا زال الناس يقعون فى هـذه الأحابيل ويحبون الاتصال بالجن ، وما لهذا الاتصال من فائدة بل يسبب للناس ذهولا وحيرة وتوقعا لطروق هواتفهم فيختبل شعورهم وتتغير أحوالهم وتخف عقولهم ومداركهم من تسلط أرواح الجن عليهم ، لأن الله سبحانه وتعالى عند ذلك يتخلى عنهم ويتركهم لفتنتهم ، وقد كثرت شعوذتهم فى مصر فى السنين الأخيرة وأدت إلى فساد فى المجتمع واختلاط النساء بالرجال والاستحواذ على عقولهم وابتزاز أموالهم ، ولو أن بعض الناس يدخلونها لمجرد معرفة حقائق هذه الأشياء إلا أن ذلك لا يفيدهم شيئا وقد يسوقهم الشيطان إلى الاعتقاد بها وينصب شباكه لهم فلا يستطيعون الخروج من أباطيلهم وتعلاتهم فضلا عن وقوعهم فى محرم شرعا .

وقد قرأت وصف مجلس من مجالس تحضير الجن لا يختلف عن مجالس تحضير الأرواح اليوم وهى الصورة التى صورها الجن للانس استحواذا على عقولهم بطريقتهم الجديدة المتمدينة وسنعود إليها فى باب آخر . قال الأستاذ أبو الوفا محمود رمزى نظيم فى (كتاب الجن) تأليف الأستاذ مصطفى فهمى الحكيم :

(ومن الخيانة للعلم أن أنكر واقعة لها شهودها وظاهرة لوجود الجن شاهدتها بنفسى فوق الثلاثين مرة وأسفى كثير أننى تهاونت فى الاتصال بهم وكان ميسورا وتتذ لى بواسطة

الرجل الذى كان يجلبهم فى ظروف كثيرة بتلاوة دعوة صغيرة وحرق قليل من البخور فى مدة لا تستغرق بضع دقائق ، و إلى القارئين الواقعة وشهودها)

كنت فى صيف سنة ١٩١٣ أقيم فى قريتى بركة السبع ترويحا عن النفس من ضجيج القاهرة ، وفى ذات صباح أقبل علىّ عالم القرية و إمامها المرحوم الشيخ موسى البيومى وكان ورعا تقيا صائم الدهر ، فسألنى ألم تصدق بوجود الجن ؟ قلت بلى و إلا فلست مؤمنا . قال أتظن أن هناك من يستطيع جمعهم فى مجلس وعلى أعين الشهود ؟ . قلت ما أحسب أن يكون ذلك إلا إذا كان الرجل دجالا يريد أن يضحك على ذقوننا . قال أتثق بى ؟ . قلت نعم إلا فى هذا فإننى أثق بنفسى أشد . قال إذا موعدنا الليلة . قلت وفى دارنا بعد صلاة العشاء ، وفى الموعد اجتمع حوالى الأربعين ذاتا بينهم الأستاذ العالم يس أفندى حلمى من أعيان المنصورة اليوم ، و بعض أهل الأدب والفضل ووجهاء البلد وجاء الشيخ موسى يرافقه رجل وقور على أبواب السبعين حسن البزة مطمئن من المتصوفة على طريقة سيدى على البيومى رضى الله عنه ، يحسن القراءة والكتابة بعض الشىء واسمه السيد محمد عبد الله من كفر النخلة على مقربة من بنها وكان له ولد من مأمورى السودان اسمه اليوزباشى عبد الغنى أفندى السيد .

رحبنا بالرجل وتوسمت من رزانته وثقته بنفسه وقلة دعواه أننا على وشك شهود حادث جديد ، ومن ثم انتقلنا إلى صالة فسيحة فى الدار أحكم غلق أبوابها ونوافذها وجىء بالنار فألقى البخور فيها ثم أمر بإخراجها وأطفىء النور وتلا الدعوة مرتين وهى تقع فى حوالى الأربعة أسطر وكنا ساعتئذ نجلس صفوفا فى جوانب القاعة فى هيئة مستطيل وجلس الشيخ يس أفندى حلمى وعن جانبيه كاتب السطور وأحد العلماء لنقف على الحقيقة ولم نلبث أن وقعت بالمكان رجة عظيمة ودوىّ وكنت أجلس القرفصاء فأحسست برجل خفيفة تدوس رجلى بدون أن تحدث بها ألما وامتدت يد فمست رأسى وألقيت إلىّ تحية مسموعة بصوت رقيق وقال صاحب التحية : ياسى رمزى قلت نعم قال الجواب الذى تريد إرساله إلى خالك لا يليق بك فالرجل صاحب فضل عليك و إياك ونكران الجميل ، دهشت من هذه المفاجأة جد الدهشة

فقد كان بينى و بين خالى المرحوم الأستاذ إسماعيل عاصم بك المحامى ملاحاة وخطر لى أن أكتب إليه فى ذلك اليوم خطابا شديد اللهجة وهـذا تفسير الواقعة . وألقى هذا الطيف المجسم بعد الصلوات على الرسول الكريم ثم أنشد :

يا رجال الله صبراً إن توالت الكروب
كلما يشتد كرب تنجلى عنكم ذنوب
إن فى القرآن آية هى طب للقلوب
إن بعد العسر يسراً قال علام الغيوب

ونطق رجال بالضمة وصوابها الفتح فقلت فى نفسى إنه أخطأ وعند هـذا الخاطر قال يا فلان قلت نعم ، قال إنها ليست لغتنا فلا تعترض إن قلتها بالضم أو الفتح فزدت بهذه المفاجأة عجبا ، وهاج جمهور وماج خارج باب الدار وأحدثوا ضجيجاً مزعجاً يريدون الدخول ففتح الباب وصرخ بهم فأجفلوا ، ثم عاد فأغلق الباب ومددت يدى فأمسكت فى الظلام بيد الشيخ المحضر والطيف فى وسط الغرفة فهتف بى لماذا يا فلان أمسكت بيد الشيخ سيد؟ ألا تؤمن بوجود الجن ؟ قلت بلى ولكن ليطمئن قلبى ، قال المحضر قل له « معلهش » فأغضبته هذه المقاطعة وقال لماذا تقاطعنى يا شيخ سيد ؟ ألم أحذرك هذا ، فأراد أن يترضاه ولكنه دنا منه وضربه بسوط حتى ألهبه ، وصرخ الرجل فتشفعت عنده فكف الأذى وقال يخاطبنى : ليس من الأدب فى شىء يافلان أن أخاطبك أنا وهو يقاطعنى ، تعال أنت قلت أجاء دورى فضحك وقال معاذ الله ، ونهضت فإذا بى ألمس هيكلا نحيلا رخص الأطراف يعلو كفيه شعر وله لحية ، ويلبس جبة من الصوف ورائحته ذكية ، وأنفاسه عاطرة فضمنى إلى صدره وألقى فى أذنى بعض الكلمات المباركة ونفخ فى فمى ، وأقول صريحا إننى وجدت من ذلك بركة كثيرة وعدت إلى موضعى موقنا من صحة الجلسة ، وفى صباح اليوم التالى كشف الشيخ المحضر عن ظهره فوجدت آثار الضرب بادية زرقاء كما يحدث للمجلود وقال إنه ذاق مثل هذه العلقة مراراً .

وفى جلسة أخرى سأل بعض الحاضرين هذا الطيف أن يدعو بعض الإخوان من الجن

لحضور المجلس فجاء أربعة وطافوا يصافحون الحاضرين خلف بعضهم ، وكانت أجسامهم لينة الأطراف وأصواتهم واضحة وإن كانت خافتة . ومما أذكره أننى دعوت مرة العالم الكبير الشيخ إبراهيم زغو غفر الله له لحضور إحدى الجلسات وشهود هذه الظاهرة العلمية فحضر ولما أقبل الطيف ألقى عليه التحية وكان الشيخ إبراهيم يقيم فى بلدته شنتنا الحجر ونحن فى بركة السبع وقال له الطيف على مسمع من الحاضرين : يا شيخ إبراهيم هل من أدب العلماء إذا هموا بالذهاب لزيارة أحد أن يقولوا : إننا ذاهبون للتفرج عليه ؟ قال كلا ، قال كيف أبحت لنفسك إذا عند ما سألك أنجالك وأنت قادم إلينا أن تقول إننى ذاهب لأتفرج على الجنى الذى يحضر الليلة فى دار رمزى فاعتذر العالم ، وكان للحادث أثر فى نفسه ؛ وممن شاهد هذه الواقعة صاحب أجزخانة أولاد عنان والأستاذ محمد عبد العزيز الصدر وقد حضر فى منزله والمقاول السيد محمد مسعود بمنشية الصدر وغيرهم كثيرون . وأذكر أننى حضرت مجالس الرجل حوالى الثلاثين مرة ، ورأيت فيها العجب من هذا الجنى الذى كان يسمى عبد اللطيف وكان رقيق الصوت إذا تحدث ويناقش فى أدب وحياء من الله ويحث على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونبأنا مرة أنه يدخل الخلوة كالإنسان ثلاثة أشهر فلا يحضر المجالس، وقد استدرجته يوما إلى الحديث عن الثورة العرابية وطريقة دخول الإنجليز مصر فكان صفحة مدهشة من التاريخ السرى للاحتلال ، وكنت أناقشه فيقول: ماراء كمن سمع، وقد حدثنا مرة بأجلّة الشيوخ الذين حضر عليهم العلم بالأزهر الشريف وغيرهم فى عصور سابقة قبل عصر الأسرة المالكة .

ومات الشيخ سيد أبو عبد الله بعد الثورة الأخيرة ودفن فى بلدته كفر النخلة وخسر العلم الروحانى بموته خسارة لاتعوض ، واجتمعت بعده بكثيرين من أدعياء الاتصال فما وجدت منهم غير الدعاوى العريضة للاحتيال والتكلم من البطن أو استعمال الأبواق للتغرير بالبسطاء .

أبو الوفا محمود رمزى نظيم

وفى صور هذه الجلسات التى وصفها الأستاذ الفاضل محمود رمزى نظيم فى كيفية اجتماع الإنس بالجن مشابهة كبيرة لتلك الجلسات التى قام بها المستر آرثر فندلاى ، وذكرها فى كتابه [على حافة العالم الأثيرى] الذى ترجمه الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير ، وسنعود إليها فى باب تحضير الأرواح ، ولكن الذى أستطيع أن أؤكده أن هذه الاجتماعات لايقوم بها الصادقون من المتصوفة أهل الشريعة والحقيقة ، لأنه يدخل فيها تلبيس الشيطان ولايرضاها صالح الجن ولا صالح الإنس ، ولأنها مما يدخل فى باب الاستمتاع والاستلاذة المنهى عنها شرعا ، ولافائدة لهم من الإخبار بالمغيبات وعمل الخوارق لأنهم يعبدون الله وحده ويخضعون لسننه ويخافون الشبه والتلبيس والمقت والفتنة ولا يعملون ما لم يكلفهم الله به ، وقد اتبعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَالَا يَعْنِيهِ» ويعبدون الله طلبا لرضاه ولا يشترون بعبادتهم ثمنا قليلا من اعتقادات الناس ، ويعلمون أن مصير هؤلاء الفضيحة وانكشاف أمرهم وقد باءوا بغضب الله عليهم ، وأما إذا عرض لهم شىء من ذلك بالرغم منهم فإنهم يخافون الله ويطلبون صرفه عنهم .

ومما يروى عن سيدى عبد القادر الجيلانى أنه كان مختليا مرة يعبد الله بصدق وإخلاص فتراءى له فى الخلوة نور من الأنوار المُزَيَّنَة فانتظر حتى نُودِى من وراء هذا النور : أنا ربك يا عبد القادر ولإخلاصك رضيت عنك ، ولأنك قطعت أحوال الطريق والتعبد وأنا الذى أحل الحلال وأحرم الحرام فقد أبحت لك المحرمات ، ففهم فى الحال أن هذا النور من تلبيس الشيطان وفتنته وقال اخسأ عنى يا لعين نخس بعيدا ولم تجز حيلته . كما أن أقوياء الأولياء الذين أعطاهم الله قوة الاضطلاع بالشهود فى العالمين لتعليم الجن لم يفتتنوا بهم وخافوا من الله أن يستعينوا بهم لأنها أمانة وجاهدوا أنفسهم حتى لا يكون ذلك استدراجا وفتنة ولم يبوحوا بأسرارهم وقد كُلِّفُوا كتمانها ، كيف وهم على أبواب الحقيقة فى ذل شديد وانكسار قلب رهبة فى قربهم من رب العالمين ، وأهل هذا المقام ينسون فى حلاوة شهودهم وفى صدق طلبهم لله كل من فى العالمين حتى أنفسهم وأهليهم ، وإلا لو أهمهم شىء آخر لطردوا .

وقل لى بربك يا أستاذ ما هى فائدة هذا الاجتماع ؟ وما الذى عاد على الشيخ سيد من ضربه بالسياط وتحقيره ؟ أمثل هـذا يعمل الصالحون ؟ إن الشريعة الغراء تبرأ من هذه الاجتماعات ولا ترضى بهذا التمتع فلكل عالم تكليفه وسنته ولا يرضى ولن يرضى الله بهذا الخلط الذى تصاب العقول والنفوس منه بالخبل، وكفى من المخالطة أن تتأثر الأرواح بهمسات الصدور من الوساوس مع اختباء هذا العالم عن أعيننا رحمة بنا ؟ .

ويكفى ما قدمناه لبيان مقدار ما تتأثر به الأرواح من العوالم غير المنظورة ، و بيان سلوك طريق الصواب والاستقامة فى سيرنا ورواحنا وغدونا و يقظتنا ومنامنا ، هدانا الله إلى سواء السبيل وحفظنا من شرور الجن والإنس وهمزات الشياطين وأن يحضرون .

تحضير الأرواح

منذ بضع سنين أهدى إلىّ صديق العزيز الدكتور محمد بك عبد الحى كتابا [على حافة العالم الأثيرى] وطلب إلىّ أن أبدى رأيى فيما يسمونه تحضير أرواح من ماتوا من بنى الإنسان ؛ ومع احترامى لطلبه لم يكن لدىّ من الوقت ما يسمح لى بالكتابة فى هذا الموضوع ، وكنت أحسب أن شأن هؤلاء المحضّرين لا يبلغ ما بلغه اليوم من الاهتمام ، ولكن أخبرنى كثير من أصدقائى وإخوانى أن هذا الباب فتح على مصراعيه وأصبح فتنة للناس ، وأصاب الاجتماع منه مرض وخيم ، واشتغل كثير من الناس بهذا الشأن حتى فسدت أحوالهم بما يفاض عليهم من التدليس والتغرير والتلبيس ، وصارت مجامع تحضير الأرواح مباءات فساد يجتمع فيها الرجال بالنساء ، يتعارفون فيها ، ويأتون من الآثام ما تقشعر منه النفوس الأبية الكريمة ، ويهدمون به صرح الأخلاق ؛ فالبنت تذهب لتحضير أخاها المتوفى أو لتطمئن على أمها و بعضهن يدعين أنهن أمرن من أرواح الأقارب بأفعال لا يرضاها الشرع ولا تقبلها الفضيلة ؛ واتخذ كثير من الناس هذه الأحبولة لاصطياد الناس والتغرير بهم — وطلبوا منى أن أبدى رأيى فى هذا الموضوع بصراحة ومدى انطباقه

على عقيدة الإسلام ، وهل يصح تحضير الأرواح ؟ وهل حقيقة تحضر أرواح الموتى من الآدميين هذه المجالس ؟ وأذكر على سبيل المثال خطابا جاءنى من صديقى الأستاذ حسين خالد حمدى بكالوريوس تجارة ووكيل إدارة الفحص بمراقبة الاستيراد بوزارة المالية ، وهذا نصه :

سيدى الأستاذ السيد أحمد عبد المنعم الحلوانى .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته : أما بعد فلقد جرى بينى وبينكم حديث بشأن الروح واستحضارها ، وذلك لمناسبة شروعكم فى طبع مؤلفكم « الإيمان والروح » أود لهذه المناسبة أن أخبركم أننى كنت من المهتمين بدراسة هذا الموضوع منذ عدة سنوات ، قرأت فى خلالها بضع مؤلفات عن الروح ، كما حرصت على حضور عدة جلسات لبعض المهتمين بهذا النوع من الدراسة ، والذى أستطيع أن أؤكده أن الإثبات المادى لوجود روح فلان بالذات هو ذلك الشيء الموجود بالجلسة ضرب من المحال ، لأن التأكد اليقينى فى مثل هـذه الحالة لايكون إلا بالمشاهدة الحسية ، إلى ذلك أن الأمور التى تعالجها هذه الموجودات التى تستحضر يشوبها بعض الهنات ، ومن مثل ذلك أن الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير كان يستحضر روحا لمن يدعى « توماهوك » وهو من أطباء الهنود الحمر ، وكان يعالج بوساطته المرضى الذين يترددون عليه طلبا للشفاء ، ولقد استبدت العلة بأحدهم مرة فلجأ إلى معهد الأبحاث الطبية ، (بغير علم الأستاذ) فلم ينفع فيه علاج فمات ، غير أن بعض حاضرى جلسات التحضير عند الأستاذ أبى الخير سألوا (الروح) عن حال الرجل المتوفى ، فأجابت الروح أنه آخذ فى التحسن أو أنه بسبيل الشفاء .

ولقد أثار الأمر ضجة فى حينها — عام ١٩٣٧ على ما أذكر — واشتد الجدل على صفحات المقطم الأغر ، ولعل بعض أصحابه كانوا من شهود الحال ، ولقد علل الأستاذ أبو الخير ذلك الخلط بأن من الأرواح من هو كاذب ، ومنها ما هو صادق ، ولقد حرصت على حضور إحدى جلسات الأستاذ أبى الخير من باب الاستزادة فى العلم وطلبا لشفاء أذنى من باب الاحتياط ، ولقد راعنى حقا بعد إظلام الغرفة وانطلاق صوت الحاكى بالموسيقى الخفيفة أن بدت حركات التشنج العصبى على أربعة من الوسطاء وكان أحدهم من ضباط الجيش ،

وراح الكل ينفخون الهواء من أفواههم بقوة على مريض قد توسط الغرفة تحت النور الأحمر وكان الوسيط الأول هو الذى يدمدم بصوت منكر تشوبه لكنة أعجمية ، ولما طلب هذا الوسيط إطفاء الذبالة الحمراء ، راعنا بالأكثر أن رأينا فى سماء الغرفة ضوءا أزرق لطيفا ينبعث ليختفى لينبعث من جديد بشكل خلاب ، ولقد عرضت ما أصاب أذنى من تلف فأمرت أن ألزم دارى فى يوم معين من أيام الأسبوع معتكفا فى حجرتى الخاصة حيث ستعالجنى الروح ، ولقد مضت السنون فما ازدادت أذنى إلا سوءا ، ذلك إلى أننى قد مارست الاستحضار شخصيا على يد بعض الزملاء وهم جميعا من أهل العلم وإنما كنت أعتمد على الآيات القرآنية ، ولقد مرت بى أطوار كثيرة ما أرى المجال يتسع لسردها ، أجملها فى أن ممن استحضرتهم من كان عابثا ساخرا ، ومنهم وهو من أستحضره حاليا من كان صالحا دينا مهذبا لايتكلم إلا فيما يعلم ، ذلك إلى أنه يشير دائما بآراء هى آية فى السداد و بعد النظر ، ولكنه يصر على أن أستحضره دائما فى منزلى دون أى مكان آخر لأسباب سردها لى ، وكان بودى كثيرا أن تتفضل بحضور إحدى هذه الجلسات لعلك تنير لنا الطريق فى هذا الموضوع بوصفك المرشد الروحى لنا ، ولقد استحضرت الروح التى تصادفنى عقب حديثى مع حضرتكم، و بعد تبادل عدة مسائل بيننا — لم يدر فيها ذكر هذا الموضوع — أن فاجأنى بقوله (أحب أن أنبهك إلى ضرورة الإيمان بوجود الروح يا حسين فقلت إن كنت تقصد بذلك التعليق على حديثى مع السيد عبد المنعم الحلوانى فاعلم أننى أومن حقا ودينا بوجود الروح ، على أن ذلك لايمنع من اعتقادى بوجود شياطين الجن ممن يموهون على الناس ، فقال : هذا حسن) .

وتفضل يا سيدى بقبول أسمى عبارات تقديرى ، والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته .

حسين خالد حمدى

وكيل إدارة الفحص بمراقبة الاستيراد بوزارة المالية
٧ شارع الملك عبد العزيز آل سعود — الروضة القاهرة

وقبل أن نتكلم فى موضوع تحضير الأرواح سنناقش الكتب التى ترجمها إلى العربية الأستاذ « أحمد فهمى أبو الخير » وأهمها كتاب [على حافة العالم الأثيرى] تأليف مستر « ج . أرثر فاندلاى » .

يقولون إن تحضير الأرواح يفسر الآن تفسيرا علميا وقد خضع لقانون العلم الطبيعى ، وأن عالمنا هذا هو عالم الفيزيقية ، وهو أثقل من العالم الأثيرى ، وعالم الأثيرى عالم مادى ، وإن تكن مادته من الرقة واللطف حيث لا تستطيع حواسنا إدراكها ، إلا أنهم يوجبون علينا أن عالم الروح جزء من هذا العالم ، ولا ندرى كيف يوجبون علينا هذا ؟ ثم يقولون إن الروح جسم من أجسام العالم الأثيرى ؛ وقد قال فريق من العلماء إنها صورة كصورة الجسد ، ولكن من المتفق عليه عند علماء الشريعة الإسلامية أنه لا يمكن معرفة حقيقتها مطلقا ، ولا علم شىء من تراكيبها ، فهل أمكن ضبط جسم من أجسام الأرواح وتحليله حتى يقع تحت طائلة ميزان العلم الطبيعى ؟ اللهم لا ، وجل اعتمادهم فى المعلومات التى قدموها لنا عن تفسير تحضير الأرواح تفسيرا علميا وأنها تحت اختبار العلم الطبيعى لا تستند إلى أساس تجريبى ، بل تستند إلى أقوال المتكلمين فى جلسات التحضير على لسان الوسطاء وسنتكلم فيما بعد عن هؤلاء الوسطاء .

ومن الأسف أن يموه على الناس فى هذا الكتاب بذكر بعض أقوال علماء الطبيعة للتضليل بها على القراء من كثرة ما يكتبون ، حتى ليظن القارئ بعد قراءته النظريات الطبيعية الحقيقية أن لهذا الذى يقولونه صلة بالعلم ، دون أن يفكر فى ربط العلم بموضوعهم ربطا حقيقيا ، وقليل من الناس الذى يفطن إلى أنهم بعيدون كل البعد عن ربط موضوعهم بموضوع العلم الطبيعى ، وقد لا يفطن إلى نقطة الانفصال بين الكلام فى الطبيعة وسقم دليل اتصال الموضوع بالعلم ، فمثلا يتكلمون عن الشحنة الكهربائية وهما السالب والموجب والإلكترون والبروتون وتقدير حجم كل منهما وأنه أصغر بكثير من الذرات التى تتألف منها الالكترونات[1] هذا موضوع من موضوع العلم الطبيعى، ثم يتكلمون على

---

(١) نستطيع الآن أن نلخص باختصار ما انتهينا إليـه ، فالجسمان المختلفان فى الشحنة الكهربائية وهما السالب والموجب يسميان على الترتيب الالكترون والبروتون وكلاهما متناه

أن المسافة بين الالـكترنات والبروتونات فى داخل الذرة الواحدة شاسعة جدا بالنسبة لحجمها وأن الالـكترونات والبروتونات متباعدة جدا داخل الذرة ، وأنها إذ تتحرك بسرعة هائلة يصلها بعضها ببعض ذلك الأثير غير المنظور ، وأن المادة متألفة من شحنات كهربائية صغيرة سالبة وموجبة ، وأنها تتحرك بحركة منظمة ، ويصلها بعضها ببعض الأثير الغير منظور الذى أصبح اليوم يعتقد أنه مادة الـكون الأساسية[1] وهذا من موضوع علم الطبيعة والـكيميا ، إلا قولهم إنه مادة الـكون الأساسية فلن يستطيع أحد أن يقرر ذلك إلا أن يكون خالق الـكون ، ولا زال العلم يكشف عن عجز العقول ، وأن نظريات اليوم تقضى على النظريات التى كانت سائدة فى الأزمان الغابرة ، وكانوا يعتقدون ثباتها بصورة لا تقبل الشك .

فى الضآلة ، ومع ذلك فقد أمكن تقدير حجم كل منهما ، فهما أصغر بكثير من الذرات التى هى أصغر الأشياء المعروفة ، بل هما أصغر منها بما لايقاس ، وحتى إذا وجد منها فى الذرة مائة أو ألف ، فهذه المائة أو الألف لا تكون متكدسة ألبتة فى داخل الذرة بل يوجد عداها فضاء خلاء كبير ، والمعروف الآن أن الذرات المختلفة تتألف من الالـكترونات مختلفة العدد ، وعلى اختلاف العدد ونوع التجمع تتوقف العناصر الـكيماوية المختلفة ، إن ذرات العناصر الـكيمياوية جميعها مكونة من الالـكترونات والبروتونات ولا شىء سواها ص ـ ٣٩ .

(١) والواقع أن المادة الفيزيقية شبكة مفتوحة من الالـكترونات والبروتونات ، وأن المسافة بين الالـكترونات والبروتونات فى داخل الذرة الواحدة شاسعة جدا بالنسبة لحجمها . وإذا نحن اعتبرنا للنواة فى الذرة عين المركز المسيطر الذى للشمس فى المجموعة الشمسية ، فإن المسافات النسبية التى تفصل ما بين الالـكترونات بعضها عن بعض والتى تفصل ما بينها وبين البروتونات ، لابد أن تكون معادلة للمسافات النسبية بين السيارات بعضها عن بعض ، وبين السيارات والشمس ، وإذا اعتبرنا الذرة فى حجم كنيسة القرية فإن رأس الدبوس قد يمثل الحجم النسبى لأحد الالـكترونات الداخلة فى تركيبها ، وعلى هـــذا تكون البروتونات والالـكترونات متباعدة جدا داخل الذرة ، وهى إذ تتحرك بسرعة هائلة يصلها بعضها ببعض ذلك الأثير غير المنظور الذى يشغل الجزء الأكبر داخل الذرة ، فالمادة متألفة إذن من شحنات كهربائية صغيرة موجبة وسالبة تتحرك ، لا حركة عارضة بل حركة حرة منظمة ويصلها بعضها ببعض ذلك الأثير غير المنظور الذى أصبح اليوم يعتقد أنه مادة الـكون الأساسية ص ـ ٤٠ .

وينتقلون بنا من النظريات الطبيعية والكيمياوية فجأة إلى أن الروح جسم أثيرى كما يتوهمون بلا دليل يدخل تحت دائرة العلم الطبيعى ، فإنهم لم يقبضوا على روح من الأرواح ثم يضعوها تحت البحث والتحليل ، ويزنوها بميزان الذرة والالكترون أو ماهو أدق من ذلك ، فإن وصلوا إلى ذلك سلمنا ، ومن العجب أنهم ينتقلون بنا إلى هذا الاعتقاد الغريب من حيث لا نشعر ، ليوهموا القراء أن المسألة مسألة علمية ، فيقولون إن الذى نفقده عند الموت الجسم الفيزيقى ، ويحل محله جسمنا الأثيرى وبدلا من العيون الفيزيقية تكون لنا عيون أثيرية تؤدى وظيفة العيون الفيزيقية ، وأما العقل فيحل فى المخ الأثيرى وأنهم أنبئوا أن العالم الأثيرى يتألف من مادة لطيفة[1] ومن الغريب أنهم يعترفون أن الأثير لم يرقط[2] كما ترى المادة الحقيقية ولم يوزن كما توزن فمن أين جاءهم هذا العلم ؟ وما ربط

---

(١) والآن ما الذى نفقده عند الموت ؟ والجواب هو أننا نفقد الجسم الفيزيقى فقط ، ويحل محله جسمنا الأثيرى ، وبدلا من العيون الفيزيقية تكون لنا عيون أثيرية يستخدمها فى تأدية نفس الوظائف التى تؤديها عيوننا الفيزيقية . أما عقلنا فيستمر يؤدى عمله خلال المخ الأثيرى ، ولقد أنبئت أن العالم الأثيرى يتألف من مادة لطيفة جدا ، لا نستطيع ونحن فى جسومنا الفيزيقية أن نحس به ، وأنبئت أيضا أن له ضوءا ، ويختلف كل من المادة والضوء عن مادتنا وضوئنا الفيزيقيين فى الدرجة فقط ، ولكن أهم ما تمتاز به المادة الأثيرية أنها أسهل تشكيلا بالفكر ، وفى الإمكان أن تتشكل هذه المادة بالفكر المركز دون حاجة إلى لمسها وذلك عند ما يكون العقل قد ارتقى الارتقاء الكافى للتأثير فيها ويحدث الضوء هناك كما يحدث هنا ضوؤنا ويؤثر فى العيون الأثيرية بنفس العملية التى يؤثر بها ضوؤنا فى عيوننا ص — ١٧٣ .

(٢) قلنا إن الأثير لم يرقط كما ترى المادة الحقيقية ولم يوزن كما توزن ومع ذلك فقد أمكن استخلاص بعض الآراء بخصوص هويته وخواصه ، أنه يملأ الفضاء كله وهو أبرد من الأرض بخمسمائة درجة ، وله قصور ذاتى وكمية تحرك ، وله ضغط هائل قد يبلغ ملايين الأطنان لكل قدم مربعة ، وهو أكثف من الماء ملايين المرات ، ولكنه مع ذلك أكثر منه مرونة ، وله حركة دورية مستمرة ، هذه المادة الغريبة التى لا يمكن أن نراها أو نسمعها أو نشمها أو نلمسها إذا أثيرت حركتها أمكنها أن تحمل عبر الفضاء الطاقة التى فى مكنتها أن تؤثر فى حواسنا كالضوء والحرارة والكهربائية ، ولقد استكشفوا منذ عهد قريب كيف تتحول هذه الموجات إلى كلام وموسيقى ، وهذه المادة المتموجة لن تسكن أبدا بل هى دائبة الحركة ،

موضوع الأرواح بالمادة ، وما هذا الانتقال الغريب من الكلام على المادة إلى الكلام عن الأثير إلى الكلام عن الأرواح .

وينتقل بنا الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير إلى سطوح هـذه العوالم الأثيرية وأن فيها أرضا وماء وشجرا ودورا وحقولا وطرقا ومزروعات وأنهارا وجبالا ووديانا إلى غير ذلك من بنات خياله السابح ، ويقول: إن كل سطح يتألف من مادة أو اهتزازات ألطف ثم ألطف ، ثم إن أهل هذه السطوح يعيشون كما نعيش نحن على الأرض ، وأنهم يطعمون بالتغذية ولكنهم أيسر منالا لرزقهم منا ، وأنهم أسرع حصولا على الملابس التى يلبسونها بتأثير الفكر فى المادة الأثيرية ، وأن الأثيريين يشبعون رغباتهم بطريقة غير معروفة على الأرض [1]

ومع أننا لا نراها ولا نلمسها فإنها إذا لم تكن موجودة تعمى أبصارنا ونحس بالبرد الشديد القارس لأنه لا يكون لدينا عندئذ وسط ينقل لنا الموجات التى تحدث الاهتزازات المؤثرة فى عيوننا وفى جلودنا ص — ٤١ .

(١) سنتناول بالبحث أولا سطوح هذه العوالم الأثيرية المختلفة . ففى هذه السطوح أرض وماء وشجر ودور وحقول وطرق ومزروعات من جميع الأنواع وأنهار وجبال ووديان ولكل ما نشاهد على سطحنا يوجد مثيل على السطوح الأخرى ، وإنما كلما ارتفعنا أو بعدنا عن سطح الأرض زاد الجمال وبهاء المنظر ، لأن كل سطح يتألف من مادة أو من اهتزازات ألطف ثم ألطف ، والظاهر أنه كلما كانت الاهتزازات ألطف وأسرع كانت الألوان أزهى وأجمل ، وطلب إلى الذين حدثونى عن العالم الأثيرى ألا أذكر كلمة جميل بل أستبدل بها كلمة زاهى لأنها أكثر انطباقا على الوصف ، وهذا الزهاء يزيد كلما ارتقت عقولنا ، وكما أن الورد تتفتح تويجاته للضوء كذلك يتمدد العقل فى تكشفه وارتقائه . وعلى هـذه السطوح يوجد رجال ونساء وحيوانات تعيش كما نعيش نحن على الأرض ، ولما كان الطعام اللازم للتغذية أيسر منالا ، وكان الجوهر هو الذى يستهلك بدل اللحم والخضر اللذين نستهلكهما نحن ، فإن الحياة تكون يسرة هناك ، بل إنها تكون أيسر منها على الأرض . أما العواطف التى تجيش بها الصدور فوق الأرض ، والتى يثيرها فى الصدور الكفاح فى سبيل الوجود والخوف من الخطر فمعدومة فى أثيرنا ، ولا يلحق الجسم الأثيرى ضرر أو إيذاء ، والموت المفاجىء الشديد غير معروف ، ولما كان الجسم الأثيرى يختلف عن الفيزيقى فى التغذية ، وكانت هذه التغذية أسهل من تغذية الجسم الفيزيقى ، وكانت الملابس أيسر منالا بتأثير الفكر فى المادة الأثيرية فلا تسود هناك قوانين

فهل هذه التخيلات يمكن لعاقل أن يعتقد أنها تتأتى من طريق علمى ؟ اللهم لا ، فلا سند لها من العلم الطبيعى ، ولا سند لها من العقل ، ولا سند لها من النقل عن رسول كريم ، فمن أين وصلت إلى المستر « ج. إرثر فاندلاى » وإلى تلميذه الروحى الأستاذ « أحمدفهمى أبى الخير » لنرى مدى انطباقها على الحقيقة ؟ لم تصله من تجربة علمية ، ولم تصله من طريق عقلى ، ولم تصلهم من بلاغ رسول كريم أوحى إليه أن يبلغ الناس مالا يمكنهم الوصول إليه عن طريق الحس ، فمن أين وصلته ؟ لقد وصلته من هـــذه الأرواح التى حضروها فى جلساتهم[1] فإذا كانت هذه الأرواح لا يتطرق إليها الظن فرضا فإنه لا يلزمنا الاعتقاد بما تقول ، لأننا لم نكشف عالمهم كشفا حقيقيا لا يقبل الريبة والشك ، أما وهذه الأرواح كما يعترفون بعضها كاذب والبعض صادق و بعضها خير و بعضها شرير ، و يدخل فيها أرواح الشياطين وأرواح الجن ولا يتأكدون من ذواتها فى جلسات التحضير المظلمة فكلامهم عن هذه العوالم لا يعتمد عليه مطلقا ور بط الموضوع بموضوع العلم اعتمادا على تفسير هذه الأرواح هو ر بط تافه لا يقبله إلا البلهاء .

وجلّ اعتماد هؤلاء المحضرين للأرواح على الوسطاء ، يقول مستر« ج . أرثر فاندلاى » ولقد انتهيت بعد تفكير وبحث قضيت فيهما سنين إلى أن أرواح الموتى تستطيع أن تظهر ثانية فى عالمنا المادى هذا ، وذلك بعد أن تستعير من الوسيط إفرازا خاصا ينبثق من جسمه فتستطيع به أن تخلق مؤقتا لنفسها أعضاء صوتية تهز جوّنا ، إلى أن قال : ولابد من شروط

الغابة التى كثيرا ما تظهر حتى بين المتمدينين فوق الأرض وعلى الأخص زمن الحرب ، والتى تظهر بدرجة أقل فى التجارة ، إن قوة الفكر تجعل من السهل على الأثيريين أن يسكنوا أنفسهم ويكسوها وأن يشبعوا رغباتهم بطريقة غير معروفة على الأرض ص — ٧٥ .

(١) ويؤكد هؤلاء الأثيريون دائما أن جوهم أكثر ضياء من جونا ، وأنه يمتد فى الفضاء إلى ارتفاع أكبر ، ولهذا لم يتعذر علينا أن نتصور أثيريا وفيها ضوء وشفق بدلا من ضوء وظلام كما هو الحال على الأرض ، وتشبه أثيرية هذه الأرض كل الشبه إلا فى أنها أكثر منها زهاء ، ولطالما جهد الأثيريون فى توكيد ذلك ، وإخال أن على الأشياء هناك ضوءا قزحيا لا يوجد عندنا وهذا الضوء ينشأ بسبب استضاءة جوهم ص — ١٨١ .

خاصة لكى يتمكن هؤلاء الذين كانوا يوما ما فى عالمنا الفيزيقى هذا ، من أن تتجسد من جديد جسومهم المكونة من تلك المادة الأكثر رقة ولطفا . وأول هذه الشروط وجود شخص يحمل فى جسمه قدرا وفيرا من تلك المادة التى اصطلح على تسميتها فى السنين الأخيرة بالاكتو بلازم ، ويقول عن الوسيط : إنه يختلف عنا فقط فى كونه يحمل فى جسمه من هذه المادة قدرا يزيد على القدر الموجود فى الشخص العادى ، ومن ثم يكون أسهل على الأرواح استعارتها مؤقتا من الوسيط أو الوسيطة ، وفى حالة الصوت المباشر الذى أشرت إليه يمكن الحصول على أحسن النتائج فى الظلام لأن اهتزازات الضوء تعوق هذا الاكتو بلازم عن أن يكون بناؤه من الصلابة بحيث يحدث اهتزازا فى جونا ، ووجود وسيط هذا كلام مفهوم ، وأما تعليل أن هذا الوسيط أصلح من هذا بأنه يحمل كمية أكبر من الاكتو بلازم فهذا كلام لاحقيقة له من الصحة ، لأنه للجن وسطاء من قديم الزمن ، ولم يكن الاكتو بلازم لازما لهذه الوساطة ، إنما الذى نؤكده للمستر فاندلاى أن الوسيط « رجلا أو امرأة » هو الرجل الذى لا إرادة له ، والمرأة التى لا إرادة لها ، فيستطيع الجن غشيان جسده وتعطيل إرادته وروحه لفقدان الإرادة وخور العزيمة والاستكانة الكلية لأعمال المحضر والمستحضر كما هو واقع تماما أيضا فى التنويم المغناطيسى ، ويقررون أن أحسن الوسطاء النساء ، ذلك لأن الجن يستمتع بالمرأة أكثر من الرجل ، ولأنها أضعف إرادة من الرجل ، ويقولون : إن الوسيط يقع تحت سيطرة الروح المهيمن بعد أن يكون الوسيط فى حالة سلبية ، وفى غيبوبة تغادر فيها روحه جسمه مؤقتا لتتكلم الروح باستعارة لسانه وحلقه ، ولا يكون فى هذا الوقت الوسيط واعيا ولا عقله موجودا[1] . ذلك لأن

---

(١) إذا ما وقع الوسيط تحت سيطرة الروح المهيمن ، ورغبنا الكلام باستخدام أعضائه الصوتية ، فإننا نجعل الوسيط فى حالة سلبية ، وهذه الحالة هى التى تعتريه حينما تغشاه الغيبوبة ، فروحه تغادر جسمه مؤقتا وتقف فى خارجه ، وعندئذ نستطيع أن نستخدم حنجرته وحباله الصوتية ولسانه وعضلات حلقه ، ونحن لا ندخل فى جوفه بل نقف وراءه ، وفى مكنتنا أن نوجد أنفسنا فى حالة انسجام أو ترنيم أو توليف مع الوسيط بحيث إذا تحركت أعضاؤنا الصوتية تحركت كذلك أعضاؤه ، وتوجد رابطة اتصال أو أثيرية ولكم أن تسموها كما تشاءون ،

الوسيط لا يكون إلا ضعيف الإرادة فاقد الإنسانية يرضى بالذل والحقار ليسلم نفسه ويقبل تعطيل عقله وحسه ثم ينام لتركب جسده روح أيا كانت فما بالك لو كانت من أرواح الشر بلا فائدة تعود عليه إلا إشباع هواية آخرين من الإنس المحضرين والجن المستحضرين للاستمتاع والاستلاذة فياويل هؤلاء الوسطاء من عذاب الله فإنهم بتسليمهم أنفسهم لعصاة الجن يلوذون بهم ويستمتعون بأجسامهم وينتهكون حرمتها ويتكلمون فى ستارها ويسخرون من الناس قد أفسدوا على الناس أحوالهم وعقائدهم . وأغلب الوسطاء يتعرض لمسّ الجن أو يقع تحت سيطرتهم التامة فتفسد طبائعهم وتنحط نفوسهم ويميلون إلى الخمول وتشحب وجوههم وقليلا ما تحسن عاقبتهم عند موتهم ، فليحذر أهل الإسلام هذه الفتنة خصوصا أولئك الذين يقدمون أنفسهم قربانا لهذه التمويهات فى بلاهة وسذاجة .

شهود التحضير : ويشترط هؤلاء المحضرون لنجاح الجلسات شروطا أهمها الانسجام الروحى لأن هناك أشخاصا فيهم كثافة على الأرواح وأشخاصا فيهم خفة(١) والواقع أن

ولهذه الرابطة من التأثير على عضلات الوسيط الصوتية ما للشوكة الرنانة على مثيلاتها المتحدة معها فى الدرجة ، وعلى ذلك تعمل مجموعتا الأعضاء الصوتية متوافقين ولا محل هنا لتأثر الوسائل بعقل الوسيط ، لأن عقله لادخل له ألبتة هنا ، فنحن لا نستخدم عقله بل نستخدم أعضاءه الصوتية مباشرة ، وكل ما تسمعونه من كلام فمصدره عقل الروح المسيطر لأن عقل الوسيط ومخه قد أغلقا مؤقتا ويسيطر الروح العامل على عضلات أعضاء الوسيط الصوتية ص — ١١٤ .

(١) يقول مستر ج أرثر فاندلاى عن هؤلاء ثقال الدم (إذا غشوا حجرة التحضير فإنهم يحبطون كل محاولة يأتيها سكان هذا العالم الآخر للاتصال بهم ، ويجب ألا يظن أحد أنى أقصد أن الحالات تكون متشابهة تماما) ويقول : (وهناك أناس لايحصلون على نتائج قط على الرغم من عدم وقوفهم موقفا عدائيا ، وعلى حين لا يكونون قد أخطأوا قط ، كما أننا نصادف فى الحياة قوما نكرههم بالفطرة ولا نعرف لذلك سببا ، وهؤلاء قد يحبهم آخرون حبا له ما يبرره كل التبرير ، ولكنهم بالنسبة لنا يصقلوننا صقلا خاطئا ، إذا صح هذا التعبير ، بيد أننا لو قلنا إنهم يحدثون اضطرابا فى اهتزازاتنا لكان تعبيرنا أصح وأسلم ، وعندئذ لن نكون متوافقين فلن نستطيع المضى معا ، ولهذا قد لا يصل بعض الناس إلى نتيجة ما لأنهم يبعثون اهتزازات تجعل من المستحيل على أولئك الذين فى الجانب الآخر أن يحضروا خلالها إليهم) ويقول :

خفة الدم وثقل الدم تتبع ضعف الإرادة وحسن الاعتقاد فى التمويهات ، وثقل الدم فى أولئك الذين لهم إرادة قوية ، وعدم استكانة لهذه الأعمال ، فإن الشياطين وفسقة الجن لا يمكنهم التلاعب بعقولهم والتمويه عليهم .

مقدمات التحضير : ومن الغريب أن مقدمات التحضير عندهم هى مقدمات الزار ومقدمات تحضير الجن فى العصور السالفة ، ولكن قد تغير الحال وأصبح تحضيرا إفرنجيا لجن أفرنجى بأسماء متمدينة ، فهم يبدءون الجلسة بالموسيقى والتراتيل الدينية المسيحية أو اليهودية ، ومن يعتقد أن أرواح الموتى تنزل على هذا الأساس من التراتيل فهو مضلل فضلا عن أنه إذا اعتقد أن أرواح الموتى تنزل بإغرائها بتراتيل دينية مخالفة لدين الإسلام فهو مشرك ، لأن الأرواح بعد انتقالها من هـذا العالم تكون فى قبضة الله سبحانه وتعالى ، إما فى العذاب وإما فى النعيم . إما مسلمة أو كافرة ، فالكافرة معذبة رأت الحقيقة ، فكيف بها تستهوى بتراتيل دينية عذبت من أجلها إلا أن يكون هذا الدين الحنيف غير صحيح ، ومعتقد ذلك كافر بالإجماع ، وهم يقولون إن الذى يساعدهم على توافر الظروف لتحضير الأرواح واستجلابها وجود أشياء أهمها العزف على آلات الموسيقى و إنشاد التراتيل الدينية

(وإنما الذى أقصده هو أن من تجاربنا الأرضية مع مختلف الناس يمكن أن نفهم جيدا كيف يكون بعض الناس جلساء صالحين وبعضهم غير صالحين ، فالجلساء الصالحون يبعثون اهتزازات تمكن الذين يحاولون الاتصال بهم أن يتصلوا ، أما الجلساء غير الصالحين فإنهم يبعثون اهتزازات تجعل هذا الاتصال مستحيل الحدوث ، لهذا كان من المرغوب فيه كثيرا الحصول على أناس إذا جلسوا معا بعثوا اهتزازات لا تتعارض معا) .

اهتزازات إيه يا مستر : هؤلاء ثقال الدم لأن لهم إرادة ولأن التمويهات لا تجوز عليهم فقط ، وأما خفاف الدم ضعفاء الإرادة الذين تحب أن تكون الأغلبية مثلهم إذا سلموا إرادتهم لتلك الترهات إذ تقول : (والحق أن الأغلبية لابد أن تكون مثلى ، إذا هى استأنست مثلى بالأحاديث التى سمعتها تجرى بين الموجودين فى تلك الجلسات وبين أولئك الذين فى العالم الآخر) حقا إن كان هؤلاء الذين فى العالم الآخر الذين يحيطون بنا من الجن الذين يحبون التمويه كان كلامك حقا ، أما إذا كان مقصدك أرواح الموتى فهذا ضلال .

واختلاط الجنسين واضطراب الجلسة[1] إلى أن يغيب الوسيط فى غيبوبته فيحصل التخاطب بين الجانبين عن طريق الوسيط .

خرافة البوق : يزعمون أن الاكتوبلازم اللازم للأرواح حتى يمكنها بواسطته التخاطب فى هذا العالم ويفرزه الوسيط لغزارته فى دمه الفزيقى ينتقل من الوسيط إلى بوق

---

(١) (١) لأن هذا يساعد على توافر الظروف عن طريق اختلاط اهتزازات الجنسين الكثة والرقيقة اختلاطا ملائما ويوضع فى وسط الدائرة بوقان ، وقد مر بنا وصفهما ، ثم يتحدث المجتمعون ويحمى وطيس الحديث لأن الكلام يساعد على إيتاء الظروف ، ولابد من صلاة أولية يتبعها ترتيلة ، وقبل أن تنتهى الترتيلة الأولى يسكت الوسيط عادة وينحنى رأسه بالتدريج كأنما هو ماض إلى النوم ، ثم يمسك الجالس على يمين سلون بيمناه والجالس على يساره بيسراه ويطفأ النور ، ونتماسك كلنا بالأيدى فكأنما نحن سلسلة ، ونظل جالسين كذلك طوال الجلسة ويستمر الغناء ، فإذا ما انتهت الأنشودة الأولى أتبعناها بثانية ، وما تكاد تنتهى الأنشودة الثالثة إلا ويكون سلون قد وقع فى غيبوبة عميقة ، ولا نسمع منه إلا همهمة تخرج من فمه ، ثم تتضح هذه الهمهمة بالتدريج حتى تصبح كلمات غير واضحة ولا مسموعة فى مبدإ الأمر ، ولكنها تزيد وضوحا بالتدريج وتصير مسموعة أكثر من ذى قبل ، وإذا بالروح المتسلط واسمه هوايتفذر يعلن عن حضوره قائلا : مساء الخير يا أصدقائى ، إن هوايتفذر يحدثكم الآن لأن روح الوسيط قد خرجت من جسمه وأصبحت أنا المتسلط عليه ، وأنا أستمع إليكم وأستطيع أن أجعل فم الوسيط ينطق بكل ما أريد أن أقوله ، سعد مساؤكم أجمعين . وتلك هى تحيته فى العادة ، فنرد عليه سلامه قائلين : « سعد مساؤك يا هويتى مظهرين سرورنا لسماعه يتحدث إلينا » ص — ٦٤ .

(ب) ولاشىء كالموسيقى يساعد على إيجاد حالات التوافق فللاهتزازات الموسيقية على الرغم من أن الهواء هو الذى يحملها وليس الأثير ، تأثير مباشر على الاهتزازات التى نطلعها فى الأثير ص — ٦٣ .

(ج) ويفضل سلون التراتيل الدينية على ما عداها من الأناشيد الموسيقية وإن يكن ذلك غير ضرورى فأى موسيقى يكون لها التأثير المرغوب ص — ٦٣ .

(د) فإذا ما اضطربت الحال وضعفت الأصوات خلال الجلسة عدنا إلى الغناء مرة أخرى فيكون له فى الجملة ذلك التأثير المرغوب ، ونعنى به تحسين وسائل التخاطب بين الجانبين ص — ٦٣ .

وهذا يستعمل بدل لسان الوسيط النائم . فإذا ما سكنت الأرواح فى الظلام إلى وجود الجو المناسب أمكن للأرواح أن تتكلم كلاما مباشرا[1] ! إكتو بلازم إيه الذى يحتاج إليه المتكلم من العالم الآخر ؟ فمرة يستعمله بالوسيط ومرة يستعمله بالبوق ، ومرة لا يحتاج إليه ، ومن أين جاءهم هذا العلم ؟ هذا كلام هراء معناه أنه ليست لنا عقول ، الحقيقة أنها أرواح

---

(١) وقد أخبرنى المتحدث فى إحدى المرات أن حنجرة الوسيط استعملت ، وأن الصوت حمل خلال أنبوبة روحية إلى البوق الذى كبره فأمكن سماعه ، وبعبارة أخرى أن المتكلم قد استخدم رئتى الوسيط وحنجرته وفمه ليوفر على نفسه تجسيد هذه الأعضاء ، وقد زاد هذا وضوحا خلال الإجابات على الأسئلة الأخرى ، فحينما يتكلم صوت خلال البوق فلا يكون ذلك دائما بمعزل عن الوسيط ، أى أن الصوت لا يحدث دائما من شخصية مجسدة فى مركز الدائرة ، وليس من الميسور دائما أن يظل هذا النمط من التواصل مستمرا طيلة الجلسة كلها ، وما يحدث هو أن الروح الراغب فى الكلام يسيطر على الوسيط ويتكلم عن طريقه ، ولا يكون للروح المتكلم على الوسيط من الهيمنة ماله هو على نفسه ، فلا يتعدى الصوت الحادث أحيانا ضد الهمس ، وينتقل الصوت من فم الوسيط خلال أنبوبة اكتوبلازمية أو روحية تجسدت إلى البوق الذى يعدل الصوت بحيث يمكن سماعه ، وفى هذه الظروف يقف الروح المتكلم خلف الوسيط الذى تبتعد روحه مؤقتا عن جسمه .

وقد أصر محدثى على أنه ليس ثمة ما يمكن أن تتأثر به الأحاديث عن طريق عقل الوسيط فعقله بعيد كل البعد عن الموضوع ، إنهم لا يستخدمون عقل الوسيط ، ولكنهم يستخدمون أعضاءه الصوتية مباشرة ، وتكون السيطرة كلها لعقل الروح المتحدث ، أما مخ الوسيط فيكون قد أغلق إذ ذاك مؤقتا ، ولهذا يكون الصوت الذى نسمعه أحيانا خلال البوق هو صوت الوسيط . وإن يكن لا يشبه صوته الأصلى كما يحدث دائما فى الغيبوبة ، وهذا النوع من التواصل يماثل فى الرتبة تفوهات الغيبوبة ، ولا يختلف عنها إلا فى أن الأصوات تنتقل إلى البوق وتسمع كأنها صادرة منه لا من فم الوسيط ، وليس من الضرورى أن يكون البوق قريبا من فم الوسيط لأنهم يستطيعون كما أخبرونى أن ينقلوا الصوت خلال البوق إلى الدائرة مباشرة ، وعلى ذلك توجد فى جلسات سلون ثلاثة أنواع للتواصل : أولاها تفوهات الغيبوبة ، وثانيتها : تفوهات الغيبوبة مضافا إليها البوق . وثالثتها : وهى خيرها أصوات صادرة من الأرواح الذين جسدوا أعضاءهم الصوتية ورئاتهم فيتكلمون كما نتكلم نحن دون اتصال ما بالوسيط مع استثناء مادة الاكتوبلازم بالتجسد ، وهى المادة التى يستعيرونها من الوسيط والجالسين .

مكلفة من العالم غير المنظور تهزأ بعقول هؤلاء ، لأن شرار الجن والشياطين طال عليها العهد الذى كبتت فيــه بعد أن ظهر نور الإسلام ، وبعد أن استنارت أوربا بنور العلم والعرفان وأصبحت لا تعبأ بالخرافات ولا بالسحر ، وبما أن الجن يخالطون الإنس ويتعلمون منهم علومهم فإنهم وجدوا ألا سبيل للاستمتاع بالإنس والاستهزاء بهم وتستخيرهم إلا بهذا التمويه من طريق حالة العصر وأفكاره وعلومه . ويزعمون أن الأرواح بلغتهم فى تعليل هذا التمويه أن كيماويا[١] من أرواح الموتى يحضر لتجهيز الجلسة بالكيماويات الروحية فيعمل قناعا وأنبوبة لسير الاكتو بلازم وهذا موضوع يوجب الإغراق فى الضحك لأن القول به سفاهة . فإذا كان هذا فى مقدرة الكيماوى الروحى فما هى حاجته للبوق ؟ . يا للسخرية بالعقول ! هل أرواح الموتى طليقة إلى هذا الحد؟ وهل ترك الله سبحانه وتعالى عالم الغيب يعبث بعالم الشهادة المكلف دون قانون يفرق بين الحق والباطل ؟ وهل أرواح الموتى مشغولة بهذه

---

(١) إن الكيماوى الذى سبق أن أشرت إليه بعــد أن يخلط المواد التى يستخلصها من الوسيط والجالسين بمواد من عنده يأخذ المخلوط الأخير ويجسد به أولا يديه ثم يصنع لنفسه قناعا يشبه بالتقريب الفم والحلقوم والرئتين ، فإذا ماتم هذا يوضع فى مكان مناسب من الحجرة وفى الغالب يوضع فى مركز الدائرة ، فالروح الذى يريد الكلام يلبس هذا القناع البطىء الاهتزاز ويغطى به الفم والحلقوم والرئتين ، فتتخذ هذه الأعضاء حالة أكثف أو أثقل ، ولهذا يستلزم اللسان مجهودا أكبر لكى يتحرك ، ولكن مع التمرين اليسير يصبح كل شىء ممكنا ، وعندئذ يكون الروح قد أحاط نفسه مؤقتا بالشروط الضرورية لجعل نفسه من جديد كأنفسنا من حيث القدرة على إخراج الكلام .

ويتحرك البوق بقضبان مجسدة مصنوعة من مادة هى نتيجة اتحاد المواد التى يقدمها الوسيط والجالسون والكيماويون والروحيون ، ويمكن أن تحركه أيضا يد مجسدة ، ويوضع الفم المتجسد فى داخل الطرف الواسع للبوق ، ثم يوجه الصوت إلى الجهة التى يريد المتكلم أن يتجه بكلامه إليها دون الحاجة إلى نقله من المكان الذى تجسد الفم فيه ، ولا يمكن استخدام كلا طرفى البوق ، وهم يختارون الطرف الأنسب لغرضهم وحينما لا يستخدم البوق ، فمعنى ذلك أن المادة كافية وأن القوة المستجدة تكفى لتجسيد واحد أو أكثر يحدث عادة بالقرب من الشخص الذى يريد الروح أن يخاطبه ، لهذا كنت أسمع فى مثل هذه الحالة صوتين وأحيانا ثلاثة أصوات تخاطب فى وقت واحد أناسا مختلفين .

الترهات ؟ وهل هم لم يخرجوا من حالة التكليف ؟ فلهم أعمال مكلفون بها فى هذه الحياة الدنيا بعد خروجهم منها ونتأثر بها فى الخير والشر ؟ ياويل أهل الأرض إذا هبطت عليهم جميع أجيال الأمم الغابرة وأبيح لهم التسلط على المادة يسخرونها لأغراضهم من جديد وزاحمونا فى هذا العالم الأرضى ، كأنه لم يكف تسخير العلم فى عذاب البشرية وتسلط الأمم على بعضها حتى صارت الأرض شعلة من نار وقلت فيها الهناءة وودعها السلام .

وهل لمؤمن بالله ورسله وله أعين يبصر بها وآذان يسمع بها وقلب يستلهم الحق والصواب من الله الذى لا يغيب عن قلوب المتقين أن يصدق هـذه الأراجيف ؟ ووالله ما يوحى بعض هؤلاء إلى هؤلاء إلا زخرف القول غرورا .

ومن عجيب أمر هذا البوق الا كتو بلازمى الذى يساعد فى توصيل الا كتو بلازم أنه يترك الا كتو بلازم يتجمع فى ناحية ثم يسير فى الغرفة فى حركة بهلوانية بصخب وجلجلة وتتكلم منه عدة أصوات ويلطم ركب الحاضرين[1] . فلا أدرى ماهذا البوق العفاريتى ؟ ولا أدرى هذه الأصوات الشيطانية المتزاحمة على هذا البوق ؟ ولا أدرى كيف يصل العقل الراقى إلى هذا المستوى من الفهم حتى تجوز عليـه هذه التلبيسات فى ظلام غرفة التحضير وفى ظلام الاعتقاد الواهى .

أدب الجلسات : لقد أخبرنا مستر ج أرثر فاندلاى ، أن هناك أرواحا تؤدب الجالسين وتستعمل هـذا البوق فى تأديبهم باللطم والتكلم فى الظلام فيقولون لهذا لا تضع ساقيك متصالبتين ولا يرون خطأ أيا كان نوعه إلا نبهوا عنه[2] . وعلى الجملة فمنهم رؤساء

---

(١) سمع البوق خلال الجلسة وهو يجوب فى الحجرة وتكلم منه عدة أصوات وفجأة لطم البوق ركبة أخى اليمنى ثم خاطبه من أمامه مباشرة قال : أريك سوندرز ص — ٧٨ .

(٢) وهو الذى قد يؤنب واحدا منا لجلوسه واضعا ساقا فوق ساق ، وهذا أول ما يلفت إليه نظر الشخص الذى يحضر الجلسة لأول مرة ، وقد يظن حديث العهد بالجلسات أننا ما دمنا جالسين فى الظلام فلا يمكن أن يرانا أحد ، فيقصر فى العمل بهذه النصيحة ناسيا أن الظلام ليس ظلاما بالنسبة لهم ، لأنهم يروننا فيه بكل وضوح ، ويرون كل ما نعمل ، فينبهه إلى ذلك بلطمة خفيفة من البوق على الرأس طالبا إليه فى أدب ألا يضع ساقيه متصالبتين وما عرفت فى الواقع خطأ أهملوه .

يحضرون لحفظ نظام جلسات التحضير وإدارتها ؛ وإذا راجع القارئ جلسة تحضير الجن الذى وصفها الأستاذ محمود رمزى نظيم وأثبتناها فى هذا الكتاب فى باب عالم الجن لوجد تشابها تاما .

ومن الغريب أنهم يظنون أن الملق والمداهنة واللعب تجوز على أرواح الموتى فهم يسلسون قيادهم ببعض الملق ، ومن العجائب التى يحدثنا بها المستر ج أرثر فندلاى أن الأرواح تتجادل فى غرفة التحضير ، ويخطئ بعضهم بعضا[1] والبعض منهم يقبل أن يسميه المستر قردا[2] وهكذا من هذه الترهات التى لايتسع لها هذا الكتاب .

---

(١) حينما يريد روح أن يتكلم معكم يتخذ لنفسه حالات أرضية مما يحيط بكم ، ونحن دائما نعرف متى تنعقد جلساتكم ، وهنا قال : هوايتفذر : « أنا الذى أعرف ذلك فأعلنه له هو وغيره وأنا الذى أعرف متى تنعقد الجلسة ، وأنا الذى أفطن لهذه الأشياء وأكتبها ، وأنا الذى أخبر كل واحد » وبعد هذه المقاطعة استمر جلاتشر فى حديثه قائلا : « إننا نعلم دائما كما قلت متى تعقدون الجلسة وأنا المسئول عن استعمال البوق ، وقد وقفت بجوارك أنتظر أن أكلمك ، ويسرنى أن تتاح لى فرصة إخبارك ما أستطيعه » ص ١١١ .

(٢) استوينا على مقاعدنا وسلون فى مواجهتى ، ومس ملر عن يمينى ومعها كراستها وقلمها وبعد مضى عشر دقائق أخذ سلون يتلوى ويتقلص ، إذ غشيته بسرعة حالة الغيبوبة ، وتكلم هوايتى الروح المعروف المتسلط عليه ، فتحدثنا معا بضع دقائق ، ثم سألته عما إذا كانت الظروف مواتية ؟ فأجاب : « نعم إنها جد مواتية فللسيدة قدرة روحية عظيمة تساعدنا فى هذا الصدد ، وقد حضر الليلة كثيرون ، ومنهم الرجل القرد فهو موجود هنا أيضا » (يريد الروح الذى قدم نفسه إلينا بأنه الأستاذ هكسلى ، وقد أكسبته أحاديثى معه بالصوت المباشر عن التطور ، ذلك اللقب الذى أغدقه عليه ذلك الشخص المدهش صاحب النكات على الرغم من جهالته) ص – ١٠٦ .

ولقد تعلمنا ألا نأبه كثيرا لهذه الشخصية الجذابة ، وأن نحاول دائما أن نكون متفائلين ، فنؤكد له أن الأمور لابد مستقيمة فى النهاية ، وليس لتشاؤمه فى الجملة ما يبرره ، ولكنه لا ينتفع من التجارب ، ولذا كان لابد لنا إزاءه أن نرجوه أن تكون هذه الحال مؤقتة ، وأنه حين يعود ثانية إلى مأواه عند نهاية الجلسة ستصطبغ نظرته إلى الحياة هناك بلون أقل قتمة ، ومع هذا فإن تشاؤمه كان يسرى عنا كما يسرى عنا فى دنيانا زملاؤنا الأحياء المتشائمون الذين ينظرون إلى الأمور دائما من الناحية المظلمة القاتمة ، ونحاول أن نسرى عنه وندخل السرور

الخلاصة التى استقرأناها ولابد لكل قارئ يزن الأمور بميزان العقل بعد مناقشة أقوالهم وقراءة كتبهم أن يستخلصها هى ما يأتى :

١ — أن تحضيرهم لأرواح الموتى كما يزعمون لايستند إلى أساس علمى وأنه من أخبار قوم مجهولين من عالم لانبصره فى حالة إدراك كاف ووعى تام كما أنهم لم يتثبتوا من ذوات المتكلمين إلا عن طريق سماع الأصوات وظهور الخيالات[1].

٢ — أن الألاعيب البهلوانية التى ذكروا حدوثها فى الجلسات من تحرك البوق وأنه يجوب غرفة التحضير بسرعة هنا وهناك ، وأنه يخبط بطرفه رؤوس الحاضرين وأرجلهم وتتزاحم عليه الأرواح فتسمع منه الأصوات المتعددة فى وقت واحد فى صخب وجلجلة ومجادلة أرواح الموتى بعضها لبعض دلالة لاتقبل الشك ، على أن هذه الأعمال ليست من أرواح المتوفين من الإنس حتى ولا من الجن الذين انتقلوا إلى العالم الآخر إلا أن يكون العالم الآخر خرج من أمر الله سبحانه وتعالى وحصل لأهله خلل عقلى أدى إلى نزوعه ثانية ليعمل فى شقاء عالمنا بصورة مضحكة مزرية .

عليه ، فنسأله عما كان من أمره منذ قابلناه آخر مرة ، فيتصل الحديث ويأخذ شكلا جديدا ، مجيبا عن أسئلتنا بلغته الإنجليزية الغريبة ، ويستمر الحديث مدة عشر دقائق أو ربع ساعة ، نعلم خلالها من هـــذا الصديق المتشائم أن القوم فى عالمه ماضون فى إعداد وسائل التخاطب بالصوت المباشر فننتظر النتيجة صابرين وفى العادة لا يطول بنا الانتظار ص — ٦٤ ، ٦٥ .

(١) ويستحيل فى كتاب كهذا أن أصور للقارئ لهجات المتكلمين وشخصياتهم المتباينة ، ونحن نتبين هوايتفذ على الفور من صوته ومن شخصيته ومن كلامه ، وما أن نسمعه يتكلم إلا ونريد الضحك ، فهو كالمضحك فى ملعب ، تراه أحيانا عابسا ، وأحيانا تجده يتكلم بالمجاز والكناية ، مرعدا مبرقا أولا ، هادئا منشرحا أخيرا ، وبعض الملق يسلس قياده ويصير مرحا وبطريقته الغريبة تلك يثير ضحكنا فى آخر الأمر عدة دقائق وهو يهاجم الأرواح المتكلمة ويعيبها ، وقد يبدى بعض الملاحظات عن أحد الجالسين — فهو فى كل ذلك شخصية مسلية مشوقة ، ولكنه مع ذلك ليس راقى التهذيب ، كذلك تسهل معرفة غيره من المتكلمين المواظبين ، فلكل منهم مميزاته وشخصيته التى لايمكن أن يحجبها ظلام حجرة التحضير ص — ١١٩ .

٣ — يزعمون أن الا كتو بلازم من أهم المواد التى تحتاجها الأرواح للتجسد فى هذا العالم والتكلم بواسطته وأنهم يستعينون بالوسيط الصالح لما فيه من غزارة هذه المادة ثم يقولون إن هذه المادة تنتقل إلى البوق ، ولكن البوق يتحرك فأين تكون هذه المادة ؟ أهى متركزة أو متحركة ؟ وهل تتسرب من البوق ؟ وكيف تتصل بالوسيط ؟ فلما عرض لأنفسهم هذا السؤال وخافوا الاعتراض قالوا إن هناك كيماويا من العالم الآخر يحضر لتجهيز الحجرة بالكيماويات الروحية و بواسطة أنبوبة روحية يحصل على الا كتبولازم و يمكن المتكلمين من أرواح الموتى من التكلم إما بالبوق أو بالصوت المباشر حسب الأحوال ، أيها العالم العاقل هل يصح بهذا دليل؟ على أن الحياة الروحية تفسر تفسيرا علميا ؟ وهل وصل إلى علمهم هذا الذى يدّعونه من طريق تجريبى أو من كلام هؤلاء الأرواح ، فإن كان من طريق التجربة العلمية صدقناهم و إلا فهم إلى الشعوذة أقرب من العلم ، وأما حجتهم فى أن وزن الحاضرين ينقص بعد الجلسة مما فقد منهم من الا كتو بلازم فهى حجة واهية ، لأن مقدار النقص طفيف إذا صدقناهم وقد يكون من استنفاد المجهود أو من حضور الأرواح التى يزعمون حضورها من الشياطين فتلعب بهم عند الوزن من حيث لايشعرون .

٤ — يزعمون أن الأرواح تنبئهم بكثير من الأخبار الصادقة ويحا كون أصوات بعض أقاربهم المتوفين وهذا لايصلح دليلا ، فإن العرافين والكهنة والسحرة ينبئون بكثير من الأخبار الصحيحة من بدء الخليقة للآن ، وقبل أن يكون تحضير الجن بصورة أفرنجية ، وأيام أن كان تحضيرا بلديا كان أصحاب هذا الاحتراف ينبئون بالأخبار الغريبة من الأمكنة البعيدة و يعملون بعض الأعمال الخارقة لإيهام الناس، وكان المندل يقوم به رجل من محضرى الجان إلا أنه أصدق وأصرح لأنه لايدعى تحضير أرواح الموتى السابقين ، وكان يستحضر طفلا ثم يطلق البخور ويتلو العزائم حتى يحضر وليه من الجن فتستولى على الطفل حالة خاصة ثم يعطيه فنجانة قهوة ثم يقول له انظر فيها فيحصل للطفل خداع بصرى ثم تمثل له الأحوال المسئول عنها فيراها بالتخيل و ينبئ فى أغلب الأوقات بما حصل .

وأما محاكاة الأصوات والصورة فللشياطين قوة على التمثل، وثبت عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم أنه قال: « مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي » أخرجه البخارى . ومن هذا نعلم أنه قد يتمثل بغيره و يأتى فيحا كى صورته وكلامه وأحواله ، كما أن لكل إنسان قرينا يعلم أحواله أيام كان على الدنيا ، فلو تمثل بصورته وحا كى أحواله ونقل أخباره لكان ذلك جائزا ، ومن المعلوم أن الجن تخالطنا وترى أحوالنا وتسمع كلامنا وتتعلم من علومنا و بلاغهم عن يد رسلنا وتعلم كثيرا من أخبار الناس ، فلو حضروا هذه المجالس وأخبروا بعض حاضرى الجلسة بما وقع منهم أو ما حصل لبعض أقاربهم لكان ذلك جائزا ولا يقوم به دليل على أن الذين حضروهم كانوا من أرواح الموتى السابقين .

ولقد أملانى حضرة صاحب السماحة والفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الصاوى شيخ مشايخ الطرق الصوفية بالديار المصرية والذى كان يلازم حضور دروس الإمام الجليل الشيخ محمد عبده قدس الله ثراه ما أنقله هنا بنصه وحرفه قراءة عليه . قال حفظه الله وأبقاه :

(سئل الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وهو فى درس التفسير لمجرد مناسبة عن تحضير الأرواح وما هو حاصل فى ذلك الوقت من الروايات المنقولة عن علماء تحضير الأرواح فى الغرب وقد كثر الكلام عنها فى الجرائد السيارة . فقال إنى حضرت فى أوربا مؤتمرا يجمع أكابر هـذا الفن فحضرت أرواح كثيرين و بعضهم ممن أعرفه قبل وفاته ، ورأيت ذلك مطابقا لما علمته عن هؤلاء الناس ، فسألتهم وكلهم اتجهوا إلىّ ليسمعوا سؤالى فقلت لهم : إن رأيى فى هذا أنه عمل من أعمال الجن وناقشتهم مناقشة جدية فى هذا الموضوع إلى أن تحديتهم بإحضار روح المصطفى عليه الصلاة والسلام لأسأله عن الأحاديث الصحيحة الواردة عنه ولأتبين بلاغته وفصاحته فى منطقه إذا تكلم فى ذلك الوقت ، وكثير من المستشرقين الحاضرين يمكنهم الحكم على ذلك ، وليقينى بأن النبى صلى الله عليه وسلم محفوظ من أن يتمثل الشيطان بصورته ويؤدى ما يؤديه علمت أنى سأفوز عليهم فلم يلبثوا أن عجزوا جميعا معتذرين بأن هذه روح عالية لا يمكن إحضارها ، ومن ذلك يتبين جليا أن هذا عمل من أعمال الجنّ) .

٥ — تكلم بعض هـذه الأرواح أنهم فى العالم الآخر منعمون ، وأن أفكار هذا العالم

تخالف أفكارهم فتوهمنا أن هناك عذابا أمر لاحقيقة له إلا فى أذهان الأحياء لأن كل روح استوفت عذابها فى الدنيا ، وتخبر بعض الأرواح أنها تحضر العشاء الربانى فى الكنائس وبعضها يحضر فى الهيكل ويشارك فى القرابين وغيرها فى المساجد ، وبعضها يدعى معرفة المستقبل والإنباء بالأخبار العجيبة ، فإذا كان ذلك حقا فهو تناقض عجيب ، وكيف تكون للأرواح هذه الحرية فى كشف المغيبات؟ وأين عذاب القبر وأين الجزاء؟ إن الأديان السماوية جميعا لاتقر ذلك لأنها ولو اختلفت فى الإلهيات فإنها لم تختلف فى عذاب القبر واستحقاق الجزاء على العقيدة والأعمال إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، ولأن كل دين يعتبر أن عقيدته أصح العقائد وما سواها باطل وضلال ، فإذا جاءت روح من أرواح الموتى واعترفت أنها تصلى فى المساجد لابد لليهودى والمسيحى أن ينكرا ذلك ، لأن دين كل منهما فى نظر معتنقه أصح الأديان والأرواح عند انطلاقها من هذا العالم إلى العالم الآخر ترى الحقيقة من سؤال الملكين وعذاب القبر ورؤية العالم الآخر فكيف لاتزال على دينها الخاطئ ، وكذلك إذا جاءت روح واعترفت أنها كانت فى الكنيسة تحضر العشاء الربانى كان على المسلم واليهودى أن يكذبا ذلك وهكذا ، فمن وجهة النظر الدينى الصرف لايصح تصديق أقوال هؤلاء وإلا كانت جميع وجهات الاعتقادات الدينية فاسدة وعلى ضلال مبين ، وكان الاعتقاد بأى دين مع اعتقاد حرية الأرواح فى التدين تناقضا لايقبله العقل ولا يستوى معه موجب للاختلاف فى التدين ، كما أن هذا يوحى أن كل دين ظهر فى الأرض مقبول هناك مهما كان هذا الدين فاسد العقيدة والمنطق ، وإذا خرجت علينا أرواح الموتى من عالم الغيب العلوى ، وكشفوا عن حقائق العالم الآخر وكانوا أحراراً فى ذلك أو أخضعهم قانون العلم الطبيعى لهذا الأمر كان التكليف بالإيمان بالغيب على وشك الزوال لأن الإيمان سيتقدم إلى أن يكون وشيك المعاينة فلا سبيل للاختلاف ، وعلى العلماء والقساوسة والرهبان وأرباب الدين أن يودعوا عقائدهم وأعمالهم .

ومن وجهة نظر الدين الإسلامى فلا يسلم بحضور هذه الأرواح على أنها أرواح موتى سابقين لأن فريقا من العالم المسيحى والعالم اليهودى يقوم الآن بتجربة تحضير الأرواح

وما جاء بزعمهم على لسان هذه الأرواح يتنافى مع ما جاء به الإسلام ، وجاء فى كتاب المسترج أرثر فندلاى أن هذه الأرواح تحضر وتضحك وتنكت وتقبل السخرية والملق وتكذب وترأس الجلسات وتؤدب الحاضرين وتعمل أعمالا كيماوية ، و بعضها ينبئ أنه كان يحضر العشاء الربانى فى الكنيسة ساعة أن كان بعض حاضرى الجلسة فى الكنيسة فى الأيام السابقة للجلسة ، وعقيدة الإسلام التى لا مرية فيها أن الروح إذا خرجت من جسدها تذهب إلى مستقرها من عالم الروح فى عالم الأمر تحت سلطان الله القوى لا تروح ولا تغدو إلا باذنه ولا تستحضر بطريقة خاصة من طرق التحضير ولا تغشو هذه المجالس تحت تأثير الموسيقى والرقص والتراتيل الدنية أيا كانت فضلا عن التراتيل المخالفة لعقيدة الإسلام ، ولا تخضع الأرواح لسيطرة محضر مهما كان قدره فضلا عما يقوم به كثير من رعاع الناس من الأعمال المنافية للدين والآداب فى هذه الجلسات، ولا يمكن أن تقف الروح أمام هؤلاء لتقدم الأجوبة إشباعا لأهوائهم مهما سقط مقام السائل أدبا ودينا ، و إلا لو تمكن هؤلاء من إزعاج الأرواح فى عالمهم بهذا الهراء وقُرع مستقرهم فى كل وقت من طوارق السوء بدق الطبول وعزف المزمار والنقر على الموائد وتحريك الفنجانة وترتيل الأناشيد ، لكان عالم الدنيا أفضل من عالم الحقيقة لأنه فى الدنيا لا يستطيع أحد من طغام الناس التحدث إلى ذوى الأقدار فى سخافات العقول أو طرق بيوتهم لسؤالهم فى ليل أو نهار ، إن الله الحي الكريم لا يرضى لعباده الأبرار هذا اللعب وهذا الحقار والبوار فى دار كرامته ، كما أن الدين الإسلامى يقرر فى عقائده بلا خلاف ولا شبهة أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

ويقرر أن من مات على عقيدة التثليث فهو مشرك خالد فى النار ، ويقرر عذاب القبر من يوم الموت إلى قيام الساعة للكافرين و إلى الميقات الذى قدره الله لعصاة المسلمين بقول الله سبحانه وتعالى : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ . وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ . فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ .

فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ . وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ . إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ . فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ »(١) وهذا من ساعة خروج الروح .

ويقول فى حق فرعون وقومه : « وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ »(٢) أخرج البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فإذا كانت أرواح الكافرين تعذب فى قبورها أو فى مستقرها البرزخى كيف تحضر بهذه الحرية ، ثم تحضر الكنيسة للعشاء الربانى بعد أن اطلعت على الدين الحق وهل هى فى عذاب أم تمرح فى الأرض ؟ وهل لم ينته تكليفها حتى تعاود الظهور فى هـذا العالم وتخرج أرواح الشريرين هؤلاء الذين عاشوا فى جميع الأجيال الماضية من مستقرها لتزيد العالم فسادا على فساد ؟ . إن معتقد ذلك يخالف عقيدة الإسلام ، ولو أن الله سبحانه وتعالى يخضع الأرواح لقانون العلم الطبيعى وأهواء الناس ونزلت الأرواح لتتكلم مع أهل الأرض لظهر الغيب وعلم الناس كل المغيبات فانتهى التكليف وأصبحت الشرائع لغوا لأن العالم يحتاج حينئذ لقوانين جديدة أو ينتهى العالم الأرضى ليحل محله عالم البرزخ وتنتهى أيام الناس .

الشعوذة والطب الروحى : ومن الطرق التى شاعت فى مصر أن يقوم بعض الشبان بتحضير الأرواح فيرسمون دائرة مكتوب فيها حروف الجمل ثم يضعون فنجانة مقلوبة على الدائرة ثم يقوم أحدهم بوضع يده على الفنجانة ثم يدعى أنها تتحرك للاجابة عن الأسئلة بسيرها على الأحرف فتتكون فيها كلمات الإجابة ويتزاحم الحاضرون على ذلك من شباب وبنات لإلقاء الأسئلة على الأرواح التى طلبوها ، وهذه طريقة خطرة على الأخلاق وقد يحضرها الجن فتمس عقول أو أجساد هؤلاء وتلك من طرق الشعوذة الخطرة .

---

(١) آية ٨٣ ـ ٩٦ الواقعة . (٢) آية ٤٥ ، ٤٦ غافر .

الطب الروحى : وأما الطب الروحى والعلاج بواسطة الأرواح فهو هو بعينه الطب القديم بواسطة الجن والرئى فترقى فصار أفرنجيا بعد أن كان بلديا و إن ادعاء أن هذه الأرواح من أرواح الأطباء البشريين الذين رحلوا إلى العالم الآخر فدعوى لايقوم عليها دليل كما قدمنا وهى من أعمال السحر المنهى عنها و إن أضرارها كثيرة وخطرة فإن بعض الناس يعتقدون بهذا العلاج ولا يذهبون للتداوى فتكبر العلة . و بعض طرقهم فى العلاج خطرة جدا وهى تحديد موعد لانتظار الأرواح و إطفاء النور من الدور و إظلامها فى تلك الساعة وهذا يعرض الأطفال و بعض الناس من ضعيفى الإرادة لمس الجن فضلا عن أن من تداوى بهذا التداوى مشرك لأنه أشرك الجن فى القدرة على الشفاء ، ولا تطيب له علة لأن الشيطان ينخس المريض من وقت لآخر حتى يقع تحت نير وسلطة الجن ، مرة يتركونه فيهدأ ألم المرض ومرة ينخسونه بالريح العقيم حتى يعتقد فى شأنهم و يتطبب على معتقدهم فلا تزول علته ويخشى أن يموت على الشرك أو ضعف الإيمان و يتخبطه الشيطان عند النزع ، وقد سبق أن بينا ذلك فى أحكام السحر والنفث والرقى خاصة ؛ وأنه سيظهر قبل ظهور المسيخ الدجال وقبل قيام الساعة كثير من أمثال هؤلاء تسبقهم إرهاصات الشياطين ودعايات المضلين من أمثال آفاك وغيره من الذين لايبين عدم قدرتهم على ما يدعونه إلا بعد الإسراف فى الاعتقاد فيهم ، فليحذر الذين يخالفون عن أمر الدين .

وأخيرا أقول للأستاذ الفاضل حسين خالد حمدى : إن من تمويهات شرار الجن الذين يحبون الاستمتاع والاستلاذة بالإنس واستهوائهم أن يتكلموا فى أمور الدين والأخلاق بما يناسب عقول الناس ليلبسوا الحق بالباطل يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا حتى تجوز تمويهاتهم و يحلو خداعهم وأنصحه بالبعد عن التحضير لئلا يكون مخدوعا أو يناله مكروه فى عقيدته وفى ذات نفسه ولا إخاله وأنا أعرف فيه صدق دينه وحسن نيته إلا منتهيا كفانى الله و إياه فتنة الدنيا والآخرة وليعلم أنه تكثر الفتن وتعود الجن إلى الاستمتاع بالإنس لغوايتهم و يكثر ذلك قبل قيام الساعة وقد جاء أشراطها .

أسئلة وأجو بتها :

س : هل للمسلم أن يحضر هذه المجالس .

ج : لايجوز لمسلم مؤمن موحد أن يحضر هذه المجالس ، لأنه إن كان يحضرها

لاستقراء الغيب ، فقد نهى عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن هؤلاء فى حكم العرافين والكهنة والمنجمين . عن صفية بنت أبى عبيد عن بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا » أخرجه مسلم ، وإن كان يحضرها ليؤمن بالعالم غير المنظور فقد يجره هذا إلى فتنة أو مصيبة فلا يجوز أيضا ، لأن المؤمن الصادق متوكل على ربه ، حسن الظن به « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى إِنْ خَيْرًا فَخَيْرًا وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا » راض بقضاء الله وقدره معتقد بكتابه ، وبما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم لايحتاج فى الإيمان بالعالم الآخر إلى دليل بعد الكتاب والسنة ولا يخالط قلبه ريبة فلا يلتفت إلى غير ذلك ، ولأن الذهاب إلى السحرة والمنجمين والعرافين ومن فى حكمهم محرم شرعا ، فضلا عن أن أرواح الموتى لا تحضر بالتحضير ، ومنع مجتمعات تحضيرها واجب شرعا لسد الذرائع ودرء المفاسد من هذا الذى يحصل فى هذه المجتمعات المظلمة وحتى لايقع المسلم تحت حكم الاستلاذة والاستمتاع بالجن ، وقد سبق بيانه فى باب عالم الجن .

س : هل يجوز أن تحضر روح متوفى ؟

ج : يجوز أن تحضر روح متوفى فى المنام بإذن من الله سبحانه وتعالى أو فى اليقظة كذلك بإذن من الله سبحانه وتعالى لا بطلب أحد من الناس ، ورؤياه فى اليقظة لاتحصل إلا لبعض أفراد الناس من الأولياء والصالحين عند انسلاخهم من حالة البشرية ، ولو كانوا فى إحساسهم يظنون أنهم فى حالة عادية وهذا نادر جدا ، كما أنه لايحصل بوسيط ولا بتحضير ولكن بمحض فضل الله لأهل سره ، وبما أنه حال خاص فإنه لو صدق لايصح به حكم عام . ولما أراد الله جلت حكمته أن يظهر آية فى التخاطب مع الموتى أظهرها لسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام فأحيا له الموتى ولم يُنزِلْ له أرواحا تكلمه أمام الناس .

وإلى هنا أعتقد أنه قد قطعت جهيزة كل خطيب فإن كانوا يحضرون الجن فقد سبقت إلى ذلك عصور الظلام ، ونهى عن هذا التحضير الشرع الشريف لأن لكل عالم تكاليفه واختصاصه وسننه ، ونهى عن تمتع الجن بالإنس والإنس بالجن ؛ وأما إن زعموا أن مايحضرون

أرواح الموتى من الإنس فهذا إفك مبين ، ومن اعتقد به ومارسه قد يؤدى به إلى الشرك ، نعوذ بالله منه وقلما ينجو من ذلك مهما خدع نفسه . قال الله سبحانه وتعالى: «قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ . إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ . وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ »(١) وقال الله سبحانه وتعالى : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ »(٢) .

الساعة الرهيبة

هى الساعة التى يجب على كل إنسان عاقل رشيد أن يفكر فيها قبل وقوعها ويستعد لها قبل نزولها ، ويعمل العمر كله ليفوز فيها ، وليكون مكرما ملطوفا به فى غمراتها وشدتها ، ويتزود لها وما بعدها قبل أن يباغته الموت ساعتها فلا يجد زادا ينفعه عند الرحيل من حياة الغرور ، ولكن معظم الناس لايعبأون بها ولا يفكرون فيها كأنهم ليسوا مدينين بها ، أوهم فى شك منها ، كما قال سيدنا الحسن عليه السلام « ما وجدت يقينا أشبه بالشك من الموت » وما خاف من عاقبتها أحد إلا وسعد بعدها(٣) ، وما لها عنها أحد إلا تحسر وندم وخسر(٤) ، ومن عجب ترى الرجل إذا رحل من بلد إلى بلد نقل زاده وعتاده وماله وفكر

---

(١) آية ١٠٨ — ١١٢ الأنبياء . (٢) آية ١٨ الأنبياء .

(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ، إلا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » أخرجه الترمذى .

(٤) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنى أرى مالا ترون وأسمع مالا تسمعون ، أطت السماء ، وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته لله تعالى ساجدا ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى ، لوددت أنى شجرة تعضد » أخرجه الترمذى .

كثيرا فى كيف تكون راحته بها ؛ وتراه إذا أراد النزول فى مدينة لبضع ليال يسأل كيف يبيت بها ويختار أحسن نزلها وهو مع ذلك لايفكر فى دار القرار وأى المنازل منها ينزل فيها ؟ وترى الرجل إذا فعل ذنباً يحب أن ينجو من عقوبته ويحب ستره ويخشى الفضيحة والعار بين جيرانه وأهل بلده ، ولا يخشى الفضيحة والعار يوم الدين ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم يجمع الله أجيال الخلق أجمعين ؛ وترى الرجل إذا أقيمت عليه دعوى أمام قضاء قضاته من الناس جمع مستنداته وحججه واختار أحسن المترافعين لينتصر وينجو من العقوبة والغرم ، ولكنه لايستعد للقضية الكبرى ، قضية الحياة ، قضية الحكم فيها إما بالسعادة الدائمة أو الشقاء المؤبد ، قضية لا تجوز فيها الحيلة وغش القضاء ، ولا تتبدل فيها الإدانة ولا تنفع فيها شفاعة الشافعين إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ، قضية لا استئناف لها يحكم فيها أحكم الحاكمين يحكم لامعقب لحكمه ، ولكن يا للعجب بينما يخاف الإنسان دنوها ويتزحزح عنها ، وبينما يرى نذيرها فيمن يسبق أجلهم أجله ويودعون الحياة إلى غير عودة إليها فإنه لا يتزحزح عن حب الدنيا مغرورا بالبقاء فيها متكالبا عليها كأنه لاموت فيها وينسى ساعته المحتومة [1] ويا لها من ساعة وأى ساعة هى ؟ هى الساعة

---

(١) عن شداد بن أوس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » أخرجه الترمذى رضى الله عنه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بادروا بالأعمال سبعا : هل تنتظرون إلا فقرا منسيا ، أو غنى مطغيا ، أو مرضا مفسدا ، أو هرما مفندا ، أو موتا مجهزا ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر؟ » أخرجه الترمذى والنسائى رضى الله عنهما .

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فصلى على أهل أحد صلاته على الميت ، ثم انصرف إلى المنبر فقال : إنى فرط لكم ، وأنا شهيد عليكم ، وإنى والله أنظر إلى حوضى الآن ، وإنى أعطيت مفاتيح خزائن الأرض ، وإنى والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها » أخرجه البخارى ومسلم رضى الله عنهما .

الحاسمة ؛ هى أخطر ساعة وأدق ساعة فى حياة الإنسان ؛ هى أمرّ ساعة تمرّ بكل ذى جسد وروح ؛ هى الساعة التى يتمنى كل إنسان أن لايشرب كأسها ولا يذوق مرارتها ، ولكن أنى له ذلك وقد حكم الله على جميع العباد فيها بالموت ؟ لم يصرفها عن أحب أحبابه لأنه انفرد بالحياة وحده ؛ قال سبحانه وتعالى : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ »[1] . هذا الموت الذى تقشعر منه إذا ذكر الأبدان ، وتذوب منه النفوس ، وتكاد تصم من سماع اسمه الآذان ، ويفر منه كل مخلوق ويتمنى أن يطول عمره كأنه بطول العمر لا يلاقيه وماله منه مهرب وما له إلى الفرار سبيل « قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ »[2] وقال الله سبحانه وتعالى « أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ »[3] .

يا لها من ساعة لايعلم الإنسان ميقاتها ولا مكانها ، خبئت فى لوح القدر ، واستترت فى ظل الأمل[4] ، ولا يدرى الإنسان فى غمراتها كيف يكون ؟ ولا فى أى مكان يدركه المنون؟ وأى أرض تضم رفاته ؟ ضمة الأم الغاضبة أوضمة الصدر الحنون؛ قال الله سبحانه وتعالى : « يٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَايَجْزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ . إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له ، فلا يمسى إلا فقيرا ، ولا يصبح إلا فقيرا ، وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالود والرحمة ، وكان الله بكل خير إليه أسرع » أخرجه الترمذى .

(١) آية ١٨٥ آل عمران (٢) آية ٨ الجمعة (٣) آية ٧٨ النساء

(٤) عن أنس رضى الله عنه قال : « خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا وقال : هذا الإنسان وخط إلى جانبه خطا وقال : هذا أجله ، وخط آخر بعيدا منه وقال : هذا الأمل فبينما هو كذلك إذ جاءه الأقرب » أخرجه البخارى والترمذى .

نفسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نفسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »[١] .

يا لها من ساعة يداهم فيها الموت نفوس من دنت ساعتهم لا يعبأ فيها بأهل الذلة والهوان أو أصحاب الجاه والسلطان ، ولا بسكان الأكواخ والدور ولا بسكان الأعالى والقصور ؛ لا يعبأ بالمرضى ولا بالأصحاء ، لا بالفقراء ولا بالأغنياء ، لا بالشيب ولا بالشباب يحيد منها الإنسان ولن يحيد « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنهُ تَحِيدُ »[٢]

يا لها من ساعة يرى حاضرها العمر وقد ولى كأضغاث أحلام ، وأن الحياة كانت غرورا وأوهاما ، يرى كأنه لم يتمتع فيها ساعة من زمان ، وأن الحياة وقد ولت لم يكن شىء فيها قد كان ؛ قال الله سبحانه وتعالى : « أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ »[٣] .

يا لها من ساعة تفصل بين الحق والباطل ، و بين الجسد والروح ، و بين الخليل وخليله ، و بين صاحب الجاه والسلطان وجاهه وسلطانه ، و بين صاحب الضياع والمال وضياعه وماله ، و بين المرء وزوجه ، و بين صاحب العشيرة وعشيرته وأهله ، وولده والناس أجمعين الكل مدين بها لا يردّها أحد عن عزيز لديه ، قال الله سبحانه وتعالى : « فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ . وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُبْصِرُونَ . فَلَوْلاَ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »[٤] .

وكأنى بمريض قرب أجله يطلبون له الطبيب ليداوى علته فيجد الطبيب فى استكشاف الدواء الناجع فلا يزداد المريض به إلا توجعا ولا تزداد حالته إلا سوءا ، وتزيد المضاعفات وأهله يقبلون الأرض بين يديه عسى أن يأتيه الشفاء وما هو ببالغه فيشتد على أهله الكرب كلما رأوا زيادة العلة وعجز الطبيب عن العلاج الشافى ، ويدخلون عليه وقد علت وجوههم الكآبة والحزن ، وازدادوا هما كلما توقعوا دنو المصاب وقرب الفجيعة فى أحب الأحباب ، وعزيزهم

---

(١) آية ٣٣ ، ٣٤ لقمان (٢) آية ١٩ ق (٣) آية ٢٠٥ ، ٢٠٧ الشعراء

(٤) آية ٨٢ — ٨٧ الواقعة

يستغيث بهم من شدة مايعانيه من الآلام، يتأوه تأوها شديدا ويئن أنينا يكاد يخرق جوف الأرض ويصيب كبد السماء، وقد ركب بحر المرض العاتي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض، مرة يعلو فوق أمواجه فيستغيث وتحلو له الحياة وأخرى يغطه فيغيب من شدة الأوجاع والآلام، ثم يفيق بين الفينة والفينة وينظر إلى أهله وولده وهم فى حزن بالغ يبكون فتزداد حسرته وتشتد لوعته ويكثر همه وكربه، ثم يفكر فى ماله وما هو تاركه، فمرة يوصى وأخرى إذا ما اشتد عليه الكرب نسى المال والولد وأهمته نفسه وما هو مقبل عليه فندم على ما فرّط فى جنب الله، فيالها من شدة تتنازعه فيها شتى العواطف فى ثورة وغزارة وتتجاذبه الآمال المفقودة من حياة أو شك على الرحيل منها وقد باعها عصارة عقله ونفسه وأودعها كل آماله وآمانيه فلفظته غير آسفة عليه، فيذكر ماضيه فى غصة وكمد نادما على ماضيع فيما لاينفع، وتزيد غصته ويشتد عليه كمده إذ يرى وشائج القربى والحنان تقتلع من قلوب أقربائه وأعزائه إذ يئس الحبيب من حبيبه ومل القريب مرض عزيزه وأصبح الكل يدعو بدنو ساعة الحمام فيقول يا ليتنى عرفت ربى الذى لايجفونى إذا جفانى الناس وجفتنى الأيام، يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا، ولا أدرى الآن مايفعل بى، وبينما هو فى هذه الشدة من آلام الجسد والنفس يأتيه الشيطان اللعين يريد أن يلعب به فى المعركة الحاسمة يستغل ألمه وما يعانيه ويقول له: انتهيت من غرورك وآثامك ويحزنه كل الحزن وييئسه من رحمة ربه ويقول له فكر فى الدين الحق لعلك كنت مغروراً بدينك كما كنت مغروراً بأيامك ليشككه وليلبس الحق بالباطل مستغلا آلام الموت وغمراته[1] فيشتد عليه

---

(١) عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « احضروا موتاكم ولقنوهم لا إله إلا الله وبشروهم بالجنة فإن الحليم من الرجال والنساء يتحير عند ذلك المصرع وإن الشيطان أقرب ما يكون من ابن آدم عند ذلك المصرع، والذى نفسى بيده لمعاينة ملك الموت أشد من ألف ضربة بالسيف والذى نفسى بيده لا تخرج نفس عبد من الدنيا حتى يتألم كل عرق فيه حيا له » أخرجه أبو نعيم فى الحلية ومعظم رجال الحديث بمعناه وهنا يثبت الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى ماضى أيامهم بالقول الثابت قال تعالى: « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » نسأل الله التثبت وحسن الخاتمة لأنه يخشى فى هذه الساعة على المستهترين .

الكرب وتحضر رسل الموت ، ويجلس على رأسه ملك الموت سيدنا عزرائيل عليه الصلاة والسلام فينتزع روحه من أخمص قدميه إلى نافوخ رأسه[١] ويشتد ألمه كلما جذبت الروح من عضو من الأعضاء ألما يعجز عن وصفه الواصفون . يروى أنه لما احتضر عمرو بن العاص رضى الله عنه قال له ابنه : يا أبتاه إنك كنت تقول : ليتنى ألقى رجلا عاقلا عند نزول الموت حتى يصف لى ما يجده وأنت ذلك الرجل فصف لى الموت ، قال: يا بنى الموت أجلّ من أن يوصف ولكن سأصف لك منه شيئا ، أجدنى كأن على عنقى جبال رضوى ، وأجدنى كأن فى جوفى شوك السلام ، وأجدنى كأن نفسى تخرج من ثقب إبرة ، وحقيقة كيف يكون الرجل وهو جائع فلا يجد لأنه استوفى رزقه وهو ظمآن يشتد به حريق الظمأ وقد عقل لسانه ، ثم ينظر فيجد أن الدم قد سحب من جوهرة العين واشتد الظلام وهو يعانى جميع الآلام ، ومن حوله شهود يتوجعون ولا يستطيعون تخليصه من أيدى الملائكة .

اللهم الطف بنا و بالمسلمين فى هذه الساعة الرهيبة يا لطيف .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا حُضِرَ الْمُؤْمِنُ أَتَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ فَيَقُولُونَ : أُخْرُجِى رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً عَنْكِ إِلَى رَوْحٍ مِنَ اللهِ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ ، فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُنَاوِلُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، حَتَّى يَأْتُوا بِهِ أَبْوَابَ السَّمَاءِ ، فَيَقُولُونَ : مَا أَطْيَبَ هَذِهِ الرِّيحَ الَّتِى جَاءَتْكُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ فَيَسْأَلُونَهُ : مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ ؟ مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ ؟ فَيَقُولُونَ دَعُوهُ فَإِنَّهُ كَانَ فِى غَمِّ الدُّنْيَا . فَإِذَا قَالَ فُلَانٌ قَدْ مَاتَ مَا أَتَاكُمْ ؟ قَالُوا ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ . وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ بِمِسْحٍ . فَيَقُولُونَ : أُخْرُجِى سَاخِطَةً مَسْخُوطًا عَلَيْكِ إِلَى عَذَابِ اللهِ ، فَتَخْرُجُ كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ ، حَتَّى

(١) عن السدى فى قوله تعالى : « والنازعات غرقا » قال النفس حين تغرق فى الصدر « والناشطات نشطا » قال الملائكة حين تنشط الروح من الأصابع والقدمين « والسابحات سبحا » حين تسبح النفس فى الجوف تتردد عند الموت .

يَأْتُونَ بِهِ بَابَ الْأَرْضِ . فَيَقُولُونَ : مَا أَنْتَنَ هَـذِهِ الرِّيحَ حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْـكُفَّارِ (١) » أخرجه النسائى .

وأخرج أحمد وابن أبى شيبة فى المصنف والطيالسى وعبد الله فى مسنديهما وهناد بن السرى فى الزهد وأبو داود فى سننه والحاكم فى المستدرك وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى كتاب عذاب القبر وغيرهم من طرق صحيحة عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول الله صلى الله عليـه وسلم وجلسنا حوله وكأن على رءوسنا الطير وفى يده عود ينكت به فى الأرض فرفع رأسه فقال : استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا ، ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائـكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم أكفان من الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس المطمئنة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء وإن كنتم ترون غير ذلك فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الـكفن وفى ذلك الحنوط فيخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائـكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة ، فيقول الله تعالى : اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ، فيعاد روحه فى جسده فيأتيه ملـكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول ربى الله فيقولان ما دينك ؟ فيقول دينى الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله ، فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت ، فينادى مناد من السماء : أن صدق عبدى فافرشوا له من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الرائحة فيقول أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه الذى يجىء بالخير ، فيقول أنا عملك الصالح ، فيقول رب أقم الساعة رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى . وإن العبد الـكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائـكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه

ولقد طلبت من الله أن يمثل لى مثلا أعرف به معنى من معانى الموت وما بعده لما رأيت شدة المحتضرين وصعوبة هذه الساعة على الحاضرين ، وكيف يرى المؤمن آلامها؟ فرأيت فى منامى ملكا فى صورة شيخ كبير ومعه مثل الكماشة الكبيرة وأمامه بعض الناس ممن دنت آجالهم فوجدتهم يقدمون أنفسهم له باختيارهم واحدا بعد واحد ، والذى يقدم نفسه يميل بعنقه إليه فيضع الكماشة على رقبته ثم يضغط عليها فيكز على أسنانه و يكفهر وجهه إلى أن ينتهى من ضغط الكماشة يسقط جسده جثة هامدة ثم أراه بعد ذلك روحا فى صورة الجسد يضحك مستبشرا فى أشد ما يكون من الفرح، فسألت ذلك الملك لم يضحك؟ وما الذى فعلت به؟ قال كان يلبس هذا المعطف يشير إلى جسده وقد بلى وتهلهل ولا يزيده إلا ألما ، ولا يمكنه خلعه إلا إذا خلعته له فإذا خلعه صح واستراح .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينجنى أنا ومن أحبنى والمسلمين أجمعين من كربات الموت .

مدا البصر ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضب فتتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الخبيث فيقولون فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتي ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلايفتح له، ثم قرأرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لاتفتح لهم أبواب السماء ـ فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ـ فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له مادينك ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هاه هاه لاأدرى فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فافرشوا له من النار وألبسوه من النار وافتحوا له بابا من النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذى يسوءك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول من أنت؟ فوجهك الوجه الذى يجىء بالشر فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة » .

فإن للموت شدة وسكرات وأن يختم لى ولهم وللمسلمين أجمعين بخاتمة السعادة وأن يرفع أرواحنا إلى عليين وأن يبلغنا درجات المحسنين ويدخلنا برحمته فى عباده الصالحين .

ولا يجوز لحاضرى المحتضر أن يعملوا أعمالا لاترضى الله سبحانه وتعالى كشق الجيوب ولطم الخدود والدعوى بدعوى الجاهلية ، فإن ذلك مما يوجب عقاب الله ويتأذى منه الميت فإنه يراهم ويكلمهم فى أنفسهم قائلا لهم لاتحزنونى ولا أدرى ما تفعلون بعدى ، وكفانى همى وكربى ، ولكنهم لايميزون كلامه ولا يفرقون بينه وبين الخواطر وحديث النفس ، ولا يجوز لهم أن يدعو على أنفسهم بدعاء مكروه ويستحب الدعاء الطيب لأن حاضرى الميت من الملائكة والروح الطيب يؤمّنون على الدعاء . عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : « دَخَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى أَبِى سَلَمَةَ وَقَدْ شُقَّ بَصَرُهُ فَأَغْمَضَهُ ثُمَّ قَالَ : إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ فَضَجَّ نَاسٌ مِنْ أَهْلِهِ فَقَالَ لَاتَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِى سَلَمَةَ وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِى الْمَهْدِيِّينَ وَاخْلُفْهُ فِى عَقِبِهِ فِى الْغَابِرِينَ واغْفِرْ لَنَا وَلَهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، وافسَحْ لَهُ فِى قَبْرِهِ ونَوِّرْ لَهُ فِيهِ » أخرجه مسلم والترمذى وغيرهما ؛ وليصبروا على قضاء الله ولا يجزعوا فإن كل مصيبة تبدو فى أولها صغيرة ثم تكبر إلا الموت تبدو مصيبته كبيرة ثم تصغر ولا يقول أحد إلا ما يرضى الله سبحانه وتعالى رضاء بقضاء الله وما كتبه على عباده فإن ذلك يكتب فى صحيفة العبد فى أحسن أعماله ؛ قال الله سبحانه وتعالى: « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَىْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ »[1] .

وللموت فليعمل العاملون ولكن لايتمنى أحد الموت ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك ؛ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) آية ١٥٥ — ١٥٧ البقرة .

« لايَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِناً فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ وَإِمَّا مُسِيئاً فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ » أخرجه البخارى والنسائى ؛ وفى الأثر : « خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ » وإذا كان المرء يحرص على الحياة فليحرص عليها لوجهها الصحيح وهو التزود بالتقوى كما أمر الله سبحانه وتعالى « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى واتَّقُونِ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ »[(١)] .

أى يا أهل العقول والبصائر يا من قد رأيتم نهاية الحياة وأن كل ما فيها زائل « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُوا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »[(٢)] . ولكن إذا نزل الموت بأحد فعليه أن لايجزع وليحسن ظنه بالله وليستبشر ويهون على نفسه ويشتاق إلى لقاء الله فإنه مما يهون خروج النفس ؛ وفى الأثر : « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ » وبالشوق إلى لقاء الله عشقا وحبا وصدقا تطمئن القلوب وتزول كربات الموت وتخرج الروح راضية مرضية وتسعد وخاصة فى ساعة وداع هذا العالم الفانى.

ومن علامات الفوز فى هـذه الساعة الرهيبة كثرة ذكر الموت فإنها تعين على هدم شهوات النفس وتكبح جماحها وتفيد فى ترك ما لافائدة منه وتقوى على العمل لما بعد الموت ؛ وفى الأثر « أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ وَمُفَرِّقِ الْجَمَاعَاتِ » وأخرج ابن ماجه عن عمر رضى الله عنه قال : « سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : أَىُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ ؟ قَالَ أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ » وفى الأثر « قيل يا رسول الله هَلْ يُحْشَرُ مَعَ الشُّهَدَاءِ أَحَدٌ ؟ قال : نَعَمْ مَنْ يَذْكُرُ الْمَوْتَ فِى الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عِشْرِينَ مَرَّةً » وعن الحسن عليه السلام أنه قال: « مَا أَلْزَمَ عَبْدٌ قَلْبَهُ ذِكْرَ الْمَوْتِ إِلَّا صَغُرَتِ الدُّنْيَا عِنْدَهُ وَهَانَ عَلَيْهِ جَمِيعُ مَا فِيهَا » وعن أبى حازم أنه قال : انظر الذى تحب أن يكون معك فى الآخرة فقدمه اليوم ، وانظر الذى تكره أن يكون معك ثم فاتركه اليوم ، وقال كل عمل كرهت الموت من أجله فاتركه ثم لايضرك متى مت ؛ قال الله سبحانه وتعالى « إِنَّ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ

---

(١) آية ١٩٧ البقرة . (٢) آية ٢٦ ، ٢٧ الرحمن .

آيَاتِنَا غَافِلُونَ . أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »(١) .

اللهم لاتنسنا ذكرك ولا تهتك عنا سترك ولا تجعلنا من الغافلين .

حياة الروح بعد الموت

لقد ثبت فى أدلة هذا الكتاب أن حياة العقل والفكر لاتكونها المادة وإنما هى التى تتسلط على المادة ، فالروح هى المدبرة العاقلة المفكرة المريدة من عالم فوق عالم المادة ويستحيل أن تكون من خلق المادة أو من أسبابها ، وما دامت مما لاتخلقه المادة أو مما تسيطر عليه أسبابها وهى التى تسيطر عليها فهى تتجرد من عالم المادة بإرادة الذى خلقها ولها وجود غير الوجود المادى مجرد عنه بعد مفارقته ؛ لذلك أجمع أولو الألباب على بقائها عقلا بعد خروجها من الجسد ، وأجمع أهل الكتب المنزلة على حياة الروح بعد الموت ، وأجمع المسلمون على بقاء الروح بعد خروجها من الجسد ومن خالف ذلك يخالف عقيدة القرآن وما جاء به خير الأنام والآيات والأحاديث الدالة على ذلك لاتقع تحت حصر وسقنا الكثير منها فى سابق الأبواب، ونعيم القبر وعذابه ثابت ، وأما النص على حياة الشهداء فهو نص توقير وتكريم لأن لهم حياة أزهى وأرقى من حياة غيرهم .

والميت بعد أن يتخلص من غمرات الموت وسكراته تفيق روحه وتتيقظ يقظة أهم من يقظتها فى الدنيا إلا أنها لاتستطيع التكلم مع أهل الدنيا لأنهم لايتبينون الكلام إلا بالأصوات وكلام الروح من غير صوت وبغير لسان ، فعالم الروح لايحتاج إلى هذه الأسباب ولكن الأحياء فى هذا العالم لايكيفون الكلام إلا على هذه الصورة التى اقتضاها تكليفهم فى هذا العالم وألفوها إلا فى حالة النوم فإنهم يبصرون ويتكلمون ويسمعون بصورة أرقى لاتحدّها الحواس الظاهرة فيقومون من نومهم وقد حفظوا ما تكلموا به أو سمعوه وميزوا عذوبة الأصوات من ضدها وجمال المتكلم وقبحه دون أن يسمع أو يبصر أحد المتيقظين حولهم شيئاً مما حدث .

---

(١) آية ٧ ، ٨ يونس .

والميت إذا خرجت روحه من جسده وقف بين أيدى ملائكة الرحمن يرى ما يفعل بجثته و يعرف من يغسله ويكفنه ويحمله ويشيعه ومن يدليه إلى حفرته[١] فإذا ما قبر أعيدت له حياة أقوى مما كان فيه وهذا من قدرة الله العلى الأجل لايدريها أهل الأرض ثم أقعد فى قبره حتى يسأل .

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ إِذَا انْصَرَفُوا ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ : أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ . فَيُقَالُ لَهُ انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ فَيَرَاهُمَا جَمِيعاً ، وَيَفْتَحُ اللهُ لَهُ مِنْ قَبْرِهِ إِلَيْهِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَيَقُولُ : لَا أَدْرِى ، كُنْتُ أَقُولُ كَمَا يَقُولُ النَّاسُ . فَيُقَالُ لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ : فَيَصِيحُ صَيْحَةً فَيَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ » أخرجه البخارى ومسلم رضى الله عنهما وغيرهما من أصحاب السنن .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ ، يَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ » أخرجه البخارى ومسلم والترمذى رضى الله عنهم . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » أخرجه مسلم والترمذى والنسائى ومالك وأبو داود ، ومعنى هذا أنه يحبس عن العمل فى هذا العالم لانتهاء وقت التكليف ، أما ما بقى له من الصدقة الجارية أو العلم المنتفع به أو الولد الصالح الذى يدعوله فهو نماء أعماله الماضية بما تركه من الأسباب التى تميها فى أرض التكليف .

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الميت يعرف من يغسله ويحمله ويكفنه ومن يدليه فى حفرته » أخرجه أحمد والطبرانى فى الأوسط وابن منده وابن أبى الدنيا والمروزى .

حياة البرزخ : عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ : فَيُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أخرجه البخارى ومسلم رضى الله عنهما وغيرهما من أصحاب السنن.

وعن هانئ مولى عثمان بن عفان قال : كان عثمان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يَبُلَّ لحيته، فقيل له : تَذْكُرُ الجنة والنار فلاتبكى وتذكر القبر فتبكى، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الْقَبْرُ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الآخِرَةِ ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ ، وإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ » وقال صلى الله عليه وسلم : « مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلاَّ وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ » أخرجه الترمذى، وزاد رزين أن هانئا قال: سمعت عثمان رضى الله عنه ينشد :

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة   وإلا فإنى لا إخالك ناجيا

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عَلَى قَبْرَيْنِ فَقَالَ : إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ثُمَّ قَالَ بَلَى ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ ، وأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لَايَسْتَبْرِئُ مِنْ بَوْلِهِ، ثُمَّ دَعَا بِعَسِيبٍ رُطَبٍ فَشَقَّهُ اثْنَيْنِ ، فغَرَسَ عَلَى هَذَا واحِدًا وعَلَى هَذَا واحِدًا ، ثُمَّ قَالَ لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا » أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن ، ومن هذه الأحاديث الصحيحة وغيرها على غرارها من الصحيح كثير يعلم أن الأرواح تعذب أو تنعم فى القبور وتحس بذلك ولو لم ير عالمنا المكلف شيئا من ذلك لأنه من مقتضيات التكليف أن يغيب عنا ، ولكن للأرواح نعيم فوق ما فى القبور إن كانت صالحة لأن لها بابا إلى الجنة تغدو منه إليها وتسبح فيها مع أهل درجتها ، وترى زائر القبر من إشعاعها عليه ، وأما إن كانت من أرواح الكافرين فترمى فى سجين ويمتد لهب من النار إلى جثتها من حيث لايراها الناس فتتعذب إلى قيام

الساعة والساعة أدهى وأمر[1] . وأما عصاة أهل الإسلام فيحبسون أو يعذبون إلى أن تنتهى

---

(١) ولقد تكلم العلماء فى مستقر الأرواح بعد الموت ، ولقد جمع كلامهم ولخصه قطب عصره الولى الربانى والعالم الجليل سيدى عمر جعفر الشبراوى فقال رضى الله عنه : (وأما مقر الروح بعد الموت فهى متفاوتة فيه: فمنها أرواح فى أعلى عليين فى الملأ الأعلى وهم الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وهم متفاوتون فى منازلهم كما شاهد النبى صلى الله عليه وسلم ذلك ليلة الإسراء ومنها أرواح فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت وهى أرواح بعض الشهداء لا جميعهم فإن بعضهم قد يحبس عن دخول الجنة بسبب دين عليه أوغيره حتى يقضى عنه ، ومنها أرواح السعداء من المؤمنين غير الشهداء وقد اختلف فيها على أقوال: أحدها على أنها على أفنية القبور، قال ابن العربى وهو أصح الأقوال، قال والمعنى عندى قد تكون على أفنية القبور لا أنها تدوم ولا تفارق بل هى كما قال بعضهم تسرح حيث شاءت . انتهى ــ وقال العلامة الأمير إنها بأفنية القبور من فوق . انتهى ــ ثم اعلم أنه قد ورد عدة أحاديث تفيد اختلاف محل الأرواح فمنها يفيد أنها تكون فى حواصل طير خضر وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى أنهار الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى قناديل تحت العرش » قال الحافظ وفى رواية لأحمد وأبى داود : « جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش » وأخرج البخارى عن أنس « أن حارثة لما قتل قالت أمه: يارسول الله قد علمت منزلة حارثة منى فإن يكن فى الجنة أصبر وإن يكن فى غير ذلك ترى ما أصنعه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها جنات كثيرة وإنه فى الفردوس الأعلى » وأما ما ورد فى مطلق أرواح المؤمنين ؛ فمن ذلك ما أخرجه الإمام مالك فى الموطأ وأحمد والنسائى بسند صحيح عن كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » قال الحافظ السيوطى وأخرج أحمد والطبرانى بسند حسن عن أم هانىء أنها : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتزاور إذا متنا ويرى بعضنا بعضا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : تكون النسمة طيرا يعلق بالشجر حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس فى جسدها » قال وأخرج الطبرانى فى مسنده قال « سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن أرواح المؤمنين؟ فقال فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، قالوا يارسول الله وأرواح الكفار قال محبوسة فى سجين » قال وأخرج ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب عن سعيد بن المسيب: أن سلمان الفارسى وعبد الله بن سلام التقيا فقال أحدهما لصاحبه إن لاقيت ربك قبلى فأخبرنى ماذا لاقيت فقال أو يلقى الأحياء

... ...

الأموات قال نعم . أما المؤمنون فإن أرواحهم فى الجنة وهى تذهب حيث شاءت ومنها ما ورد من كونها فى السماء ولذلك استشهد القائل بعموم كون الأرواح فى السماء قال وأخرج أبو نعيم بسند ضعيف عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أرواح المؤمنين فى السماء السابعة ينظرون إلى منازلهم فى الجنة » وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن وهب بن منبه قال : إن لله فى السماء السابعة دارا يقال لها البيضاء تجتمع فيها أرواح المؤمنين فإذا مات الميت من أهل الدنيا تلقته أرواح يسألونه عن أخبار الدنيا كما يسأل الغائب أهله إذا قدم عليهم ، وفى بعض الروايات ما يفيد أنها تكون بالأرض فمن ذلك ماقاله الحافظ المذكور قال أخرج ابن المبارك فى الزهد عن سعيد بن المسيب عن سلمان قال « أرواح المؤمنين فى برزخ من الأرض تسرح حيث شاءت ونفس الكافر فى سجين » . قال الإمام ابن القيم : البرزخ هو الحاجز بين الشيئين فكأنه أراد فى أرض بين الدنيا والآخرة . قال وأخرج المروزى فى الجنائز وابن عساكر فى تاريخه عن عبد الله بن عمر قال «أرواح المؤمنين فى بئر زمزم وأرواح الكفار فى واد يقال له برهوت[1] وبرهوت سبخة فى حضرموت» وفى بعض الروايات «أرواح المؤمنين تجتمع بالجابية» قال وأخرج الحاكم فى المستدرك عن عبد الله بن عمر قال أرواح المؤمنين تجتمع بأريحاء وهى بلدة بالشام وأرواح أهل الشرك تجتمع بصنعاء قال الحافظ المحقق هـذا مجموع ما وقفنا عليه من الأحاديث والآثار فى مقر الأرواح وقد اختلفت أقوال العلماء فيه بسبب اختلاف هذه الآثار قال : قال ابن القيم والتحقيق الذى لا خلاف فيه أن الأرواح متفاوتة فى مستقرها فى البرزخ أعظم تفاوت ، ولا تعارض بين الأدلة فإن كلا منها وارد على فريق من الناس بحسب درجاتهم قال وعلى كل تقدير فللروح بالبدن اتصال بحيث يصح أن تخاطب ويسلم عليها ويعرض عليها مقعدها وغير ذلك مما ورد فإن للروح شأنا آخر فتكون فى الرفيق الأعلى وهى متصلة بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على صاحبها رد عليه السلام وهى مكانها هناك وإنما يأتى الغلط هنا من قياس الغائب على الشاهد فيعتقد أن الروح من جنس ما يعهد من الأجسام التى إذا شغلت مكانا لم يمكن أن تكون فى غيره وهذا غلط محض، وقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء موسى قائما يصلى فى قبره ورآه فى السماء السادسة فالروح كانت هناك فى مثال البدن ولها اتصال بالبدن بحيث يصلى فى قبره ويرد على من يسلم عليه وهو فى الرفيق الأعلى، ولاتنافى بين الأمرين فإن شأن الأرواح غير شأن الأبدان . وقد مثل ذلك بعضهم بالشمس فى السماء الرابعة وشعاعها فى الأرض وقد قال صلى الله عليه وسلم « من صلى على عند قبرى سمعته » . هـذا مع القطع بأنه فى أعلى عليين مع أرواح الأنبياء وهو الرفيق الأعلى فثبت بهـذا أنه لا منافاة بين كون الأرواح فى عليين أو فى

(١) برهوت كجملون : واد أوبئر بحضرموت .

أيام العقوبة أو تطول حتى يوم الحشر أو تزيد حتى يخرجوا من النار ويغتسلوا فى نهر الغفران وكذلك يحبس المرء حتى يؤدى عنه دينه ، وقد أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة على المدين ولو كان من الشهداء حتى يؤدى دينه . اللهم لا تخرجنا من الدنيا إلا بأحسن ما يخرج منها أهل الصلاح والفلاح غير مدينين ولا موزورين .

هذا ، ولقد رأيت والدى رضى الله عنه بعد انتقاله فقلت له: أود أن أسألك بعض الأسئلة فهل تسمح لى؟ فقال نعم فقلت له: هل كنت تعلم شيئا عند الموت و بعده؟ قال نعم كنت أرا كم جميعا ، ورأيت من شيعونى ومن أنزلونى إلى قبرى وإخوانى الذين مكثوا معى بعد نزولى يقرأون القرآن حوالى حتى خرجوا من القبر فقلت له هل تسكن القبر ، وهلا تسأم المكث فى القبر وهو على صورته التى نراها؟ قال أرى القبر ولكن لنا مجامع نكون فيها ونأتى ونتزاور

الجنة أو فى السماء وأن لها بالبدن اتصالا بحيث تدرك وتسمع وتصلى وتقرأ وإنما يستغرب هذا لكون الشاهد الدنيوى ليس فيه ما يشابه هذا وأمور البرزخ والآخرة على نمط غير المألوف فى الدنيا إلى أن قال والحاصل أنه ليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد وكلها على اختلاف محالها وتباين مقارها لها اتصال بأجسادها فى قبورها ليحصل لها من النعيم ما كتب لها انتهى ابن القيم. وقال الحافظ ابن حجر: أرواح المؤمنين فى عليين وأرواح الكفار فى سجين، ولكل روح بجسدها اتصال معنوى لا يشابه الاتصال فى الحياة الدنيا بل أشبه شىء به حال النائم وإن هو أشد من حال النائم اتصالا قال وبهذا يجمع بين ما ورد أن مقرها فى عليين أو سجين وبين ما نقله ابن عبد البر عن الجمهور أنها عند أفنية القبور ومع ذلك فهى مأذون لها فى التصرف وتأوى إلى محلها من عليين أو سجين . قال وإذا نقل الميت من قبر إلى قبر فالاتصال المذكور مستمر وكذا إذا تفرقت الأجزاء وقال صاحب الإفصاح . المنعم من الأرواح على جهات : منها ما هو طائر فى شجر الجنة ، ومنها ما هو فى حواصل طير خضر ، ومنها ما هو فى حواصل طير بيض ومنها ما يأوى إلى قناديل تحت العرش ونحو ذلك مما تقدم من الأحاديث والأقوال، قال القرطبى وهذا قول حسن يجمع الأخبار المتقدمة حتى لا تتدافع . قال الأستاذ الجلال وذكر البيهقى فى كتاب عذاب القبر نحوه لما ذكر حديث ابن مسعود فى أرواح الشهداء وحديث ابن عباس ثم أورد حديث البخارى عن البراء بن عازب قال « لما مات إبراهيم ابن النبى صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن له مرضعا فى الجنة» . ثم قال فحكم النبى صلى الله عليه وسلم على ابنه إبراهيم بأنه يرضع فى الجنة وهو مدفون بالبقيع فى مقبرة المدينة . هذا ما نقل فى الروح من الأحاديث والأقوال ، وقد علمت التحقيق والله أعلم .

قلت له و إذا لم يرض من تزوره ؟ قال من أذن له لا يرد وأنا أزور من أحب ، وكنت أود أن أسأله أكثر من ذلك ولكنى تيقظت .

وصفوة القول أن الحياة هناك أرقى من حياة هذا العالم للمؤمن وأقل من الحياة بعد المبعث، ومهما سمعنا عنها فإنها من المغيبات التى لا ندركها مادمنا فى هذا العالم ونقف منها عند الآثار الصحيحة التى ورد بها الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، والحديث الذى اعتمد عليه فى البشرى للمؤمن وما سوف نكون عليه حياته بعد الموت هو ما ورد عن كعب بن مالك رضى الله عنه إذ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا نَسَمَةُ المُؤْمِنِ طَيْرٌ يُعَلَّقُ فِي شَجَرِ الجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَهُ اللهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ » أخرجه مالك والنسائى رضى الله عنهما أى أن نسمة المؤمن على هيأة طائر تلوذ بشجر الجنة ، وأما اتصالها بالقبر فاتصال إشراف وهذا نعمة من الله للأحياء حتى تعرف روح المتوفى زائرها وترد عليه السلام فيقع فى قلبه فيحصل له برد الرضا إذا كان محزونا من فراقه ، أو تحصل له لذة الوصلة الروحية إذا كان من أحبائه ويؤجر على الوفاء والود والبر والصدقة وحتى لا ينقطع حبل التوادد والتراحم والمعروف والوفاء بين الأحياء والأموات ، ولا تكفى النية فإن زيارة القبر جسدها والعمل المادى إثباتها لمن هم فى دار الحس والشعور ، ولا تزال الأرواح ترنو إلى قبورها ما دامت معروفة ، ولها زائر محب فى الله . أما أرواح أهل الوصلة من الأحياء والأموات فهى مجتمعة بإحساس القلوب وقوة المحبة فى الله مهما تناءت الأجساد والله أعلم وأعز وأكرم .

أسأله العفو عن التقصير والتجاوز عن الخطأ وغفران الذنوب ، وأن ينفع بكتابى هذا المسلمين والناس أجمعين . وأن يتقبله قبولا حسنا ويزيد فى الأجر والثواب لمؤلفه وقارئه وسامعه وناشره للانتفاع به . وصلِّ اللهم على سيدنا محمد أسعد السعداء من خلقك ، وأفضل رسلك من ملأ الأرض علماً ونوراً حتى اغترف من بحره الخضم كل مغترف (ولا تنضح البحار السقاء) وعلى آله وصحبه وسلم .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ؟

٢١ جمادى الثانى سنة ١٣٦٦ هـ
١٢ مايو سنة ١٩٤٧ م

تصويب

وقعت فى أثناء الطبع بعض الأخطاء فنرجو من حضرة القارئ تصحيحها قبل قراءة الكتاب ، وهى :

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٠	٦	ذربته	ذريته
٢٧	٦	خلفت	خلقت
٢٧	١٣	أثناء	فى أثناء
٢٧	١٨	محبوباتهم	فى محبوباتهم
٢٩	٢	فيرنقون	فيرتقون
٣٢	٢٢	فلا يعرف	فلا يعرفه
٤٠	١٦	التكليف	التكاليف
٤٩	١٠	سَماَءا	سماء
٥٣	٤	والتداخل	والتدخل
٥٣	١٩	وعافبة	وعاقبة
٥٤	١	والخذوا	واتخذوا
٩٤	٧	فى الشر	فى شر
٩٥	٥	تحدث	تضعف
٩٨	١١	أثناء	فى أثناء
١٠٠	٢	أعانوهم	أعنهم
١١٥	١٨	أفصبح	فأصبح
١٢٠	٥	الشَّبِمِ	الشَّبِمِ
١٢٠	١٣	الغَيْرُ	الغَيْرَ

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٢٦	١٠	لو أنْ	لَو أنّي
١٢٨	١٧	قَبرُ	قُبِرْ
١٣١	٨ و ١٢	أثناء	فى أثناء
١٣٢	١٢	أثناء	فى أثناء
١٣٤	٨و١٧	أثناء	فى أثناء
١٣٥	٣و٦	أثناء	فى أثناء
١٣٥	١٠	أثناءها	فى أثنائها
١٣٥	١٨	أثناء	فى أثناء
١٣٦	١	أثناء	فى أثناء
١٤٧	١٥	عن عالم غير المنظور	عن كل عالم غير منظور
١٤٨	١٤	المخلِصين	المخلَصين
١٧٧	١٣	ولهم	وللمؤمنين
١٨٤	٦	الخضوع	الخضوع لأوامر الشرع
١٨٦	١	لايقعون	لايقعوا
١٨٩	١٤	التولة	التوله
١٩٠	٢٣	تزبين	تزيين
١٩٢	١	أنهم	أن الإنس
١٩٥	٣	بعد	بعض
٢٠٢	٤	الغير منظور	غير المنظور
٢٠٣	٣	ثم	حتى
٢١٥	٦	بواسطته	بوساطته
٢١٦	٥	عن	على

والله العصمة وحده



الناشر

جمعية نشر الثقافة الإسلامية

ويطلب من :

- ☐ مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بالأزهر بمصر .
- ☐ « الثقافة بالسيدة زينب « .
- ☐ دار الكتب الأهلية بالأوبرا « .

ومن جميع المكتبات الشهيرة بمصر والأقطار العربية .

الثمن ٥٠ قرشا



